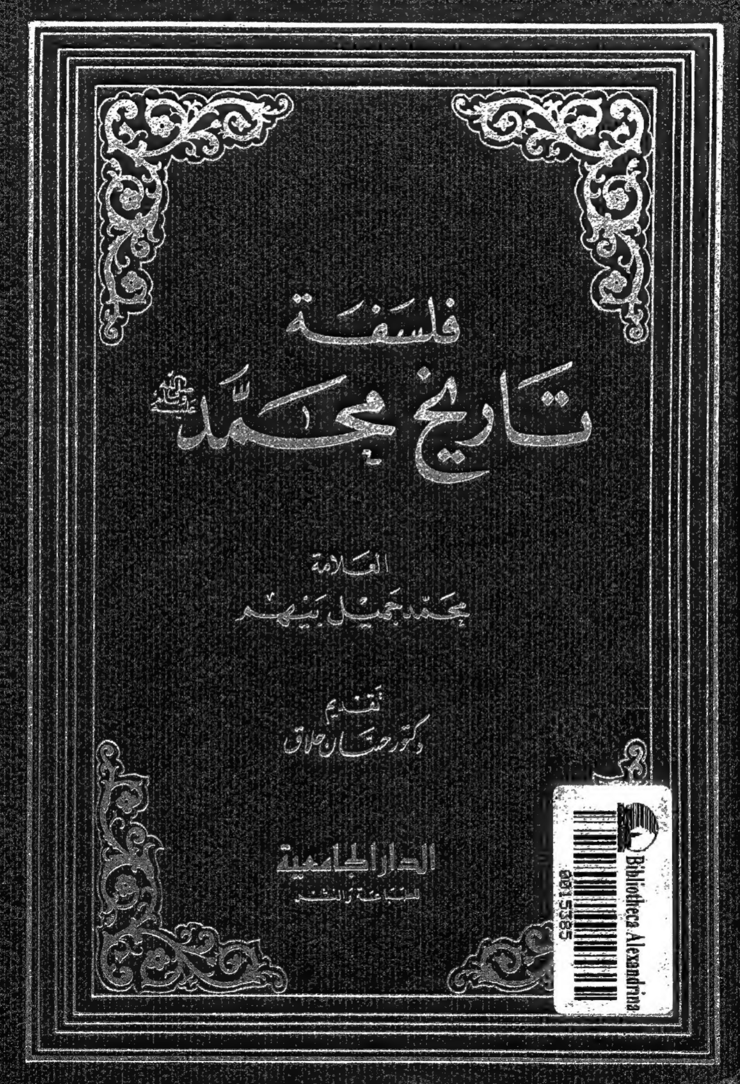

فلسفة
تاريخ محمد ﷺ
العلامة
محمد جميل بيهم
تقديم
دكتور حسان حلاق
الدار الجامعية
للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
0015385


بساط
بيروت

فلسفة تاريخ محمد ﷺ

العلامة
محمد جميل بيهم

تقديم
دكتور حسان حلاق

الدار الجامعية
للطباعة والنشر
بيروت ـ ص.ب: [illegible]

« دراسات علمية وتاريخية في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول الظروف العالمية والاحداث التي تقدمت عهد النبي محمد ﷺ أو عاصرته، سواء أكان ذلك في جزيرة العرب أم في غيرها من أنحاء العالم . تلك الظروف والأحداث التي مهدت لرسالته، وأمنت نجاحها بمقتضى النواميس الطبيعية » .

تقديم وتعريف

للدكتور حسان حلاق

(الخلفية السياسية والاجتماعية والفكرية للعلامة محمد جميل بيهم (١٨٨٧ - ١٩٧٨)[1]

قبل البدء بتقديمنا وتعريفنا بالعلامة محمد جميل بيهم لا بد من القول بأن الباحث والقارىء في لبنان والوطن العربي قد يتساءل عن الاسباب التي دعت الى اعادة اصدار مؤلفات العلامة بيهم. وبالتأكيد فان هناك عوامل عديدة استلزمت اعادة نشر تلك المؤلفات، ويمكن ذكر بعض تلك العوامل على النحو التالي.

١ ـ قام محمد جميل بيهم بدور بارز وأساسي في تكوين وتطوير الفكر السياسي والاجتماعي في لبنان والوطن العربي سواء أكان ذلك بواسطة مؤلفاته ومقالاته أم بواسطة المناصب السياسية والعلمية والاجتماعية التي تولاها منذ أوائل القرن العشرين.

٢ ـ تفرد محمد جميل بيهم بمعالجة الموضوعات الشائكة ذلك أن أحداً من

---

١ ـ للمزيد من التفصيلات الوافية عن حياة محمد جميل بيهم انظر كتابنا: المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٨٨٧ ـ ١٩٧٨، بيروت ١٩٨٠.

المؤرخين والمفكرين اللبنانيين المعاصرين لم يتطرقوا اليها، كما أن معالجته للموضوعات كثيراً ما كانت تؤثر في المسؤولين والفئات الشعبية سواء في عهد الانتداب أم في عهود الاستقلال.

٣ ـ تميزت مؤلفات بيهم بالتنوع والشمـول ذلـك أنها شملـت التـاريـخ والاجتماع والسياسة والدين والمرأة، كما أنَ أبحاثه لم تقتصر على أوضاع لبنان فحسب، بل شملت دراسة الاوضاع في البلدان العربية في عهد الدولة العثمانية، وفي عهود الانتداب الفرنسي والبريطاني والايطالي والى حد كبير في عهود الاستقلال.

٤ ـ لم يكتف بيهم بسرد الاحداث التاريخية والسياسية بل قام بتحليلها وتفسيرها وفلسفتها، أضف إلى ذلك وقوفه على معلومـات غير معلنـة سـواء بواسطة مركزه السياسي والاجتماعي أم بواسطة اتصاله بالقوى الفاعلة في لبنان والعالم العربي اعطت مؤلفاته بعداً فكرياً هاماً، كما أنه أصبح أكثر قدرة على التعبير عما يجيش في صدور الفئات اللبنانية والعربية.

٥ ـ تعتبر مؤلفات بيهم من الكتب القيمة النادرة التي نفذت طبعاتها الاولى، لا سيما وأن بعضها طبع منذ عام ١٩٢١. والحقيقة ان اعادة نشرها يعتبر كسباً للمكتبة العربية وللباحث العربي ذلك أنه لا يمكن الاستغناء عنها لأنها سجل حافل شامل بمختلف الموضوعات نابعة من مفكر لم يكن معاصراً للأحداث فحسب، بل كان مشاركاً أساسياً في تطوراتها وفي تكوينها.

هذا ويمكن القول أن التعريف اللاحق يسلّط بعض الأضواء على الخلفية السياسية والاجتماعية والفكرية للعلامـة بيهـم. لقـد عـاش محمد جميـل بيهـم (١٨٨٧ ـ ١٩٧٨) في مدينة بيروت في منطقة المصيطبة التي سبق أن اتخذت برجاً لها عرف باسم «برج بيهم». أما الشارع الذي سكن فيه فهو المعروف

باسم مختار بيهم.

ولقد برزت عائلة بيهم العيتاني في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ قرون عديدة، فان أمير الماء أو الاميرال ابراهيم العيتاني ـ قبودان باشا ـ قد ولاه السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر قيادة قسم من الاسطول العثماني. ثم أصبح ابراهيم باشا أشهر الذين تولوا الصدارة العظمى في السلطنة العثمانية في ١٣ شعبان عام ٩٢٩ هـ ١٥٢٣ م. وقد تولى الحصار الأول لمدينة فيينا في مطلع عام ٩٣٦ هـ ١٥٢٩ م، غير أنه اعدم في رمضان عام ٩٤٨ هـ ـ ١٥٤٢ م. هذا بالاضافة الى أن مكانة الحاج نجيب بيهم العيتاني دعت البابا «لاون» لأن يستقبله ويجتمع به في اجتماع خاص.

والحقيقة أن أسرة بيهم هي فرع من آل العيتاني احدى أهم الأسر البيروتية، وتشير احدى وثائق محمد جميل بيهم الى أن الواقف ابراهيم بن خليل العيتاني كان من أعيان مدينة بيروت في القرن الثامن عشر.

ويذكر المهتمون في تاريخ الأنساب أن أسرة العيتاني من الأسر التي نزحت من المغرب الى بيروت في أعقاب جلاء الأسر الاسلامية عن الأندلس. وقد انفصلت أسرة بيهم عن أسرة العيتاني في أواخر القرن التاسع عشر، وبالذات في عهد حسين بيهم العيتاني بن ناصر بن محي الدين العيتاني. ولهذا الانفصال قصة اجتماعية مرتبطة بمآثر العائلة، وهي أن حسين المذكور كان كريماً مضيافاً يحسن الى الفقراء والمعوزين ويوزع أموالاً عليهم. ومن اجل ذلك لقبه الناس وقتذاك بلقب «أبي الفقراء»، وأصبح الناس يشيرون الى هؤلاء الفقراء والمعوزين على أن حسين بك هو «بيهم» أي والدهم. ومنذ ذلك التاريخ بدأ هذا الفرع من العائلة يأخذ اللقب الجديد «بيهم» منفصلا بالتدريج عن اسم العائلة الأم «العيتاني».

هذا وقد أنجب حسين بيهم ستة أبناء هم: ناصر، محمد، يوسف، عمر، مصطفى، وعبدالله. وكان يوسف من ألمع هؤلاء، اذ أن تجارته الواسعة جعلته على صلة وثيقة بالأمراء والمقدمين والمشايخ اللبنانيين. ولما انتشر وباء الكوليرا في عهد الأمير بشير الشهابي الكبير، توجه يوسف بيهم مع عائلته الى منطقة «عين عنوب» الجبلية، واذ يفاجيء أهل المنطقة بقافلة كبيرة تدخل القرية، وكان دليلها يسأل عن منزل آل بيهم، فاذا بالقافلة محملة بشتى المؤن مهداة من الأمير بشير الى أسرة بيهم النازلة في رحابه في الجبل.

وكان لهذه الحادثة وقع وأثر هام في توطيد العلاقة بين آل بيهم وبين الأسرة الشهابية. وكثيراً ما تبودلت الرسائل بين مصطفى بيهم - جد محمد جميل بيهم - وبين الأمراء الشهابيين وسواهم من أمراء الجبل. والحقيقة أن أسرة بيهم لعبت دوراً هاماً في أحداث ١٨٦٠، اذ ساهمت في اخماد الفكر الطائفي، كما كان لها دور بارز في حماية المسيحيين في بيروت، وقد تولى هذا الأمر بالذات عمر أفندي بيهم[1]. وكان عمر رئيس مجلس الشورى في عهد الحكم المصري ١٨٣٠ - ١٨٤٠، وكان الوجه الأول في مدينة بيروت، ورغم ذلك فقد كان مشهوراً بتواضعه[2]. ولما سجن الشيخ سعيد جنبلاط في بيروت في أعقاب احداث ١٨٦٠ تولى مصطفى بيهم رعايته في سجنه.

اشتهرت أسرة بيهم بالعمل التجاري، غير أن بعض رجالها أظهر ميلاً للسياسة والثقافة والأدب، ففي القرن التاسع عشر ظهر منهم بالاضافة الى حسين وابنيه عمر ومصطفى المفكر حسين بيهم الذي شارك في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية عام ١٢٩٦ هـ - ١٨٨٧ م، بالتعاون مع الشيخ

---

١ - انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٣، ص ٩٢.

٢ - انظر: أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥، جـ ١، ص ١٩.

عبدالقادر قباني وبعض رجالات المسلمين. كما شارك حسين بيهم ومحي الدين بيهم باستقبال الامبراطور الالماني غليوم الثاني أثناء مروره في بيروت عام ١٨٩٨، باعتبارهما من أعيان بيروت، وذلك جنباً إلى جنب مع ميشال أفندي اده مدير الأمول الأجنبية، والشيخ عبدالقـادر قبـاني رئيس بلـديـة بيروت، وحبيب باشا السعد، والكونت فيليب دي طرازي وسواهم[١].

هذا وقد انصرف فريق من آل بيهم لخدمة المجتمع، فأبلى بلاءً حسناً في سبيل القضايا العربية والانسانية والاجتماعية، فأحمد مختار بيهم كان من الرعيل الأول الذي اشتغل في قضايا الاستقلال، وكان حسين بيهم والد مختار رئيساً للجمعية العلمية السورية التي اعتبرت نواة المجمع العلمي، كما كان شديد الصلة بالأمير عبد القادر الجزائري، وبشريف مكة عبد المطلب، الذي جرى بينهما تعاون وثيق من أجل استقلال العرب عن الدولة العثمانية. غير أنه من الأهمية أن نذكر أن سياسة بعض وجهاء آل بيهم كانت عثمانية، فبعد ظهور حركة سرية في بيروت وتوزيعها المنـاشير المعـاديـة للأتـراك ذكـر القنصـل الفرنسي العام في سوريا أن عائلة بيهم البيروتية أرسلت إلى الوالي رسالة موقعة من وجهائها تدين ما جاء في المناشير من «أفكار هدامة وتدعو لملاحقة صارمة لهذه الألاعيب المجرمة»[٢].

أما محمد عبدالله بيهم فقد كان عضواً بارزاً في مجلس الاعيان العثماني، ثم أصبح رئيساً لبلدية بيروت، كما كان أحمد مختار بيهم عضواً في المؤتمر العربي

١ ـ حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص ١٥٥.

٢ ـ وزارة الخارجية الفرنسية ـ الأرشيف الدبلوماسي ـ تركيا

M.A.E.F. Archives Diplomatiques Turquie, Vol.23, R. No.48.

نقلاً عن: د. وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠، ص ١٣٨، انظر أيضاً: ص ١٤٠.

في باريس عام ١٩١٣ ، وطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية على أساس اللامركزية، كما رفض استبدال الحكم العثماني بالحكم الفرنسي وكان عضواً في الحكومة العربية في بيروت[١] . بينما كان محمد بن مصطفى بيهم والد جميل رئيساً للمصرف الزراعي العثماني ونائباً لرئيس بلدية بيروت الشيخ عبدالقادر قباني. كما أصبح عبدالله بيهم أمين سر الدولة ورئيساً للحكومة عام ١٩٤٢ . أما عبدالرحمن بيهم فكان رئيساً لمحكمة الغرفة التجارية. وكان عصام ابن عبدالرحمن بن محي الدين عمر بيهم قنصل لبنان في الاسكندرية، وأصبح أمين أحمد مختار بيهم نائباً عن بيروت في عهد الاستقلال[٢] وأصبح رئيساً لبلدية بيروت الى أن توفي في صيف عام ١٩٨١ .

بالاضافة الى ذلك فقد عمل بعض آل بيهم في العمل الاسلامي، ومن مآثر عبدالله بيهم بناؤه مسجد عين المريسة في عام ١٨٨٧ ، وبالرغم من أن البعض يذكر بأنه أنشأه بالتعاون مع الشيخ محمد علايا والشيخ محمد المبري، غير أن اللوحة الموضوعة في أعلى الباب بالحائط الشمالي للمسجد، لم يذكر عليها سوى اسم عبدالله بيهم[٣] .

ويذكر رئيس الوزراء السوري الاسبق خالد العظم بأنه عندما درس مشروع مد سكة حديد على طريق بيروت ـ دمشق، قدر الخبراء نفقات التأسيس بمبلغ أربعة وعشرين مليون فرنكا ذهباً. وعلى الأثر طلب أحد وجهاء بيروت السيد حسن بيهم امتيازاً بهذه السكة، فناله بموجب الفرمان الصادر في ٧ حزيران (يونيه) ١٨٩١ . غير أنه باع الامتياز «لشركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية ـ بيروت ـ دمشق ـ حوران» بمبلغ دفع له اسهماً في الشركة

---

١ ـ للمزيد من التفصيلات انظر كتابنا سليم علي سلام (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨) بيروت ١٩٨٢ .
٢ ـ أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥ ، جـ ٢ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .
٣ ـ د. صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص ١٠٢ ، وهامش رقم ٩٦ في ص ١٢١ .

الجديدة بحيث خصص له ولحملة اسهم شركة طريق بيروت ـ دمشق ١٢,٥٠٠ سهماً لقاء افراغهم حقوقهم أي ما يعادل ٦٥٠٠٠٠٠ فرنك[١].

أما فيما يختص بالعلامة محمد جميل بيهم فاسمه الأساسي جميل وقد تكنى باسم محمد جميل تبركاً وتقرباً من النبي محمد(ﷺ)، وهو ابن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم بن ناصر العيتاني. ولد في بيروت عام ١٨٨٧ وتلقى علومه الاولى في «الكلية العثمانية» التي أصبح اسمها فيما بعد «الكلية الاسلامية» للشيخ أحمد عباس الأزهري. ثم انتقل الى مدرسة «أوليڤيا» الفرنسية التي أصبحت نواة للبعثة العلمانية الفرنسية «الليسيه» «وبهذا يكون محمد جميل بيهم قد وجد طريقه الى ثلاث لغات معاً: العربية والتركية والفرنسية. وهذه وحدها كانت ضماناً للحصول على ثقافة غنية جداً»[٢].

وفي عام ١٩٢٨ تقدم الى معهد الآداب بجامعة باريس برسالة عنوانها: «الانتدابان في العراق وسوريا» للحصول على الدكتوراه، باشراف المستشرق «ديمونبين» (Demnbynes). عرف العلامة بيهم بكثرة رحلاته وتجواله في أقطار العالم، فمنذ أوائل القرن العشرين زار أوروبا مرات عديدة أولها عام ١٩١١ بالاضافة الى تركيا. كما زار أميركا الشمالية بين عامي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ لخدمة القضية الفلسطينية. وزار الباكستان والهند عام ١٩٥١ للمشاركة في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في كراتشي، كما زارهما عامي ١٩٦٨ و١٩٧٠. وفي عام ١٩٥٧ تلقى دعوة لزيارة الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وبعد عودته منهما ألف كتاباً عن انطباعاته تميز بالحياد

---

١ - خالد العظم: مذكرات خالد العظم، المجلد الثاني، ص ١٤٨ - ١٤٩.

٢ - د. عمر فروخ: محمد جميل بيهم في التاريخ المعاصر، محاضرة في المركز الثقافي الاسلامي. نشرت في مجلة الفكر الاسلامي (بيروت) العدد الثاني، شباط (فبراير) ١٩٧٩. كما نشر الجزء الآخر منها في عدد آذار (مارس) ١٩٧٩.

والجدية[1]. وفي عام ١٩٦٨ وصل الى كشمير، بينما وصل عام ١٩٧٠ الى اليابان والهند الصينية. بالاضافة الى رحلات عديدة الى أوروبا والدول العربية. وكان لهذه الرحلات أثر هام وواضح في معلوماته، واعتبر أن هذه الرحلات كانت بمثابة مدرسته الحقيقية التي تلقى فيها علومه الخاصة ومعارفه العامة.

تزوج محمد جميل بيهم للمرة الأولى في ٧ أيار (مايو) ١٩١٣ من زينب عبدالرحمن بيهم انجب منها انثى فقط توفيت أثر الولادة. ثم تزوج للمرة الثانية عام ١٩٢٩ من المجاهدة السورية نازك العابد ابنة مصطفى باشا العابد التي لم ينجب منها أيضاً ونظراً لجهوده الخيرة منح عام ١٩١٦ الوسام العثماني. هذا وكان له الفضل في تكوين العديد من المؤسسات والجمعيات والأحزاب، كما كان له الفضل في انشاء دار الكتب الوطنية بالتعاون مع صديقه الكونت فيليب دي طرازي وعرضت عليه رئاسة الوزارة في عهد الانتداب وفي عهد الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٦، وفي أواخر عهد الرئيس فؤاد شهاب غير أنه رفضها في كل المرات.

والحقيقة فان محمد جميل بيهم استمر حتى آخر حياته مهتماً بمصير وطنه لبنان وبمصير مواطنيه، ولشد ما تألم من اندلاع الحرب الاهلية التي عصفت بلبنان بين ١٩٧٥ - ١٩٧٦، وكان يتابع تطوراتها بأسى، ولذا فقد بذل جهوده من أجل المساهمة في حلها بشكل يحفظ لجميع المواطنين حقوقهم ويؤمن المساواة

---

١ - هذا الكتاب هو «أسرار ما وراء الستار - الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كأنك تراهما» وحرصاً منه على عدم اعطاء هذا الكتاب أي طابع سياسي منحاز فقد نشره على نفقته الخاصة وقال في مقدمته ص ٧ - ٨ «هذا وقد أشرت في صدر الكتاب الى أن الحقوق محفوظة للمؤلف لأني لا أود أن يجعل أحد من أنصار المعسكرين: الشرقي والغربي، من هذا الكتاب سلاحاً له في الحرب الباردة المنتشبة بين هذين المعسكرين بنشر بعض فصوله التي تتفق مع غايات الناشر دون البعض الآخر...».

والعدالة بين الجميع. وقد أرسل عدة رسائل الى بعض زعماء الدول العربية وبعض زعماء لبنان حثهم فيها على المساهمة في حل الازمة اللبنانية. وفي أوائل عام ١٩٧٦ وبمناسبة البحث في حل الازمة اللبنانية، وقبل اعلان الرئيس سليمان فرنجية الوثيقة الدستورية في شباط (فبراير) ١٩٧٦، أرسل محمد جميل بيهم رسالة الى الرئيس صائب سلام في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ لفته فيها الى ضرورة عدم الموافقة بأن يكون منصب رئاسة الجمهورية لطائفة دون سواها، ومما جاء في الرسالة «... أصرح لكم بأن أي اعتراف جديد بأن يكون مقام رياسة الجمهورية مختصاً بطائفة دون سواها من طوائف لبنان سواء اذا كان هذا الاعتراف مكتوباً أو غير مكتوب هو سابقة ليس لها مثيل في تاريخ لبنان...»[١].

هذا ولا بد من الاشارة الى المناصب العلمية والاجتماعية والسياسية التي تولاها محمد جميل بيهم في الفترة الممتدة بين ١٩٠٥ - ١٩٧٨ سواء كرئيس أو كعضو وهي على النحو التالي:[٢]

كرئيس

١ - رئيس فخري لفرع البنك الزراعي في ولاية بيروت عام ١٩١٦.
٢ - رئيس جمعية اخوان الثقافة عام ١٩٢٢.
٣ - رئيس المحفل الماسوني عام ١٩٢٤[٣].

---

١ - من مجموعة محمد جميل بيهم الوثائقية.
٢ - لا بد من الاشارة الى أنه حتى وفاته في أيار (مايو) ١٩٧٨ كان لا يزال رئيساً أو عضواً في هذه الهيئات واللجان والمجامع. كما أن بعض تراخيص هذه الهيئات استمرت حتى وفاته باسمه باعتباره رئيساً أو مؤسساً لها.
٣ - انسحب بيهم من المحافل الماسونية بعد أن تأكد تعاونها وتأييدها للحركة الصهيونية.

٤ ـ رئيس المجمع العلمي اللبناني عام ١٩٢٩ .

٥ ـ رئيس المجمع العلمي في بيروت؟

٦ ـ رئيس اتحاد الشبيبة الاسلامية عام ١٩٢٩ .

٧ ـ رئيس جمعية مكافحة البغاء عام ١٩٣٣ .

٨ ـ رئيس الوفد العربي الفلسطيني الى أميركا الشمالية والوسطى بين عامي ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ .

٩ ـ رئيس الكتلة الاسلامية عام ١٩٤٣ .

١٠ ـ رئيس اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية عام ١٩٤٤ .

١١ ـ رئيس جمعية تأمين العمل للاجئين الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨ .

١٢ ـ رئيس اللجنة السياسية لمكتب فلسطين الدائم؟

١٣ ـ معتمد الحكومة اليمنية في لبنان في الخمسينات .

١٤ ـ رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الدائم للهيئات الاسلامية عام ١٩٥٣ .

١٥ ـ رئيس جمعية الثقافة الوطنية؟

١٦ ـ رئيس اللجنة الثقافية؟

١٧ ـ نائب رئيس رابطة الاحياء الاسلامية؟

١٨ ـ رئيس بعثة الحج الرسمية اللبنانية عام ١٩٦٣ .

كعضو

١ ـ عضو جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت عام ١٩٠٥ .

٢ ـ عضو الجمعية الخيرية الاسلامية في استانبول عام ١٩٠٨ .

٣ ـ عضو هيئة ادارة الاسطول العثماني عام ١٩١٠ .

٤ ـ عضو جمعية الاخاء الاسلامية عام ١٩١٢ .

٥ ـ عضو مجلس بلدية بيروت عام ١٩١٥ .

٦ ـ عضو المؤتمر السوري العام بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ .
٧ ـ عضو أكاديمية التاريخ العالمي في باريس عام ١٩٢٧ .
٨ ـ عضو حزب الاصلاح السوري عام ١٩٢٨ .
٩ ـ عضو اتحاد المجامع العلمية العربية في مصر عام ١٩٢٩ .
١٠ ـ عضو المجلس الاسلامي عام ١٩٢٩ .
١١ ـ عضو جمعية الشبان المسلمين المصرية عام ١٩٣١ .
١٢ ـ عضو المجلس القومي الاسلامي عام ١٩٣٧ .
١٣ ـ ممثل حكومة لبنان أمام اللجنة الاميركية ـ البريطانية (لجنة موريسون) عام ١٩٤٦ .
١٤ ـ عضو المؤتمر الاسلامي في كراتشي ـ باكستان عام ١٩٥١ .
١٥ ـ عضو المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥٢ .
١٦ ـ عضو في مجلس ارميكان العلمي في لاهور ـ باكستان عام ١٩٥٢ .
١٧ ـ عضو المجلس الاسلامي الاعلى عام ١٩٥٤ .
١٨ ـ عضو المجمع الاميركي للعلوم السياسية والاجتماعية في فيلادلفيا لعام ١٩٥٤ .
١٩ ـ عضو مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٩٥٦ .
٢٠ ـ عضو المكتب العالمي لالغاء الاتجار بالانسان في لندن عام ١٩٦٤ .
٢١ ـ عضو جمعية الاخاء والاحسان؟
٢٢ ـ عضو تأمين العمل لليتيمات؟

ولا بد من الاشارة، الى مؤلفات محمد جميل بيهم في الفترة الممتدة بين ١٩٢١ ـ ١٩٧٧ وذلك حسب الموضوعات على النحو التالي:[١]

---

١ ـ ترجمت بعض هذه المؤلفات الى اللغات الاجنبية: الغربية والشرقية على السواء.

أولاً: في تاريخ لبنان

١ ـ العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ بيروت ١٩٦٨ .

٢ ـ عروبة لبنان، تطورها في القديم والحديث، بيروت ١٩٦٩ .

٣ ـ لبنان بين مشرّق ومغرّب ١٩٢٠ ـ ١٩٦٩ ، بيروت ١٩٦٩ .

٤ ـ النزعات السياسيةَ بلبنان ـ عهد الانتداب والاحتلال ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ بيروت ١٩٧٧ .

ثانياً: في تاريخ العالم العربي

١ ـ الانتدابان في العراق وسوريا، بيروت ١٩٣١ .

٢ ـ فلسطين اندلس الشرق، بيروت ١٩٤٦ .

٣ ـ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، جـ ١ ، بيروت ١٩٤٨ .

٤ ـ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، جـ ٢ ، بيروت ١٩٤٩ .

٥ ـ الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، بيروت ١٩٥٠ .

٦ ـ العروبة والشعوبيات الحديثة، بيروت ١٩٥٧ .

٧ ـ عالم حر حديث في آسيا وافريقيا والعالم العربي، بيروت ١٩٦٤ .

٨ ـ الوحدة العربية بين المد والجزر والعرب ما بين التقارب والتباعد ١٨٦٨ ـ ١٩٧٢ ، بيروت ١٩٧٣ .

٩ ـ دراسة وتحليل للعهد العربي الاصيل، بيروت ١٩٧٤ .

١٠ ـ الحركات السياسية في الشرق العربي ١٩٥٠ ـ ١٩٧٣ . (تحت الطبع) .

ثالثاً: في تاريخ الدولة العثمانية والترك.

١ ـ فلسفة التاريخ العثماني، جـ ١ ، بيروت ١٩٢٥ .

٢ ـ فلسفة التاريخ العثماني، جـ ٢، بيروت ١٩٥٤ .

٣ ـ أوليات سلاطين تركيا، بيروت ١٩٣١ .

٤ ـ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت ١٩٥٧ .

رابعاً: في دراسة السياسة الاميركية والروسية والصينية

١ ـ واشنطن تعبد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين، بيروت ١٩٥٤ .

٢ ـ اسرار ما وراء الستار ـ الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كأنك تراهما . بيروت ١٩٥٨ .

خامساً: في تاريخ الاسلام

١ ـ فلسفة تاريخ محمد، بيروت ١٩٦١ .

سادساً: في تاريخ المرأة العربية والغربية

١ ـ المرأة في التاريخ والشرائع، بيروت ١٩٢١ .

٢ ـ المرأة في التمدن الحديث، بيروت ١٩٢٧ .

٣ ـ فتاة الشرق في حضارة الغرب، بيروت ١٩٥٢ .

٤ ـ المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، بيروت ١٩٦٢ .

٥ ـ شاهد عيان يسد فراغاً في التاريخ، (كراس)، بيروت ١٩٧٦ .

بالاضافة الى هذه المؤلفات هناك العشرات من المقالات السياسية والاجتماعية والفكرية التي نشرها بيهم في الصحف والمجلات في المشرق العربي وفي مغربه بالاضافة الى أن بعضها نشر في الصحف الاجنبية أيضاً .

ولا بد من الاشارة باننا حرصنا على ترك النصوص الاصلية كما هي وترك هوامشها في حال وجودها، حفاظاً على طابعها التاريخي، لاننا لا نقوم هنا

بعملية التحقيق والدراسة، انما الهدف اعادة نشر واحياء هذا التراث ووضعه بين أيدي القراء والبحاثة.

هذا ولا بد من توجيه الشكر الى لجنة تكريم العلامة محمد جميل بيهم التي حرصت على اعادة اصدار هذه المؤلفات، كما لا بد من توجيه الشكر الى مؤسسة «الدار الجامعية» (مؤسسة مكاوي) التي تجاوبت مع الفكرة وأبدت استعدادها لاعادة نشر مؤلفات العلامة بيهم التي سيعود ريعها للاعمال الانسانية والاجتماعية والفكرية تحت شعار «جائزة العلامة محمد جميل بيهم» والجدير بالذكر أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا سيكون مقدمة لاستكمال نشر بقية مؤلفات بيهم تباعاً باذن الله.

د. حسان حلاق

مقدمة الكتاب

موضوع نبينا محمد ﷺ موضوع تناوله كُتّاب العالم منذ ظهور الاسلام بين مدح وذم، ولم يغادروا فيه صغيرة ولا كبيرة الا احصوها حتى لم يبق فيه متسع لمستزيد. وما كنت اود الخوض في موضوع استوفى البحث فيه حده لولا اني لاحظت ان الذين لا يزالون يحاولون النيل من نبينا العربي انما يضعون نصب اعينهم صورة أخرى غير صورته الحقيقية: صورة رسمها غلاة مؤرخينا، واحاطوها بهالة من خوارق الطبيعة لا تتفق مع ما وصف القرآن به محمداً ﷺ، ولا تتلاءم مع ما وصف به نفسه.

وقد تناولت بالبريد كتاباً بعنوان «الاسلام في نظر الشيوعية والشيوعيين» وضعه كاتب مستتر تحت اسم ابن حمدون للدعاية الى الكتلة الغربية، ولدعوة العرب والمسلمين الى الاتجاه شطرها. وقد استعان على ذلك بنشره ترجمة كتاب صدر عن موسكو سنة ١٩٥٦ بقلم ل. أ. كليموفتش بعنوان «الاسلام»، وبنقله نتفاً من الموسوعة الروسية الصادرة ايضاً عن موسكو في عام ١٩٥٤ معلقاً عليها تعليقاً فيه استعراض افتراءات الشيوعيين على محمد ﷺ والاسلام.

ونحن وان كنا لا نعبأ بالدعاوات سواء اتت من الغرب ام من الشرق،

ونعتبرها مأجورة لهذا او لذاك الا ان امراً واحداً اثار اهتمامنا عند قراءة هذا الكتاب، وهو استمرار بعض المؤلفين الاجانب على النيل من محمد ﷺ استنادا الى الصورة المزوقة التي وضعها له بعض اصحاب السير علي شكل لا يتفق مع صورته الحقيقية.

ان هذا الأمر كان حافزاً لي على تأليف هذا الكتاب، الذي اتوخى فيه وضع سيرة نبينا على حقيقتها البشرية دون زيادة أو نقصان، بغية ان لا يبقى لهؤلاء الأجانب مبرر للنيل منه استناداً الى صورته المليئة بالخوارق.

واني وان كنت استشهد، في سياق الكلام، بما ورد عنه في القرآن الكريم والحديث الصحيح اسوة بمن سبقني الى هذا البحث الا انني أزيد عليهم بوضع سيرة الرسول بأسلوب يعتمد على النواميس الطبيعية التي تربط الأسباب بالمسببات، وترتب النتائج على المقدمات. ذلك بان الكون الذي نعيش فيه لا تقوم عظمته على المرئيات فحسب، وانما ترجع ايضا الى نظامه الطبيعي الذي يجري عليه ويتقيد به. ولأن محمد ﷺ، ذلك الكائن العظيم الذي اصاب ما اصاب من نجاح، انما يعود نجاح رسالته الى اسباب متصلة بالنواميس الطبيعية، كما يعود الى صلاح هذه الرسالة، ومجيئها في الوقت المناسب.

وهذه النواميس قضت بان تكون احداث الكون، ما سلف منها وما خلف، تتفاعل وتتأثر بعضها ببعض كسلسلة متصلة الحلقات. لذلك كان عليَّ حينما اعتزمت وضع هذا الكتاب، على النحو الذي اردت، ان استعرض الاحداث التي تقدمت عهد محمد ﷺ، والتي عاصرته، ما كان منها في عالم العرب، أو ما كان منها في العالم الخارجي، وان استعرض ايضا الأحوال العامة الدينية والسياسية والأقتصادية والاجتماعية التي وفرت الاسباب لظهور الدعوة الاسلامية، ولانتصارها.

على ان هذا الكتاب وان عالج الموضوع من الناحية التاريخية الا انه، في الواقع، تعدى التاريخ المعروف الى دراسات وتحاليل مشفوعة بالاستنتاجات والتعليقات، ومصحوبة بالردود على بعض المستشرقين وغيرهم من المؤرخين. اما التاريخ فيأتي فيه عرضا في المناسبات، وعلى سبيل الأمثلة والاستشهاد.

واني لا اتوقع ان يرضى كل الناس عن هذا المنهج الطبيعي الذي اخترته ذلك بأن غلاة المحافظين قد لا يرضيهم الا نسبة كل حدث من احداث العالم الى بارئه مباشرة على اعتبار انه « اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون ». ولو تدبر هؤلاء لعلموا ان الله، وهو القادر على كل شيء، وضع للكون دستوراً يتقيد به، ولا يحيد عنه احد في الارض أو في السماوات، ثم هو « اذا اراد امراً يسّر أسبابه » (حديث). ولو انصفوا لأيقنوا ان مثل كتابي هذا تعظيما لمحمد ﷺ أوفر من ألف سفر محشو بالخوارق، ولا سيما في هذا العصر الذي اصبحت فيه المعجزات العلمية من المتواترات والمألوفات.

بيروت ١٩٥٧

محمد جميل بيهم

الفصل الاول

محمد بين خصومه وانصاره في الكتلتين الغربية والشرقية

لم تعن امة من الامم، فيما اعرف، عناية المسلمين في الكتابة عن نبيهم، ولا سيما في اعقاب انتشار الاسلام بين الاعاجم، ومساهمة هؤلاء في تشييد صرح المدنية العربية. غير ان سيرة محمد ﷺ قد اصطبغت في عهود هؤلاء بلون جديد اذ زجوا فيها كثيراً من المعجزات والخوارق التي الفوا نسبتها لأنبيائهم الأولين حتى نكاد، اذا قرأنا بعض السير النبوية، نرى وراء كل خطوة من خطواته معجزة منذ المهد الى اللحد.

على ان محمداً ﷺ كان له خصوم بقدر ما كان له من انصار: فمنذ أعلن رسالته تعرّض لهجمات مواطنيه بمكة الذين حاولوا الحط من شأنه. وقد وصفوه بأنه شاعر مجنون، وانه رجل مسحور. وقالوا انما يعلمه بشر، وان دينه انما هو افك افتراه. ثم لما انقلب عليه اليهود في المدينة وما حولها، وشرعوا يؤلبون العرب عليه، امطروه بوابل من المثالب.

ولما دخل الاسلام في مرحلة اخرى: مرحلة الانطلاق من جزيرة العرب الى سائر العالم، واصطدم بالمسيحية، نشبت بينه وبينها الحروب الدامية، ورافق تلك الحروب حروب اخرى باردة قوامها الدعاوات والحملات الكلامية. وكان نصيب محمد ﷺ منها كثيراً من النقد اللاذع.

وقد بدأ الصراع بين الاسلام والمسيحية في عهد الامبراطورية البيزنطية، واستمر نحو تسعة قرون الى ان فتح آل عثمان قسطنطينية سنة ١٤٥٣ م، وقضوا على هذه الامبراطورية. وتخللت هذه الحقبة حروب اخرى ادهى وامر، وهي الحروب الصليبية في الشرق الادنى، والحروب الصليبية في الاندلس.

على ان الحروب بين الاسلام والمسيحية لم تنته بقضاء العثمانيين على البيزنطيين، وانما ازدادت شدة، فيما بعد، عندما تألبت الدول الاوروبية على السلطنة العثمانية وشنّت عليها الحروب المعروفة عندها بالمقدسة. ثم لم تنته تلك الحروب ايضاً بعد زوال الخطر العثماني، بل افضى آل عثمان الى تجددها على شكل آخر ابان نشاط الغرب للاستعمار.

وكان من عواقب ذلك الصراع الذي قام بين العالمين الاسلامي والمسيحي، خلال اربعة عشر قرنا تقريباً، بروز حملات شديدة اللهجة من قبل كتاب اوروبا موجهة ضد الاسلام ومحمد ﷺ. وكان رجال الدين يتولون كبر هذه الحملات، ويشاركهم فيها الكتاب المعاصرون. وكانت الدول تموّن تلك الحملات وتشجعها بغية اثارة حماس شعوبها ضد الاعداء.

غير ان تأثير ذلك الصراع شرع يتلاشى تدريجياً في عهد اختيار التمدن الحديث حيث انطلقت الحرية في اوروبا، وتحررت اقلام رجال الفكر من نفوذ رجال الدين، فاذا ببعض المستشرقين ينبرون للدفاع عن الاسلام، ويخفّون للتطوع في رد الافتراءات عن نبيه.

(١) محمد ﷺ بين خصومه في الكتلة الغربية

كان من الطبيعي ان يرافق الصراع السياسي بين الاسلام والنصرانية صراع آخر يعتمد على الاقلام لأن هذين الصراعين متلازمين في كل الازمان. ولكن

الذي يلفت النظر هو استمرار تحامل بعض كتاب الغرب على محمد ﷺ ودينه الى منتصف القرن التاسع عشر على حين ان القرن الثامن عشر كان موصوفاً بعهد الالحاد، وكان بالنسبة لاوروبا عصر انتقال من عهد التعصب الذميم إلى عهد السماحة والانصاف.

فبماذا نفسر هذا التناقض؟

نفسره بأن بعض الكتاب المتأخرين كانوا قد تتلمذوا على اساتذة من عصر سابق فتأثروا بآرائهم، وتمشوا على غرارهم بفعل قوة الاستمرار. ناهيك بما كان للسياسة من يد في هذا الاستمرار، وبما كان للاكليروس من يد أخرى. وسلطة الاكليروس وان اصبحت ضعيفة بالنسبة للماضي الا انها كانت لا تزال قوية التأثير.

كان ڤولتير يُعتبر زعيم الفكر الحرّ في القرن الثامن عشر. ومع ذلك فاذا قرأت تمثيليته التي قدمها الى البابا بنوا الرابع عشر وجدتها لا تختلف في تحاملها على محمد ﷺ ودينه عن غيرها من الكتب التي صدرت في القرون المظلمة. وحسبك ان تقرأ كلمة التقديم التي صدّر بها ڤولتير تمثيليته لتقدر ما ورد فيها من قواذع الهجاء. قال:

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع، هو من اشد الناس اعجابا بالفضيلة، اذ تجرأ وقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. »

وقد استعرضت موسوعة لاروس الفرنسية اراء بعض كتاب الغرب في محمد ﷺ الى النصف الأول من القرن التاسع عشر فقالت:

« بقي محمد ﷺ مع ذلك ساحرا ممعنا في فساد الخلق، لصاً نياقا، كردينالا لم ينجح في الوصول الى كرسي البابوية فاخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه. وقد استولى القصص الخيالي والخليع على سيرته. وان سيرة باهومية تكاد تقيم ادبا من

هذا النوع، كما ان قصة محمد ﷺ التي نشرها رينو وفرانسيسك ميشال سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التي كانت سائدة عنه لدى اهل العصور الوسطى. وفي القرن السابع عشر نظر بيل في تاريخ صاحب القرآن نظرة تاريخية. مع ذلك ظلت في نفسه انطباعات عنه ظالمة. على ان بيل يعترف مع ذلك بان النظام الخلقي والاجتماعي الذي اقامه محمد ﷺ لا يختلف عن النظام المسيحي الا بالقصاص وتعدد الزوجات.»

وليس بوسعنا ان نحصي خصوم محمد ﷺ في الكتلة الغربية، فنكتفي بايراد اسماء اشهرهم. وهم كيمون، وبراديه، وفوستر، وارنست رينان وكولدتسيهر، ودروتي. وهذا لم يتورع عن وصف محمد ﷺ بـ «هذا الاعرابي القذر المنافق» حينما تحدث عنه في سنة ١٨٧٦ م. (العروبة والشعوبيات الحديثة للمؤلف ص ٢١٦).

ولقد بقيت بقية من خصوم محمد ﷺ في القرون المتأخرة بين امم الكتلة الغربية على رغم ما اصاب التعصب الديني في القرون من الأضمحلال، ولكن لهجتهم قد اعتدلت على وجه عام. اما المبشرون منهم فقد ظلوا يتأثرون بعواطفهم الدينية، وينطقون بألسنة اغراضهم التبشيرية، وظل بعضهم اذا كتب عن محمد ﷺ أو دينه يكتب في القرن العشرين على غرار ما كان يكتبه مؤرخو القرون الوسطى. وحسبنا الاشارة الى واحد منهم عاش بيننا في بيروت، ونعني به لامنس الذي صور محمدا ﷺ على صورة «رجل شره كان يكثر الطعام والشراب حتى مات من البطنة».

غير ان الذي حدث هو ان هؤلاء الخصوم لم يبقوا وحدهم في الميدان خلال القرون الأخيرة، بل عاصروا مواطنين لهم عنوا بالأستشراق وتخصصوا به فتطوع بعضهم للرد عليهم، وللدفاع عن محمد ﷺ والأسلام عن علم ومعرفة دون ان يتأثروا بالعواطف.

(٢) محمد ﷺ بين انصاره في الكتلة الغربية

كان من حسنات القرن الثامن عشر وما بعده وما تخلل تلك القرون من دراسات المشرقيات، ومن الدراسات العربية الاسلامية على اضـواء البحـث والتحليل والتتبع الدقيق بحرية تكاد تكون تامة، كان من حسناتها ظهور فئة من المستشرقين لم تبدل الرأي بشأن الأسلام ورسوله فحسب، وانما تطوع بعضهم للدفاع عنها، وللاشادة بها. واذا ذكر هؤلاء فيذكر في طليعتهم سيمون أكلي الانكليزي الذي عاش في اوائل القرن الثامن عشر. فقد سخر بكتابه «تاريخ المسلمين» من اولئك الذين تعمدوا اهمال ذكر ما اسماه «بالجزء الوضاء من تاريخ مجد الانسانية» وقال «اني اعتزم تكريس حياتي لمحو ذلك العدوان الكبير الذي وُجه للعرب وحضارتهم عن عمد وسوء قصد»

وخلف أكلي، من بعد، خلـف مـن المستشرقين الأوروبيين. فمنهـم مـن اضطلع بمهمة الدفاع عن محمد ﷺ ودينه حيال الافتراءات الكثيرة التي وجهت اليها. ومنهم من تطوع للاشادة بمدنية العرب والاسلام. وكان في طليعة هؤلاء الانصار ريلاند الهولاندي، وكانييه، ولولا نفيليه الافرنسيان، وغوتيه شاعر المانيا الاكبر. ثم كان يزداد عدد هؤلاء كلما مرت السنون خفت حدة التعصب الذميم حتى لم يبق من الميسور الاحاطة باسمائهم كلها. وحسبنا الاشارة الى بعضهم: ريمون لوردج، وسيديّو، ولامارتين، وكارليل، وكوستاف لوبون، وبرنارد شو، ويونغ، وهـ. ويلز، وبودلي، وليوبولد فاس. وهم من امم مختلفة. وقد اسلم فاس المشار اليه، وسمي محمداً.

فاذا قرأت كتاب «تاريخ تركيا» للامارتين الافرنسي تراه يبدي اسفه الشديد لما كال المغرضون لمحمد ﷺ من الشتائم والمثالب، ويعلق على ذلك بقـولـه: «كـان محمد فيلسـوفـاً ومشرعـاً وداعيـاً الى الهدى. وضـع عقـائـد معقولة، وعبادة خالية من الصور. وهو فضلا عن انه كان مصدر قيام عشرين

دولة دنيوية فقد انشأ ملة واحدة.»

وإذا تلوت كتاب الابطال لتوماس كارليل الانكليزي وجدته يقول: «ان من اكبر العار في عصر التمدن الاصغاء الى الزعم القائل بان الاسلام كذب، وان محمداً كان خداعاً مضللاً». ويعلق على ذلك بقوله: «فلقد آن لنا أن نحارب مثل هذه الافتراءات السخيفة المخجلة.»

وإذا تناولت كتاب «الاسلام» للكولونيل ليبرتيني الايطالي ألفيته يقول: «ليتني عرفت محمداً عن كثب لأتعرف الى هذه الذات البدوية التي بذّت شخصيتها كل نبي آخر، وكل عظيم.»

وإذا ألقيت نظرك على سيرة محمد ﷺ التي وضعها بودلي الاميركي، ووقفت هنيهة عند رده على احد الكتاب الذي وصف محمداً ﷺ بأنه دجال شاهدته يتساءل تساؤل العارف ويقول: «لماذا لم يوضح لنا الكاتب كيف استطاع ذلك الدجال ان يهيب باصحابه واتباعه الى فتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة امثال مساحة الولايات المتحدة؟ وكيف وهب البشرية حضارة ما زالت قائمة حتى اليوم؟»

وإذا اقبلت على قراءة «في معالم تاريخ الانسانية» هذا الكتاب الذي وضعه هـ. ج ويلز الانكليزي قرأت فيه قوله عن الاسلام انه: «دين مملوء بروح الرفق والسماحة والاخوة الانسانية.» وقرأت فيه ايضا عن محمد ﷺ انه «اوصل مبادىء الاسلام الجذابة الى سويداء قلب البشرية دون الاستعانة بالرموز المبهمة، وبتعتيم الهياكل، ودون ما حاجة لتراتيل القسس.»

على ان برنارد شو الانكليزي تعدى هؤلاء في مدح محمد ﷺ والاسلام حينما ذهب الى التنبأ بأن الامبراطورية مقبلة على اعتماد النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن، وعندما خلص الى القول: «ولو أن محمداً بعث في هذا القرن، وكان له الامر المطاع، لوفق، كل التوفيق، في حل جميع المشاكل

العالمية، ولاستطاع ان يقود الناس الى السعادة والسلام.»

واما الذين اشادوا بالمدنية العربية فلا نجد هنا مجالا لا يراد شيء من أقوالهم لأن ذلك خارج عن موضوع هذا الكتاب. وهم كثر حتى لا يحصيهم كتاب.

(٣) محمد ﷺ بين المحايدين في الكتلة الغربية

كان بين علماء المشرقيات والمعنيين بالدراسات العربية الاسلامية فئة أخرى غير فئتي خصوم محمد ﷺ وانصاره. وهي طائفة التزمت الحياد فيما تكتب محاولة ان لا تتأثر باراء هؤلاء واولئك، وان لا تتجاوب مع ما بذرته السياسة من بذور الشقاق بين الاسلام والنصرانية. وهذه الفئة كانت اذا تناولت موضوع الاسلام، واذا عالجت موضوع محمد ﷺ، تجهر برأيها فتثني عليهما تارة جدّ الثناء، او تنتقدهما تارة اخرى. وهي في الحالتين كانت تصدر احكامها عن اجتهاد خاص. واذا جنحت الى النقد تجنبت الذم والافتراء والتنديد. ويعتبر اكثر المستشرقين من هذه الفئة، نذكر منهم فيليب ايرلاند، ودرمنجهم، وجون كنجسلي ببرج، ونولدكه، وموير، وهـ. ا. جب، وكاراي دي فو، ودرابر، والدكتور ا. ولنفستون، ومرجليوث، ووشنجتن ايرفنج.

ونحن وان كنا نحمد لهذا الفريق حياده وجهره برأيه العلمي صراحة دون غاية، الا انه لا يسعنا تناسي وضع المستشرقين الخاص فيما يكتبون عن الامم الاخرى: فبالاضافة الى المؤثرات الموروثة، ومؤثرات اخرى معاصرة تتعلق بالاوساط التي يعيشون فيها، وبالدين الذين يعتنقونه؛ فان جهلهم باسرار اللغة العربية كان يحملهم أحياناً على تجاوز الحقائق فيما يكتبون. والى هذا فان بعضهم كان يعتمد، فيما يكتب عن الاسلام او محمد ﷺ، على النظر اليهما من خلال الكتب الاسلامية المحشوة بالخرافات التي يتبرأ منها الاسلام. كما ان

بعضهم كان يعتمد على سواها من المؤلفات الاجنبية المغرضة التي لم تلتزم النزاهة والانصاف. فاذا بهؤلاء واولئك اذا انتقدوا فانما ينتقدون تلك الصورة التي لا تمثل الأسلام، ولا تمثل محمدا ﷺ على حقيقتها.

(٤) تطور الدراسات الغربية في العهد الاخير

بين قدح القادحين ومدح المادحين جرت سفينة محمد ﷺ الى الأمام طوال اربعة عشر قرنا تقريباً دون ان تتأثر بالاعاصير التي كانت تحاول ان تدفعها الى الوراء. امّا الضرر فقد اصاب الناس انفسهم من جراء تلك المجادلات والمشاحنات، خلال تلك الحقبة الطويلة، وما رافقها من فتن وحروب. ولو عقل الناس لرحبوا بكل الأديان على اعتبار انها ترجع الى أصل واحد، وتجتمع تحت لواء هدف واحد، واذا اختلفت فانما تختلف في الفروع، ويعود اختلافها الى الاجتهاد في التفسير. وما كان كذلك فلا ينبغي له ان يصرف البشر عن الوحدة الانسانية، وما ينبغي له ان يحيد بهم عن مبدأ «الانسان أخو الانسان أحب ام كره.»

من حسن الحظ ان العالمين الاسلامي والمسيحي لم يلبثا ان ادركا هذه الحقيقة، وان كانا ادركاها متأخرين: فقد ادركا الآن ان زمن القيل والقال في الشؤون الدينية وقد ولى غير مأسوف عليه، وانصرف الناس عنه الى اكتشاف اسرار الكائنات على رجاء ان يأتي اليوم السعيد الذي يعيشون فيه عالماً واحدا تسوده المحبة والاخاء والسلام. وفي غمرة هذا الأمل المنشود اصبحت الكتلة الغربية اذا عنيت بالشؤون الدينية فما تعني بها قصد تمحيصها، او بغية المفاضلة بينها، وانما تتوخى الافادة منها في حاضرها ومستقبلها، وذلك بالتعرف الى روح اصحابها. والى هذا القصد يعود اهتمام العالم الغربي الآن باحوال العرب والمسلمين. واليه يرجع نشاط المستشرقين للعناية بالدراسات الشرقية والتأليف

في مواضيعها بمقدار لا مثيل له في التاريخ. والغرب لا يتوخى من ذلك مجرد العلم، وانما يريد منه الافادة في الشؤون السياسية والاقتصادية من بلاد اصبحت بالنسبة الى جغرافية العالم من اعظم المناطق الاستراتيجية، واضحت بين مناطق النفط من اهم المناطق العالمية. هذا فضلا عما صار للمسلمين والعرب من وزن في كفة التوازن الدولي.

وقد افضى هذا الاهتمام من قبل الكتلة الغربية بالشؤون العربية والاسلامية الى امتلاء مكتباتها بالمؤلفات الحديثة عنها، والى امتلاء صحفها بمقالات ضافية بأنبائها المتفرقة. وكان من مظاهر هذا الاهتمام ايضاً تلك المؤتمرات المتوالية التي عقدها المستشرقون لدراسة هذه الشؤون.

وبين يدينا كتاب بعنوان «الاسلام في نظر الغرب» نقله الى العربية الدكتور اسحاق موسى الحسيني يتضمن المناقشات التي دارت بين ثمانية من متخصصي الدراسات الاسلامية في المؤتمر السنوي الخامس الذي نظمه معهد الدراسات الاسلامية في المؤتمر السنوي الخامس الذي نظمه معهد دراسات الشرق الاوسط سنة ١٩٥١. واذا راجعت هذه المناقشات تعلم مقدار تحول الكتلة الغربية، في عصرنا الحاضر، عن المشاحنات السابقة في قضية الاديان الى الافادة منها في اغراضها المختلفة.

محمد بين انصاره وخصومه، في الكتلة الشرقية.

في روسيا القيصرية خصوم لمحمد ﷺ وانصار، وآخرون حياديون، كما في الكتلة الغربية. واذا اجلنا الكلام عنها فعذرنا اننا لم نطلع على تاريخ الادب الروسي. واما الكتلة الشرقية المعاصرة فهي اذ انكرت الاديان كلها على السواء بمقتضى تعاليم الشيوعية، فلم يعد ينتظر أن يرتفع في أرجائها صوت لأنصارها.

(١) روسيا القيصريه

نشأت روسيا في النصف الاول من القرن السابع عشر، وسرعان ما جنحت الى التوسع في شرقي اوروبا، وطمعت باحتلال قفقاسيا بغية الوصول الى البحر الاسود. وكان هذا البحر عثمانيا، فافضى هذا الطمع الى نشوب حروب بين الروس وآل عثمان استمرت نحو مايتي عام. كان اولها في سنة ١٦٧٧، وآخرها سنة ١٨٧٧. على ان هذه الحروب وان كانت تعود الى اسباب سياسية إلا انها كانت ذات صبغة دينية ايضا، خصوصا وان الدولتين كانتا تثيران التعصب الذميم بغية اثارة الحماس الديني بين شعبيهما والاستعانة به على ادراك النصر. وقد اشار رينه بينون الى ذلك حيث قال لمناسبة حرب روسيا واليابان:

«ان الفلاح الروسي لم يكن يفهم مغزى لحرب منشوريا مطلقاً، وانما كان هواه يتلخص بقتال التركي، ومناه يقتصر على محاربة روسيا لآل عثمان حروبا صليبية كانوا يتوخون بها انقاذ النصارى من ربقة المسلمين. وهذه النظريات كانت من اصداء سياسة حكومة القيصر[١]. »

وكانت روسيا القيصرية دولة استعمارية مستبدة توجه الادب وفقا لمباديها، اسوة بروسيا السوفيتية الآن، فكان من عواقب ذلك ان التآليف التي صدرت، في عهدها، وعالجت موضوع محمد ﷺ والاسلام جاءت مشبعة بروح الامبراطورية: روح البغض لهما والحط من شأنهما. ولسنا نعرف غير ليون تولوستوي، المتوفي سنة ١٩١٠، كاتباً روسياً تجاسر على انصافهما. ويؤثر عنه قوله: «مما لا ريب فيه أن محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخراً انه هدى امة برمتها الى نور

---

(١) René Pinon, L'europe et L'empire Ottomane P. 27.

الحق، وفتح لها طريق الرقي والمدنية. وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص اوتي اعظم قوة.»

(٢) الانقلاب السوفييتي وموقفه من الاديان

وقع الانقلاب الشيوعي خلال الحرب العالمية الاولى، في سنة ١٩١٧. وقام الاتحاد السوفييتي على انقاض الامبراطورية القيصرية، وعلى مبادىء الشيوعية. ويؤثر عن ماركس قوله في سنة ١٨٤٣: «الدين مخدر الشعوب، وواجبنا انقاذها من هذا المخدر» لذلك كان مدار سياسة الدولة الجديدة تهديم دعائم الاديان دون استثناء تحريراً للشعوب الروسية من كل عقيدة اخرى غير الشيوعية. وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) هو اشتراكي الماني، ومؤسس جمعية العمال العالمية. وهو المنهل الأصلي للشيوعية المعاصرة.

وقد خبرت ذلك بنفسي مذ بلغت مطار موسكو في سنة ١٩٥٧. فقد تعمّدت سؤال احد الذين جاءوا لاستقبالي من قبل «مؤسسة العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفييتي والبلاد الاجنبية» عن مذهبه، فأجابني الشاب بلهجة حازمة: «أنا ماركسي» ثم طرحت مثل هذا السؤال على أحد مستقبليّ من قبل «لجنة السلام» في بكين عاصمة الصين الشعبية فكان الجواب واحداً لا غمغمة فيه.

على ان السوفييت وان كانوا عدلوا في العهد الاخير سياستهم حيال اهل الاديان، واطلقوا حرية القيام بالشعائر الدينية في المعابد، وسمحوا لهم في تعليم اولادهم الامور الدينية ضمن نطاق بيوتهم، الا انهم ما يزالون يعتقدون «ان العلم والدين يتعارضان» كما قال ستالين في سنة ١٩٢٧؛ ويصرحون «بأننا ما زلنا ملحدين، وسنبذل كل ما نستطيع لنحرر فئة من الشعب معينة من سحر الافيون الديني الذي ما زال منتشراً.» وهذا ما صرح به نيكيتا خروشوف في عام ١٩٥٥.

وقد نصت المادة ١٢٤ من الدستور السوفييتي، الذي لا يزال قائماً على ما يلي: « لغاية كفالة حرية الاعتقاد للمواطنين فصلت الكنيسة في الاتحاد السوفييتي عن الدولة، كما فصلت المدرسة عن الكنيسة. ويعترف لجميع المواطنين بحق حرية تأدية الشعائر الدينية، وحرية الدعاية ضد الدين. »

وهذه المادة التي ساوت في الحرية بين تأدية الشعائر الدينية وبين الدعاية ضد الدين، حظرت ضمناً الدعاية للدين، وناهيك بالدفاع عنه، فجاءت الحرية مبتورة. والحرية وحدة لا تتجزأ، واذا جزئت ضاعت قيمتها. (اسرار ما وراء الستار للمؤلف ص ٩٣)

وكان من عواقب ذلك ان الكتب والنشرات الموجهة ضد الاديان لا تزال تصدر في الاتحاد السوفييتي تمشياً مع سياسة الدولة القائمة على « تحرير فئة من الشعب من سحر الأفيون الديني » بينما ان الكتلة الغربية اجمعت على الاعتقاد ان مثل هذه المنشورات قد فات وقتها، وبينما ان احدا من رعايا الجمهوريات السوفياتية لا يجرأ على ابداء رأيه في الرد عليها.

(٣) الاتحاد السوفييتي والاسلام

رأى اسياد الاتحاد السوفييتي في الاسلام والمسلمين من رعاياه خصما عنيداً للشيوعية ليس كمثله خصم. ورأوا المسلمين، ابان الثورة الداخلية التي نشبت ضد الشيوعية، يساهمون في اعقاب السنوات الاولى من حكم السوفييت في اكبر نصيب من تلك الثورة. ورأوا بعض رجال الدين الأسلامي يواصلون، بعد اخماد الثورة، مقاومتهم للشيوعية طوال بضع سنين، فانقض السوفييت على هؤلاء واولئك، واستعملوا انواع الشدة في سبيل تذليلهم في عهدي لينين وستالين. وأشفع السوفييت هذه الحملات الدموية على المسلمين بحملات أخرى دعائية على الاسلام ونبيّه، وذلك بالكتب والصحف والخطب، بغية

تشكيك الناشئة الجديدة بدينهم. وكان بعضها يبزّ حملات الغربيين على محمد ﷺ والاسلام في القرون الوسطى.

وذهب عصر لينين وستالين، وانقضى عهد الحملات الدموية بعد ان استتب للسوفييت الأمر في اخضاع المسلمين وغيرهم، ولكن بعض كتاب الروس ظلوا، مع ذلك، لا يتورعون حتى الآن عن النيل من محمد ﷺ والاسلام تمشياً مع مبدأ الدولة القائم على تهديم دعائم الاديان، وخدمة لأغراضها السياسية. فالدولة لا زالت ترى في الاوساط الاسلامية وميض برق تحت الرماد تخشى ان يكون له ضرام في يوم آت.

وكتاب كليموفتش «الاسلام اصله وروحه الاجتماعي» الذي صدر في عام ١٩٥٦ وهو واحد من الامثلة على تسامح السوفييت حيال خصوم الاسلام.

وكتاب كليموفتش سفر تاريخي يبحث في اصل الاسلام وروحه. توخى فيه مؤلفه ان يصور الاسلام بصورة دين اقطاعي لا يعرف المساواة بين الطبقات والافراد، وان يظهر المسلمين بمظهر القساة العتاة الذين استعبدوا الشعوب وظلموها. ويريد المؤلف من ذلك، فيما يريد، التنويه بان الشيوعية هي وحدها التي انقذت البشرية من الاقطاع والطبقية، وهي دون غيرها التي ساوت بين الناس كبيرهم وصغيرهم، وبين العناصر اسودهم وأحمرهم وأبيضهم، في حين ان احداً آخر من الذين انتقدوا الاسلام من الغربيين ما استطاعوا ان ينكروا عليه تقدمه على الشيوعية في الغاء نظام الطبقات الاجتماعية والتمييز العنصري. وهذه الترهات التي وردت في كتاب كليموفتش الفناها حتى لم نعد نعبأ بها، ولكن الشيء الوحيد الذي استرعى نظرنا في هذا الكتاب تركيزه النقد الموجه للمسلمين على استعارتهم من الأمم الأخرى عناصر خيالية من اجل اضفاء المزيد من التقديس على نبيهم. قال:

«ولتعظيم محمد وخلفائه الاقطاعيين العرب زعم بعض علماء المسلمين انه لولا محمد لما خلق الكون. وقداسة محمد لا تقتصر على تقديسه تقديساً خيالياً، بل قد استعيرت له، عند ظهور الاسلام، عناصر من حياة الدعاة الدينيين، وأنبياء العرب».

اما الموسوعة الروسية الكبيرة، التي اشرنا اليها بالمقدمة، فهي وان تورعت عن مشاركة الكتاب الروس في النيل من محمد ﷺ ودينه الا انها اظهرت ارتيابا في وجوده، وساهمت معهم في نقد الصورة التي صورها له بعض محدثي المسلمين، وحشوها بالقصص والخرافات.

نحن لم يتسن لنا الاطلاع على هذه الموسوعة المكتوبة باللغة الروسية وانما نعتمد في التعليق عليها على ما ورد منها في كتاب «الاسلام في نظر الشيوعية والشيوعيين.» وهذه خلاصته:

- هل وجد محمد؟

- لم يجزم بعض المستشرقين السوفييت حتى الآن بأمر وجود محمد ﷺ، وهذا ما نراه واضحاً في الموسوعة الروسية الكبيرة في طبعتها الثانية سنة ١٩٥٤ التي جاء فيها: (ص ٥٩٩ جزء ٢٨).

«قد يمكن أن يكون لمحمد وجود تاريخي، ولكن الخرافات قد عملت عملها في تكوين هذه الشخصية وقلب حقيقتها قلباً تاما. وأقدم مصدر بين أيدينا يبحث قصة محمد يرجع الى النصف الثاني من القرن الثامن. كتبه ميمون بن اسحاق باسم «حياة رسول الله»، وذلك بأمر الخليفة العباسي في بغداد. ويضم هذا الكتاب، بالاضافة الى الحقائق الراهنة في حياة محمد، عدداً كبيراً من القصص والخرافات التي استغرقت شخصية محمد التاريخية فيما كتبه المحدثون عن حياته. وقد اعتقدت الاجيال المسلمة المتأخرة بقداسة

محمد وبقدرته على صنع المعجزات وبشفاعته للمؤمنين . »

والموسوعة الروسية وان لم تنل من محمد ﷺ ما نالته الكتب الأخرى ذلك لانها عمل حكومي ، الا ان فيها درساً للمسلمين يدعوهم الى تصفية سيرة نبيهم من تلك الشوائب التي دسها فيها الاعاجم حتى لا يبقى بعد ذلك مجال لقول قائل . وهذا ما كان حافزا لنا على وضع هذا الكتاب .

الفصل الثاني

احداث العالم الفكرية والدينية التي تقدمت الاسلام ومهدت له

لا يتوقف نجاح الأعمال والاهداف على مجهود صاحبها فقط، او على الاحوال المحلية والمعاصرة فحسب، وانما يتوقف نجاحها ايضا على أسباب أخرى منها ما يتصل بالعالم الخارجي، ومنها ما يرجع الى زمن سابق. وعلى هذا الناموس الطبيعي فإن الرسالة المحمدية لم تدرك ما ادركته من النجاح لمجرد صلاحها، ولعظمة القائم بها فقط، وانما ساهمت في ظهورها وانتصارها احداث عالمية تقدمتها وسهلت السبل لها، واحوال أخريات عاصرتها، وكانت مواتية لنجاحها، سواء اكان ذلك في شبه جزيرة العرب، ام فيما حولها من العالم.

وفي هذا الفصل سنستعرض تلك الاحداث وتلك الاحوال التي سبقت محمدا ﷺ ومهدت السبل لظهور الاسلام ونجاحه، ثم كانت من العوامل الكبرى لانتشاره ولبسط سيادته على بلاد القياصرة والاكاسرة وغيرها.

منشأ الاديان وتطورها

فكر البشر، منذ تفتحت اذهانهم، في مصدر هذا الكون الذي يطعمهم ويسقيهم، ويخيفهم ببرقه ورعده واعاصيره، فعبدوا الشمس والقمر. ثم سمت بهم المعرفة الى الايمان بآله آخر هو وراء الكواكب، واحق بالعبادة، فتوجهوا

اليه وعبدوه، واتخذوا له في الارض رموزا كانت تتمثل احيانا في ابطالهم، وتتجسد احياناً اخرى في اصنامهم. ولقد رأيت بالصين اصناما تمثل الابطال لا يزالون يعبدونها.

ويعتقد اهل الكتب السماوية ان ابراهيم الخليل[1]، الجد الاعلى لموسى وعيسى ومحمد ﷺ، الذي عاش، على تقديرهم، قبل اربعين قرناً، هو رأس الحنيفية القائمة على عبادة الله وتوحيده، وعلى الايمان بثوابه وعقابه. وقد خلت من قبله انبياء ظهروا في فترات متعاقبة، وكان لبعضهم صحف، ولكنهم كانوا دونه في المرتبة. ويعتقدون ايضا ان اول كتاب في الدعوة الى التوحيد هو كتاب موسى: «اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد». (تث ٦ - ٤) - «انا هو الرب الملك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة اخرى امامي». التثنية (ص ٥ - ٦). ثم جاء عيسى فدعا لمثل ما دعا اليه موسى: «الله واحد وليس آخر سواه» (٣ مر - ٢ - ٣٢) = «للرب الملك تسجد، واياه وحده تعبد» (لوقا ٤ - ٨). ثم اتى محمد ﷺ مصدقاً لما قبله: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي اوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم اليه. الله يجتبي اليه من يشاء، ويهدي اليه من ينيب» (سورة الشورى) - «وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون.» (سورة الانبياء) «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا احد.» (سورة الاخلاص) فكانت هذه الملل واحدة في الأصل لا خلاف بينها.

---

(١) ولد ابراهيم الخليل في عام ١٩٩٦ ق. م. في اور الكلدانيين بين النهرين. وسكن بعد ذلك حرّان التي تحج اليها الصابئة. وهو جد العرب المستعربة والعبرانيين ومات بفلسطين. وردت اخباره مفصلة في الاصحاح ١١ من سفر التكوين.

غير ان الاديان السماوية هذه ما ان انتشرت في انحاء العالم، وتقسمت انهارها الى روافد، واختلطت مياهها الصافية بالفلسفات المتضاربة حتى تبدلت معالمها، وامست مياهها غيرها في الامس يوم خرجت من ينابيعها، واختلفت الوانها باختلاف التربة التي جرت فيها. كما انّ كل ملة من هذه الملل لم تلبث الا قليلا حتى منيت ايضاً بالأنقسام الى فرق باعدت بينها، واخرجتها، بتأثير الفلسفات المختلفة، من نطاق الصورة الأولى التي بشر بها الرسل الى عالم آخر غير عالمها.

والجدير بالذكر ان الأديان هي سلسلة واحدة تبدأ الحلقة الجديدة منها بما انتهت اليه الحلقة السابقة، شأنها، في هذه السنّة، شأن كل معرفة بحيث لا يستطيع أصحاب أي دين، أو أية مدنية، أو أي اختراع أن يزعموا أنهم خلقوا من العدم ما أتوا به. وهذا الناموس الطبيعي اشار اليه الأسلام بالآية:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ● صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ «سورة الأعلى».

لذلك كان علينا، في سياق الكلام عن الاحداث والأحوال الخارجية التي مهدت السبل للأسلام، ان نستعرض ما اصاب الأديان التي تقدمته من تطورات فكرية، وانقسامات مذهبية اثرت على مجرى الفكر في العالم، وتناولت فيما تناولته جزيرة العرب.

اليهودية وما تفرع عنها من فرق

ظهر موسى عليه السلام في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وافترق العبرانيون بعده إلى ثلاث فرق:

- الفقهاء واهل القياس، ويعرفون باسم الفروشيم، وبالربانيين.
- الصدوقيين، ويسمونهم اهل الظاهر لأنهم يأخذون بظواهر الفاظ

التوراة، وهم الذين يقولون بأن عزيزاً ابن الله . .

● العبّاد، وهم كالرهبان ينقطعون الى العبادة والتسبيح .

وقد سجل التاريخ وقوع فتن بين هذه الفرق الثلاث اريقت الدماء فيها مدرارا .على ان الانقسام بين اتباع موسى لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه الى مدى بعيد حتى انقسموا الى نيّف وسبعين فرقة، اشهرها :

● الربانية، وهم كالمعتزلة في الاسلام .

القرّاؤن، الذين يزعمون ان عزيـرا ابنـالله . وهـم كـالجبرة والمشبهـة في الاسلام .

● العنانية، يصدقون المسيح في مواعظه وارشـاداتـه، غير انهم ينكـرون نبوته .

● السامرة، يؤمنون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، غير انهم لا يعترفون بنبي آخر جاء بعد هؤلاء .

وقد افترقت السامرة ايضا الى فرق اشهرها :

● الدستابية . يعتقـدون ان الثـواب والعقـاب هما في الدنيـا، وينكـرون الآخرة .

● الكوسانية . يخالفون الدستابية وذلك باعترافهم باليـوم الآخـر، وبـأن الثواب والعقاب سوف يكون في الآخرة .

وكانت كل هذه الفرق حربا على بعضها البعض حتى اذا ظهرت النصرانية مشت صفاً واحداً في سبيل القضاء عليها، ثم تكاتفت ضد الأسلام تكاتفها ضد النصرانية . على أن اليهـود رحبـوا، في أول الأمـر، بمحمـد لأنـه جـاء مصدقاً لما قبله من رسلهم وانبيائهم، ولأنه ردد كثيرا اخبارهم بالقرآن في

معرض الاستشهاد، خصوصاً وان دعوته لا تختلف عن دعوة موسى في التوحيد .

المسيحية وما تفرق عنها من فرق

تفاقمت الفوضى الاخلاقية بفلسطين قبل ظهور المسيح، واستفحل امرها من جراء الفساد الذي شمل شعبها اليهودي وحكامها الرومان على السواء . فجاء عيسى بن مريم مصلحاً اجتماعياً، لا مشرعاً، لان الاسرائيليين والرومان لم يكن ينقصهم التشريع . دعا عيسى الناس الى الفضائل، ونهاهم عن الرذائل، وحضّهم على المحبة والسلام . ولكنه لم يتعرض الى التوراة، فبقي كتاب موسى، المعروف بالعهد القديم، كتاباً للنصارى بالاضافة الى العهد الجديد .

ولكن دين المسيح مني بما منيت به سائر الاديان من تعدد الفرق نتيجة لاختلاطها بالأمم المختلفة . وما ان خرج من فلسطين، وانطلق في العالم حتى اصطبغ بصبغات الامم التي آمنت به، وتلون بالوانها المختلفة المنبثقة عن مبادئها وفلسفاتها .

ويذهب درابر الى القول بأن المسيحية ظهرت في عصورها الاولى على ثلاثة انواع :

• المسيحية اليهودية . وهي لا تختلف عن اليهودية الا قليلاً، ولم تعمر الا قليلاً .

• المسيحية النيوستيكية . Gnostique ، وهو اسم يوناني اطلق على هراطقة ظهروا في مصر والشام خلال القرون الثلاثة الاولى المسيحية، وخلطوا بين العقائد اليهودية والمسيحية من جهة وبين الفلسفات الشرقية من جهة اخرى . وقد انقرضت هذه الشيعة .

• المسيحية الأفريقية. وتعرف بالمسيحية البلاطونية، وهي فرقة لا تزال موجودة حتى الآن.

ونرى من المفيد ترجمة خلاصة ما دوّن في كتابه[1] «تاريخ التطور الثقافي في اوروبا» عن هذه الفرق، التي تقدمت الاسلام بنحو قرنين، لما كان لها من اثر في تطور الفكر الديني، وما احتوته من معلومات قيّمة.

(١) المسيحية اليهودية

كان تلامذة المسيح عبرانيين مثله، فكان من الطبيعي ان يكون مدار عقيدتهم به الايمان بانه المخلص الزمني ملك اليهود الذي وُعدوا به من زمن بعيد. وكانت العقيدة المسيحية في ذلك العهد، ومثلها الطقوس، على منتهى البساطة: فكان يكفي الانسان ان يؤمن بالمسيح ويتعمّد ليصبح مسيحياً. غير ان الخلاف لم يلبث ان ظهر، بعد قليل، في أوساط هذه المسيحية فانشقت الى فرقتين: فرقة اقبلت على نسبة الخوارق والمعجزات الى عيسى، وفرقة انكرتها، وانكرت الوهيته. وكانت هذه تعتقد انه انسان، وانه ابن يوسف. وتعرف بالأبيونيين Ebionistes نسبة لأبيون الذي كان يعيش بفلسطين في العصر الأول للمسيح. وقد انقرضت المسيحية المعروفة باليهودية في اعقاب تخريب الرومان لبيت المقدس، وتهديمهم هيكل سليمان سنة ٧٥ للميلاد.

(٢) المسيحية الغنوستيكية

ازدهر شأن هذه المسيحية بعد مضي قرن على رفع عيسى، وظلت كذلك طوال اربعة قرون لاحقة، وكان لها تفوق على سواها. ثم اشتقت منها فرق لا حصر لها. ويقول درابر عنها: «انها كانت ملقّحة بالافكار المجوسية اذ تعتقد

---

(١) J. W. Draper, Hre du développement intellectuel de l'Europe T II C. IX

ان المخلص مشتق من روح ازلية، هي غير المسيح الانسان. ولما اعاد الفرس النظر في المجوسية عهد كسرى ازدشير بابيكان، بغية اصلاحها واظهارها بمظهر اشد نقاوة من الشوائب افضى ذلك الى ضعف هذه المسيحية، ووقف انتشارها. ثم انقرضت، ولكنها تركت في الاوساط الدينية المسيحية مخلفات لا تزال بارزة حتى الآن.» وقد رأينا في كتاب دبوي الافرنسي الصادر سنة ١٨٢٦[1] بحثا مماثلا لما ذهب اليه درابر الاميركي من حيث اقتباس هذه المسيحية الافكار المجوسية.

(٣) المسيحية الافريقية

كان الاعتقاد بالتثليث مألوفاً عند المصريين منذ زمن بعيد، وقد اخذ به اتباع بلاطون بالاسكندرية - الفيلسوف اليوناني (٤٣٩ - ٣٤٧ ق. م.) ولما اعتنق بعضهم المسيحية في عهد الامبراطور الروماني ادريان (١١٧ - ١٣٨ م) زجوا فيها هذا الاعتقاد، ودخلوا في نقاش طويل مع الذين كانوا ينكرون التثليث افضى الى فتن استمرت طويلا.

وقد علق درابر على ذلك بقوله: «ان كلمة التثليث لم يرد لها ذكر في الكتب المقدسة، وكان اول من اوردها تيوفيل مطران انطاكية»

وكان الراهب آريوس اول من عالج مسألة تعيين منزلة الابن في عقيدة التثليث. وخلص الى القول بأن الابن هو دون الأب، لأن للأبين بداية، بينما ان الاب، الواحد الاحد، ازلي. وهذا المذهب الذي ذهب اليه آريوس وأخذ به كثيرون ادى الى نشوب جدل وفتن، بين اتباعه من جهة وبين معارضيهم من جهة اخرى، اشتدا حتى حملا الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) على التدخل. ولما عقد مجمع نيقيه Nicée في سنة ٣٢٥ م لوضع حد

(١) Dupuis, Abrégé de L'origine de tous les cultes C. Ix P. 247

لهذه الاضطرابات، اصدر حكماً بنفي آريوس، واشفعه بقرار اعلن فيه: «ان الابن هو في مرتبة الاب.»

وقد نقل قسطنطين عرشه الى بيزنطة سنة ٣٣٠ م، حيث انشأ قسطنطينية. فاعتزت به الكنيسة، وارتفع شأن اتباعها. بيد ان المعارضين لقرار مجمع نيقيه لم يهنوا ولم يستكينوا، ودخلوا في جدل ونقاش طويلين مع الذين خضعوا لهذا القرار. واذا بمطران القسطنطينية ماسيدونيوس يعلن خلال ذلك: «ان الابن ليس هو دون الاب فقط، بل ان روح القدس، ثالث الاقانيم، ليس إلهاً.» واذا ببلاج ونسطورس وأوتيشس، الذين ظهروا ما بين سنين ٤٠٠ و٤٦٠ م، يشجبون ايضاً مقررات مجمع نيقيه.

• فبلاج الذي كان راهباً في مدينة برتون انكر القول بخطيئة آدم، وانكر بالتالي القول بان المسيح افتدى البشر بنفسه من اجل تخليصهم من هذه الخطيئة.

• ونسطورس مطران انطاكية ذهب الى القول بأن للمسيح طبيعتين: طبيعة الهية، وطبيعة بشرية. وان مريم ليست ام الاله، بل هي والدة المسيح.

• واوتيشس اليوناني حاول ان يثبت انه لم يبق بعد تجسّم المسيح غير الطبيعة الألهية.

والى هذا فقد برزت تباعاً فرق اخرى. كان ينكر بعضها وجود ارادة واحدة للمسيح مع اعترافهم بوجود طبيعتين له، بينا يذهب البعض الآخر الى القول بطبيعة واحدة.

هذه خلاصة ما اورده درابر عن تطور المسيحية خلال الاجيال التي تقدمت الاسلام. وكان من نتيجة ذلك ظهور فرق كثيرة حاولت الامبراطورية البيزنطية ان تحدّ من خلافاتها دون جدوى. وكان اهمّ هذه الفرق الملكانية

والنسطورية واليعقوبية . وقد ذكرها الشيخ عبد الباسط الفاخوري[1] في كتابه مصابيح الطالبين (ص ١٤٥ - ١٥١)، وقال عنها ما خلاصته: «الملكانية، وغالب الروم منهم، يقولون بالتثليث. والنسطورية خالفوا الملكانية في اتحاد الكلمة؛ وزعموا ان الكلمة اشرقت على جسد المسيح كاشراق الشمس. واهل اليعقوبية فقالوا انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الأله هو المسيح.»

وقد ظهر الاسلام في غضون ما كانت الفرق المسيحية المختلفة منصرفة الى الجدل في الشؤون الدينية، وكان اختلافهم في عهد الامبراطور هرقل البيزنطي (٥٧٥ - ٦٤٢ م)، الذي عاصر محمدا ﷺ، يدور حول المسيح. وعلى رواية جرجي زيدان (التمدن الاسلامي ج ١ ص ٣٣) «كان الامبراطور وأهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين. واما رعيته في مصر والشام فكان اكثرهم يقولون بطبيعة واحدة، ومشيئة واحدة، وهم اليعاقبة» واشار زيدان الى فرق اخرى، ومنهم المعروفون بالخياليّين الذين كانوا يقولون ان المسيح لم يصلب حقيقة، وانما صلب رجل آخر مكانه على غرار العقيدة الاسلامية.

وخلال هذا الصراع بين الفرق المسيحية المتعددة ظهر محمد ﷺ فكانت دعوته الى الاجتماع تحت لواء الوحدانية أمراً غير مبتسر. بل كانت دعوة تتفق مع بعض المذاهب المسيحية، وتنسّق بينها، ولا سيما مذاهب آريوس وماسيدونيوس وبلاج، وأوتيشي، والمعروفون بالخياليّين. ولذلك فإن

---

(١) هو مفتي بيروت في اوائل القرن العشرين خلف مؤلفات قيمة انتقل الي منها خمس مخطوطات من ولده الشيخ علي، وهي: (١) تبصرة المستبصرين بمعرفة الدين القُوِم (٢) غرر الفرائد ودرر القلائد من مفضليات المقاطيع والقصائد (٣) مصابيح الطالبين وايات المستدلين في تراجم الانبياء والمرسلين (٤) خبايا الدراية (٥) فرائد العقائد. وقد اهديت المخطوطتين الاخيرتين الى مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٧، واستبقيت الباقي في مكتبتي.

النصارى، على وجه عام، لم يعدّوا دعوة محمد ﷺ غريبة عن النصرانية، بل رحبوا بها على اعتبارها مذهباً من مذاهبهم من شأنه ان ينشر المسيحية مكان الوثنية في جزيرة العرب، ويحوّل الجزيرة، بالتالي، عن فارس الى الامبراطورية القسطنطينية. وقد قال الدكتور فيليب حتي (العرب ـ مختصر ـ ص ٤٥):
« والدين الاسلامي اقرب الى اليهودية القائمة على العهد القديم منه الى النصرانية والعهد الجديد. ومع ذلك فقربه من النصرانية كان شديدا بحيث حسبه الناس، في اول عهده، بدعة نصرانية جديدة لا ديناً مستقلا. ومن هؤلاء دانتي في روايته الكوميدية الالهية. »

المجوسية وما تفرع عنها من فرق

كان المجوس سكان بلاد مادي وفارس يرجعون دينهم الى زور واستر الذي اتى قبل خمسة عشر قرناً من المسيح على الأرجح. ويعتبرون، كتابه الاويستا كتابهم المقدس. وتتلخص تعاليمه بأن زوران أكريني هو مبدأ كل شيء، وهو الازلي الخالد الذي خلق كلا من اورموزد وأهريمان، وجعل الاول سيد العلم والحكمة، واب الخير والعدل، وجعل الثاني مصدر كل شر. ولكل منهما، في الصراع القائم بينهما، اجناد روحية: فالسماوية لأورموزد، والسفلية لأهريمان. غير ان الصراع بينهما سوف ينتهي بانتصار اله الخير أورموزد، فيصعد اليه اهريمان تائباً وينعم، ومن ثم، هو واتباعه بالحياه السعيدة، ذلك بان رحمة اورموزد هي فوق العدل.

وزورد واستر نبيّ المجوس، الذي يقول بخلود ارواح البشر، له شرع يقرر كلا من الحقوق بينهم، وحق السماء عليهم، ويحضهم على طهارة النفس والعمل، ويدعوهم الى ممارسة الصلوات في الليل والنهار. وكانت صلواتهم توجه الى الله، والى بعض الارواح السماوية. وكانوا يعتبرون اللات والعزى في

عداد هذه الارواح.

وقد اورد خليل مطران في كتابه مرآة الايام (ص٦٣) شيئا من تعاليم زور واستر ووصفها بانها: «اشرف واطهر تعاليم الشرك في القدم». ولعل شاعر القطرين وجه اليها هذا الاطراء لما بينها وبين الاديان السماوية من شبه في اصل العقيدة مع اختلاف في الاسماء: فالله في الكتب السماوية يقابله عند زور واستر زوران اكرنبي، كما ان الملائكة يقابلها اورموزد. اما ابليس فيقابله اهريمان، هذا فضلا عما هناك من التشابه بينهما في عقيدة الخلود واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقامة الصلوات على غرار ما امرت به شرائع موسى وعيسى ومحمد ﷺ.

على ان دين زور واستر مُني ايضاً بمثل ما مني به سواه من التفرقة والانقسام الى فرق. وقد خرج بعضها عن نطاق تعاليم الاويستا. ويعود ذلك الى اختلاط الفرس بالكلدانيين والاشوريين في اعقاب استيلاء الفرس على بلادهم.

وقد تعرض الشيخ عبد الباسط الفاخوري في كتابه «تبصرة المستبصرين» ص ٥٣ الى ذكر هذه الفرق، وقال ما خلاصته: «ومنهم اتباع كيومرت الذين قالوا ان يزدان (ولعله زوران اكرنبي) ازلي قديم، واهرمن محدث مخلوق. ومنهم المسخية، زعموا ان النور وحده كان نوراً محضاً فانمسخ وصار ظلمة. ومنهم الخرمندينية اصاب التناسخ والحلول. وهم اصل القرامطة، ولا يقولون باحكام وحلال وحرام. ومنهم الزرادشتية اتباع زرادشت، ومنهم السبسانية، والبهافريدية، والثنوية. وهم يزعمون ان النور والظلمة أزليان. ومنهم المانوية اصحاب ماني الذي اقام دينه على المجوسية والنصرانية، وكان يعترف بنبوة المسيح، وينكر نبوة موسى. وكان يدعو الى الاشتراكية المتطرفة كمزدك الذي جاء بعده. ومنهم الكينوية والصيامية الذين زعموا أن الأصول

ثلاثة: النار والارض والماء، فما كان من خير فمن النار، وما كان من شر فمن الماء والارض وسط بينهما. ومنهم التناسخية الذين يقولون بتناسخ الارواح في الاجساد، وان الثواب والعقاب في الدنيا، وهما الجنة والنار.

وكان اكاسرة الفرس، على رواية حسين هيكل، (حياة محمد ﷺ ص ٦٩) «يستمرئون الخلافات التي تقع بين هذه الفرق. وكلما خافوا ان تقوى شوكة احداها يضربون بعضها ببعض تمشياً مع سياسة فرق تسد». وكانت اكبر هذه الفرق الزرادشتية نسبة لزرادشت. وكانت فارس تدين بها عند ظهور الاسلام وقد جاء عن زرادشت في دائرة المعارف للبستاني (م ٩ ص ١٩٧) ما خلاصته: «هو نبي المجوس الذي اتاهم بالكتاب المعروف «زندا فستا». كانت ديانة المجوس مملوءة بالخرافات والخزعبلات فانبرى الى اصلاحها وتطهيرها من الشوائب، وعاد الى عبادة النار، واقام للهيئة الاجتماعية قوانين جرى فيها على مبادىء حيوية الافراد وشؤونهم من حيث الحقوق والواجبات، ونبه الناس الى ثواب الآخرة وعقابها.»

وتعظيم النار عند المجوس يرد الى معان، منها ان النار جوهر شريف علوي، ومنها انها عزفت عن إحراق ابراهيم الخليل الذي تعظمه المجوسية، ومنها ان تعظيمها في الدنيا ينجيهم من عذابها في الآخرة. وقد اتيح لي ان اشاهد المجوس المعاصرين في بمباي سنة ١٩٥١. ولقد خيل لي، في اول الأمر، بأنهم مسلمون لاختلاف اجسامهم وازيائهم عن سائر الهنود، ولكني لم البث ان علمت انهم هنود من أصل فارسي، نزحوا الى الهند حين دخول المسلمين الى فارس. وهم معروفون هناك باسم بارسي، وهو تحريف فارسي، ولهم منزلة اقتصادية مرموقة. وكان الانكليز، خلال حكمهم الهند، يقرّبونهم اليهم. وهم لا يزالون حتى الآن يوقدون النار في معابدهم فيحسبهم الناس من

عبدتها. والواقع ان الكهنة يشعلونها رمزاً لأورموزد ابي الخير، واشارة الى وجوده بينهم.

وجاء الاسلام ابان اشتباك الفرق المجوسية بعضها مع بعض بصراع متواصل كان لا يقتصر على الجدل فحسب، وانما يتعداه الى الفتن. وجاء خلال ما كان مذهبا ماني ومزدك الاشتراكيان المتطرفان قد بذرا السموم في الهيئة الاجتماعية، وساهما في انحلالها، وعملا على نشر الريب والشكوك بصحة المجوسية. وكان الاسلام يدعو الى حنيفية ابراهيم الخليل الكلداني الذي كانت تجمع على تعظيمه الفرق المجوسية: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة آل عمران). فرأى المجوس انهم ومحمداً يتلاقيان في صعيد واحد عند حامل مشعل الوحدانية الاول، فلم يظهروا له جفاء دينياً مثلما اظهر أكاسرتهم له في الجفاء السياسي إذ يحوّل جزيرة العرب الى الامبراطورية البيزنطية دونهم. حتى اذا استغل الاسلام، من بعد، انحلال المجوسية، وانحلال السلطة الفارسية وتمكن من استئصال دولة الاكاسرة اقبل المجوس عليه مسلمين، وساهم الفرس مع العرب في اقامة مدنية اسلامية عالمية خير مساهمة.

والجدير بالتنويه هنا ان الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ = ٦٢٤ - ٦٤٤ م) لم يعامل المجوس، لما فتح فارس، معاملة الاسلام للمشركين، بل عاملهم معاملة اهل الكتاب، واكتفى بضرب الجزية على الذين اختاروا منهم البقاء على دينهم.

والجدير بالذكر ايضا ان التاريخ يعيد نفسه: فكما ان الكلدانيين والآشوريين كانوا قد صبغوا حضارة الفرس ودينهم بصبغتهم الخاصة حينما

استولى هؤلاء على بردهم المتحضرة فإن الفرس المجوس ما ان خضعوا للعرب واعتنقوا دينهم حتى ادخلوا اليه كثيراً من اعتقاداتهم الاولى وتقاليدهم وعاداتهم. وما تلك الفرق الكثيرة المتطرفة التي انتشرت في حظيرة الاسلام من اهل الباطن واليزيديين، والقائلين بالتناسخ والحلول والروافض وغيرهم الا نسخة طبق الاصل عن مجوسية الفرس القديمة.

الصابئة. مصدرها وتعاليمها

الصابئون عنصر من العناصر ينتسب الى صابىء بن ادريس وكتابهم صحف شيت بالسريانية، وهو يشيد بمكارم الاخلاق، ولا سيما الصدق والشجاعة والتعصب للقريب، ويأمر بها، ويسفه الرذائل وينهي عنها. ولهم، على رواية ابي عيسى المغربي، صلوات سبع: خمس منها توافق صلوات المسلمين، والسادسة صلاة الضحى، والسابعة في تمام الساعة السادسة من الليل. ويشترط عندهم، ما يشترط عند المسلمين، من خلوص النية في الصلوات بحيث لا يخالطها شيء آخر. هذا فضلا عن صلاة الميت، وهي عندهم بلا ركوع ولا سجود. ويصومون كالمسلمين ثلاثين يوما، وان نقص الشهر الهلالي صاموا تسعا وعشرين، وذلك ابتداء من ربع الليل الأخير الى غروب الشمس. وكان لهم بالاضافة الى تعظيمهم الكعبة بين مقدّس آخر في ظاهر مدينة حران، قرب الرها بالشام، كانوا يحجون اليه. وكانوا يعظمون اهرامات مصر. وسبب ذلك، على رواية الشيخ عبد الباسط الفاخوري « تبصرة المستبصرين ص ٨)، يرجع الى اعتقادعم « ان ثلاثة منها كانت مقابر لشيث بن آدم وادريس وصابىء بن ادريس. » ويضيف الفاخوري الى ذلك قوله: « انهم كانوا يغتسلون من الجنابة، ويحرمون لحم الخنزير والكلب والطيور ذات المخالب، كما يحرمون كل

مسكر. ويأمرون بالتزويج بولي وشهود، ويحرمون الطلاق الا بحكم الحاكم، كما يمنعون تعدد الزوجات.»

وقال عنهم الفاخوري في مكان آخر: «وكانوا يعنون بعلم الفلك فوصل فيهم الأمر ان استخرجوا من عجائب الكواكب السيارة وشروقها وغروبها وقراناتها ما يفضي بالعجب العجاب، كما كانوا يعنون بالعزائم والطلاسم والسحر والكهانة. غير انهم زاغوا من بعد عن نهج الوحي والانبياء، وعبدوا الكثير من الاصنام لتكون شفيعة لهم عند الأله الخالق الحكيم المنزه عن سمات المحدثات.»

بيد أن محمد الاسكندراني ذهب في كتابه كشف الأسرار النورانية القرآنية (ج ٢ ص ٢١) الى ان الصابئة كانوا يعبدون الكواكب ويقولون ان الله خلقها وهي تعبد الله. وذهب مثله لاروس الى القول بان هؤلاء كانوا يعبدون الكواكب، ونفى نسبتهم الى البارسيس المجوس عبدة الشمس والنار (معجم لاروس ص ١١٨٥).

والقول بانهم كانوا يعبدون الأصنام هو الصحيح يؤيد ذلك حديث القرآن عن نبيهم ابراهيم فلعل اصنامهم كانت تمثل الكواكب التي يعبدونها.

فقد ظهر ابراهيم الخليل بين الصابئين في العراق، ودعاهم الى عبادة الله الواحد الأحد مباشرة دون واسطة. وفي القرآن حواره معهم وكسره اصنامهم، ومحاولتهم احراقه، «فكانت النار بردا وسلاما على ابراهيم» كما جاء في سورتي الانعام والصافات.

على ان ملة الصابئة كانت منتشرة، في ذلك الحين وما بعده، في العراق والشام وغيرهما، وكان عليها الكلدان والسريان والانباط والكنعانيون والآراميون. ويلفت النظر ما بينها وبين الاسلام من موافقات في كثير من

الاحكام والعبادات . ولا تزال هذه الطائفة موجودة حتى الآن في العراق .

وقد ورد ذكر الصابئين في القرآن بسورتي البقرة والمائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

غير اني اعتقد ان الصابئين، الذين اتى على ذكرهم القرآن، كانوا فئة أخرى غير الصابئة اصحاب صحف شيث. كانوا فرقة من الفرق النصرانية عاصرت محمدا ﷺ، وكانت تحمل هذا الاسم . ويؤيد ذلك ما جاء في معجم لاروس ص ١١٨٥ حيث قال عن الصابئين «Sabéisme» انها تطلق ايضا على فرقة من فرق النصارى» هذا فضلا عن ان تفسير القرآن « الجلالين » يقول عند تفسيره كلمة الصابئين التي وردت في الآيتين : « هم طائفة من اليهود، او النصارى . »

فإن صح ما ذهبتُ اليه ، وكان الصابئون المعاصرون لمحمد ﷺ ، الذين ورد ذكرهم في القرآن اكثر من مرة ، في مجال تطمين المؤمنين منهم عن الصبر ، فان كانوا فرقة من النصارى فشأنهم كان شأن سائر المسيحيين في الترحيب بالاسلام على اعتباره، في نظرهم، مذهبا من مذاهب النصرانية واما اذا كانوا من الصابئين اصحاب صحف شيث فالاسلام لم يكن غريباً عنهم ايضا . انهم كانوا يقدسون ادريس كل التقدّيس . والقرآن نوّه به في سورة مريم حيث قال : « واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبيا ، ورفعناه مكانا عليا . »

وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا يجدون في احكام الأسلام وعباداته كثيرا مما يتفق مع ما في دينهم من الاحكام والعبادات ، كما انهم يتفقون معه في تقديس الكعبة .

الخلاصة

رأينا فيا استعرضناه بهذا الفصل كيف تطورت الأديان، قبل الاسلام، وتحولت كل واحدة منها الى فرق كثيرة حول البحر المتوسط، وفي الشرقين الأدنى والأوسط، وكيف نقلت هذه الفرق الأديان من مرتبة البساطة والصفاء الى مستوى الجدل والمشاحنات، وكستها اثواباً من الفلسفات كادت تغمر ما فيها من الروحانيات. ورأينا كذلك كيف انقلبت المشاحنات المذهبية الى فتن ومذابح فبدلت رسالة الاديان، التي جاءت داعية الى الاخاء والسلام، بنزعات طائفية كانت مصدراً للتباغض والخصام بين الأنام.

ولقد كان لتلك المشاحنات الدينية بين الملل، والمناظرات بين المذاهب، وما تخللها من تراشق بالتكذيب والتسفيه عواقب أخرى: انها كانت سبباً لتسرب الريب والشكوك الى الأوساط المفكرة في الاديان: كما ان استمرار الفتن جعل بين الكتلتين الشرقية والغربية، فيضجر من الوضع القلق، ويخشى المصير، ويتطلع بشوق الى يوم يسود فيه الاطمئنان والاستقرار.

وفي هذه الظروف المضطربة المليئة بالمشاحنات ظهر محمد ﷺ وانبرى لنشر دينه، وكان ظهوره، في الوقت المناسب الذي هيأه له الزمان، من اسباب نجاحه. كما ان البساطة التي يمتاز بها هذا الدين وافقت اماني الناس الذين اضجرتهم عقد الفلسفات وفتنئذ، فكانت سببا آخر من أسباب انتشاره.

وقد نوه الدكاترة حتي وجرجي وجبور في «كتابهم تاريخ العرب الجزء ١ ص ١٧٨» بهذه البساطة حيث قالوا: «وهو دين عملي صريح وقلما يشير القرآن الى هدف عال يصعب نواله. ويكاد يكون خلوا من العقد اللاهوتية. وليس فيه اثر للاسرار الرمزية المقدسة، او مراتب الكهنوت، او ما رتبته اصول الرسامة والمسح والتكريس والخلافة الرسولية.»

وفضلا عن ذلك فإن دين محمد ﷺ سرعان ما انتزع ارتياح العالم منذ ظهوره من جراء عدم تعرضه بسوء الى الاديان الأخرى، فكان العالم المتمدن يصفق له استحسانا في غضون انتصاراته المتوالية على الوثنية عدوة الجميع.

فهو قد جاء مصدقاً لليهودية في نطاق التوحيد والايمان برسلها وانبيائها واليوم الآخر، وجرى مجرى بعض الفرق المسيحية في قضية عيسى على انه رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه، وقدس عيسى واعتبر امه صديقة. زد على ذلك ان الاسلام اقر اليهودية والمسيحية على ما اتفقتا عليه مع المجوسية من حيث الاعتقاد بوجود عالمين يتصارعان: عالم الخير تمثله الملائكة والاخيار. وعالم الشر، تمثله الشياطين وعلى رأسهم ابليس واتباعه الاشرار. وهو الى ذلك وافق الصابئين في كثير من احكامهم وعباداتهم وشعائرهم: اما العرب فقد اقر بعض سننهم، واهمها الحج ومناسكه وجعله فريضة على من استطاع، واتخذ الكعبة قبلته، بعد أن كان يولي المصلي وجهه شطر بيت المقدس كما اقر كثيرا من التقاليد العربية التي كانت مرعية كغسل الجنابة وتكفين الموتى والصلاة عليهم، وجعلها من قبيل الفروض، وحرم، كما حرموا، القتال والقتل في الأشهر الحرم.

لذلك كله فإن العالم رأى في الاسلام ديناً وسطاً، كما وصفه القرآن:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة البقرة). ورأى الناس فيه خير حل للعقد الدينية المستعصية التي أشغلتهم، وافضل منقذ لهم من الفتن المذهبية التي اخذت برقاب بعضها البعض، فاقبلوا عليه تباعاً حباً في الاستقرار المنشود.

الفصل الثالث

العناصر الداخلية الدينية والادبية التي تقدمت الاسلام ومهدت له

يخيّل لعامة الناس، اذا ذكرت فترة الجاهلية، ان العرب كانوا خلالها جهلاء فقراء، وكانوا بدوا انما يؤمّنون معاشهم بالغزو وتربية الانعام. وهم الى ذلك كانوا في عزلة عن العالم لا يعرفون شيئا عنه، واذا امتازوا بخصال فانما يمتازون بما تقتضيه حياة البداوة من العصبية والشجاعة والكرم، والضيافة وحفظ العهد والزمام. والواقع ان هذه الصورة، المرتسمة في مخيلة اكثر الناس، هي صحيحة بالنسبة لأهل البدو، ولكنها لا تنطبق على اهل الحضارة في اليمن والشام والعراق، ولا تنسجم ايضا مع اهل المدن في الحجاز كمكة والطائف ويثرب وغيرها.

ويحسب عامة الناس ايضا ان نجاح الاسلام في نشر رسالته جاء على طريقة «كن فيكون» دون ان تسبقه مقدمات طبيعية، واسباب اجتماعية في شبه الجزيرة العربية وغيرها.

والواقع ان الطفرة محالة، وان مدبر هذا الكون وضع له نواميس طبيعية محكمة لا مفرّ لكل من دبّ على هذه الارض، او نبت فيها من التقيد بها، سواء اكانوا افرادا او جماعات «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.» (سورة الاحزاب)

وعلى هذا الأساس فإن ظهور الدعوة الاسلامية ونجاحها كانا مسبوقين، في

الاوساط العربية وفيها حولها، بمقدمات سهلت لها السبل: فالعرب كانوا قد تأهبوا، خلال فترة الجاهلية، لبعث جديد تأهب الرمال العطشى للوابل، او تأهب الحطب اليابس للاشتعال. وفي هذا الفصل دراسة عامة عن هذا التأهب للبعث الجديد الذي كانت تتمخض به جزيرة العرب، وذلك في الشؤون الدينية والأدبية والفكرية.

اديان العرب في الجاهلية

بعض الكتب السماوية، وآخرها القرآن، تروي ان ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل، جد العرب المستعربة، رفعا قواعد الكعبة بمكة لتكون مصلى للناس على دين الحنفية: دين ابراهيم الذي وصفته التوراة بالخليل، وكذا القرآن الكريم.

ويستفاد من هذا ان عقيدة التوحيد كانت معروفة عند اهل شبه جزيرة العرب، وذلك قبل نحو الفي سنة من ولادة المسيح. لان ابراهيم مولود، على رواية دائرة المعارف للبستاني، في عام ١٩٩٦ ق. م.

فكيف انقلب اولئك العرب الى عبادة الاوثان؟

ذلك ما يجيب بعض مؤرخي العرب عليه، وعلى رأسهم ابن هشام (السيرة ص ٥٠) اذ يقولون: «ان عمرو بن لحي سيّد مكة، والقيّم على الكعبة، سافر الى البلقاء من اعمال الشام في عهد كسرى سابور ذي الاكتاف، وذلك قبل نحو ثلاثماية عام من الهجرة، فرأى قوماً هناك يعبدون الاصنام، ويزعمون انها تنصرهم اذا استنصروا بها، وتمطرهم اذا استمطروها. فراقت له هذه الاصنام، وسألهم ان يهدوه واحداً منها فأعطوه الصنم المعروف بهبل فنصبه في الكعبة، ودعا الناس الى عبادته. وبقي هبل، من بعد، اعظم اصنام العرب حتى الاسلام». وروى هذا أيضاً محمد الاسكندراني (كشف الأسرار ج ٢

ص ٢٢) وزعم ان العرب كانت قبل عمرو بن لحي على دين ابراهيم .

واني ارتاب في صحة القول ان تسرب الوثنية الى العدنانيين وجيرانهم يرجع الى قبل ٣٠٠ عام من قبل الهجرة فقط . ذلك لأنه ليس من المعقول ان يبقى هؤلاء على حنيفية ابراهيم طوال ٢٣٠٠ عام لا يحيدون عنها ، بينما ان عبادة الكواكب ، واقامة الانصاب لها ولغيرها ، كانت شائعتين طوال هذه الحقبة بين الدول العربية في اليمن ، وفي شمالي الجزيرة وفي الشام والعراق ، فضلا عن غيرها من العالم . والذي لا ريب فيه ان الكعبة تحولت الى قاعدة للوثنية قبل هذا العهد : فقد ذكرها المؤرخ الروماني سيسلاس ، ونوه بقدمها ، وقال انها كانت في عهده أشرف معابد العالم طراً . والذي لا ريب فيه ايضاً ان العرب ، قبل الاسلام ، لم يجمعوا على صنم واحد يعبدونه ، بل كاد يكون لكل قبيلة واحد : فوذ في دومة الجندل لكلب ، وسواع لبني هذيل ، ويغوث لبني مذحج ، ويعوق لهمدان ، ونسر لذي الكلام ، واللات لثقيف في الطائف ، ومناة للخزرج في يثرب ، والعزّى لكنانة بجوار مكة ، واساف ونائلة لأهل الصفا والمروة على مقربة من مكة ، وسعد لبني ملكان من كنانة . وكانت الكعبة ، الحافلة بنحو ٣٦٠ صنما ، تجمع بين كثير من اصنام العرب على اشكال مختلفة . منها ما كان يمثل الحيوانات ، ومنها ما كان من الحجارة على غرار الحجر الاسود الذي هو على رواية دي ساسي ، من رجوم السماوات .

والجدير بالذكر ان الاوثان عند العرب لم تكن مقصودة بالذات في العبادة ، وانما كانوا يعتبرونها وسطاء بينهم وبين الأله الباريء ، وشفعاء لهم عنده اسوة بمعاصريهم في اقطار العالم . فكانوا اذن مؤمنين بالله ، لا كما يعتقد اكثر الناس . يؤيد ذلك دوسو[1] ، في معرض التدليل على ان اسم الله عريق في

---

(١) Dussaud:. Les Arabes En Syrie, P. 141-142.

القـدم عند العرب، اذ روى ان الله ورد باسم هلاه في النقوش التي عثر عليها المنقبون في صفا بحوران، تلك النقوش التي ترجع تاريخها الى قبل خمسة قرون من الاسلام. بل تكفي للتدليل على ذلك الاشارة الى ان اسم والد محمد ﷺ هو عبد الله.

على ان كثرة العرب وان كانت في الجاهلية وثنية الا انهم مع ذلك لم يجمعوا عليها. وعدا اولئك الذين تهودوا منهم او تنصروا فقد صبى بعضهم الى عبادة الملائكة على اعتبارها بنات الله. وعبد بعضهم الجن كما ان فريقا منهم كانوا من الدهريين ينكرون الخلق والبعث ويقولون بالطبيعة. وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بالآية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ.﴾ (سورة الجاثية.) ومنهم الشاعر القائل:

حيـــاة ثم مـــــوت ثم نشر حديث خرافة خرافة يا ام عمرو
يخبرنـا الرسـول بـان سنحيـا وكيـف حيـاة اصـداء وهـام؟

وكان بين العرب أناس ينكرون البعث والحياة الأخرى أولئك الذين أشار اليهم القرآن بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. (سورة يس).

وخلال هذه الفوضى الفكرية التي شملت العرب، وما رافقها من شكوك في صحة الوثنية، جنح فريق من مفكريهم الى الدخول في الأديان المعاصرة، فمنهم فئة اختارت ديني ماني ومزدك الفارسيين الاشتراكيين المتطرفين. وكان اكثرها من قريش. ومنهم فريق اعتنق ملة برهما، واكثرهم من سكان عُمان والبحرين البلدين المتواصلين بالتجارة مع الهند. ومنهم جماعة دخلت في المجوسية واكثرها من عرب شمالي الجزيرة. ويروي بعض المؤرخين ان المجوس الذين ذكر الانجيل متى انهم اقبلوا من المشرق الى اورشليم، يوم ولد

عيسى، يهتدون بالنجم انما كانوا من هؤلاء الاعراب المتجسين لا مجوساً من فارس.

وكان اليهود قد ولوا وجوههم شطر جزيرة العرب بعد ان هدم الرومان بيت المقدس، ودكوا هيكل سليمان سنة ٧٥ م، ثم أستأنفوا الهجرة اليها في عهد البيزنطيين، في اعقاب الصراع الذي اشتد بينهم وبين النصرانية. وكانت هجرتهم الاولى الى يثرب، ومنها الى اليمن وغيرها، فتهود بعض العرب في الحجاز واليمن وفي القبائل التابعة لها. وتهود بعض عواهل اليمن ومنهم أبو كرب (٣٨٥ ـ ٤٢٠ م) احد تبابعة حمير الذي اشادت الاشعار الحماسية بذكره، ومنهم ذو نواس آخر ملوكهم، وهو صاحب مأساة الأخدود في نجران سنة ٥٢٣ م التي شجبها القرآن، واعرب عن عطفه على شهدائها المسيحيين.

وتنصر آخرون من العرب، وجلّهم من غسان في الشام، ولخم في العراق، وبعض قبائل قضاعة وربيعة، وفريق من اهل اليمن، وتسربت المسيحية الى قصور ملوكهم. وبالاضافة الى عواهل الغسانيين والمناذرة اللخميين الذين تنصروا فقد كان كل من هودة بن علي ملك عُمان واليمامة، واسكندر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل على دين النصرانية. على ان متنصرة العرب لم يكونوا على مذهب واحد؛ بل كانوا على مذاهب متفرقة: فكانت كثرتهم في الشام ملكانيين او يعاقبة، وفي العراق نسطوريين. وفي اليمن، يعاقبة على مذهب الحبشة.

ويعتبر القديس برتلمي، من اهل القرن الثاني للميلاد، أول من نزل اليمن للتبشير بالمسيحية. وفي عام ٣٤٣ م ارسل امبراطور قسطنطينية كنستنس الثاني وفدا الى اليمن لاقناع حكومتها من اجل عقد حلف ضد فارس، وكان

يرافق هذه البعثة السياسية قسس ورهبان استأذنوا في بناء ثلاث كنائس فأذن لهم. اقاموا واحدة في ظفار قاعدة اليمن وقتئذ، والثانية بعدن ثغرها التجاري، والثالثة في احد ثغور خليج فارس. وعلى رواية الدكاترة حتي وجرجي وجبور في كتابهم (تاريخ العرب ج ١ ص ٨٠) فان «اول سفارة نصرانية الى جنوب الجزيرة العربية كانت تلك التي بعث بها الامبراطور قسطنطينيوس سنة ٣٥٦ م. برياسة ثيو فيلس اندس، (وكان على مذهب آريوس الذي ينكر لاهوت المسيح). والواقع ان هذه البعثة كانت مسبوقة بسواها، كما ذكرنا قبلاً عن دريبر الاميركي وغيره.

وقد ظلت العلاقات الحسنة متصلة بين نصارى اليمن وبين قسطنطينية حامية المسيحية حتى اذا ما اقدم ذو نواس المشار اليه على ارتكاب مأساة نجران تراكض من سلم من النصارى الى الاستجارة بأمبراطورها يوستينوس الاول، الذي توفي قبل سنوات قليلة من ولادة محمد ﷺ، فأوعز هذا الى نجاشي الحبشة كالب بن اكثوم ان يكتسح اليمن ويثأر لهم. فكان احتلال الحبشة لليمن سنة ٥٣٠ م مدعاة لانتشار المسيحية فيها على وجه اكمل.

والجدير بالذكر ان اليهود والنصارى الذين نزلوا في جزيرة العرب كانوا على مستوى أعلى من اهلها. فكان اختلاطهم بهم، ذا تأثير كبير في الاوساط العربية، سواء اكان ذلك في الناحية الاجتماعية، او في ناحية القاء الشكوك في صحة الوثنية. كما ان ما حدث وقتئذ من الجدل الديني وبين الملتين على مسمع ومرأى من اهل الجزيرة، وما وقع بينهما من التراشق بالتهم وبالتكذيب اتاح لهؤلاء الاطلاع على اختلاف وجهات الافكار في قضية الاديان والمذاهب.

ذلك كله بالاضافة الى اسفار العرب ورحلاتهم التقليدية الى البلاد الاجنبية، والى تسرب الثقافتين البيزنطية والفارسية الى بلادهم: الاولى بواسطة الغسانيين والنصارى واليهود والبعثات. والثانية بواسطة المملكة اللخمية في

الحيرة وتجار ايران، جعلهم قبيل الأسلام ينتفضون انتفاضة من سئم الفوضى الفكرية، واراد ادراك الحقيقة، وبلوغ الاستقرار. وجعلهم، زيادة على ذلك، يرتابون في صحة الوثنية، ويتطلعون الى دين سواها.

فلما دعا محمد ﷺ العرب الى الاسلام، وهو دين وسط بين اليهودية والمسيحية، اقبلوا عليه سواء من كان منهم قد تأثر باليهودية، ام تأثر بالنصرانية. وسواء اكانوا من الذين ارتابوا بصحة الوثنية، ام كانوا في عداد المتحيّرين المترددين، ودخلوا فيه افواجا، خصوصاً وان بساطة تعاليمه كانت تتفق مع طبيعة افكارهم التي تألف البساطة، وتكره المبهمات.

رواج الشكوك في صحة الوثنية بين العرب

أصيبت الوثنية بصدمة كبرى قبل الأسلام حينما ادى اختلاط العرب بالأجانب الى بذر بذور الريب في اوساطهم، والشكوك في صحة عبادة الاصنام. وصار بعضهم لا يتورعون عن التعبير صراحة عما يخالج ضمائرهم في هذا الصدد. من ذلك قول احدهم في صنم اسمه سعد كان لبني كنانة:

اتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنوخة من الأرض يدعو لغي ولا رشد

وصاحب هذا الشعر راع من ملكان كان يرعى ابله قريبا من سعد، فرغب ان يأتيه ليبارك ابله، فلما دنا بها منه نفرت وتفرقت في الصحراء، فقال ما قاله، واشفع ذلك بقوله: «قبحك الله من اله نفرت علي ابلي» فكان هذا دليلا على تسرب الشكوك الى صفوف العامة ايضا.

وقد حلت هذه الشكوك بعض منكريهم على التحري عن دين صحيح غير الوثنية. فافضى الأمر الى اعتناق بعضهم المسيحية، واشهرهم خالد بن سنان

العبسي، وحنظلة بن صفوان، وامية بن ابي الصلت الثقفي، وقس بن ساعدة، وعمر بن عبسة السلمي.

فخالد بن سنان قال عنه علي بن برهان الدين الحلبي (السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١) انه كان نبيا، وبينه وبين عيسى ٣٠٠ سنة، ولكنه لم يأت بشريعة، والمظنون انه كان يؤيد شريعة عيسى.

وحنظلة بن صفوان الذي جاء بعد مضي نحو مائة عام من خالد، على تقدير هذه السيرة، جاء لأهل الرس، وقد وصفه آخرون بانه كان كاهنا في حير.

وامية بن ابي الصلت الذي توفي سنة ٦٢٤ م قيل انه لم يتنصر، وانما كان يدعو الى الحنيفية: دين ابراهيم الخليل. ويروي احمد زيني دحلان (السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية ص ١١٣) ان امية المشار اليه قال لابي سفيان: «اني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا، فكنت اظن اني هو، وكنت اتحدث عن ذلك. ثم ظهر لي انه من بني عبد مناف، فنظرت فلم اجد من هو متصف باخلاقه الا عتبة بن ربيعة، الا ان هذا قد جاوز الاربعين ولم يوح اليه فعرفت انه غيره.» قال ابو سفيان فلما بعث محمد ﷺ قلت لأمية: «اما وانه حق فاتبعه ما يمنعك؟» قال «الحياء من نساء ثقيف. اني كنت اخبرهن اني هو، فكيف الآن اتبع فتى لعبد مناف؟»

واما قس بن ساعدة المتوفي سنة ٦٢٠ م فهو من اياد ارتد عن عبادة الاوثان، ودعا الى العزوف عنها. وكان، في اول الأمر، زاهدا بالدنيا ثم تنصر ونصب قساً في نجران. وهو من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم. وله خطبة في سوق عكاظ على غرار انشاء القرآن. سمعها محمد ﷺ قبل البعثة. ثم جاءت عبارات منها في القرآن. منها قوله: «ان في السماء لخبرا، وفي الارض لعبرا. ليل داج وسماء ذات ابراج، وارض ذات فجاج وبحار ذات امواج، ما لي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ ارضوا بالمقام فقاموا؟ ام تركوا هناك

فناموا؟ اقسم قس قسما حاتما لاحانثا فيه ولا آثما ان الله دينا هو احب اليه من دينكم الذي انتم عليه، ونبياً قد حان حينه، واظلكم زمانه... الخ» (السيرة النبوية ص ١٢٢).

واما عمر بن عبسة فقد رغب ايضاً عن آلهة قومه، وسفه عبادتها وتنصر.

على ان الشكوك بصحة الوثنية لم تقف عند حد، بل تسربت ايضاً الى مكة قاعدة الوثنية، فبادر بعض القرشيين من اهل محمد ﷺ الى التفكير في التماس الدين الأصح اسوة بسائر العرب. وعلى رواية ابن رستة «فان قريشاً انما اخذت الكتابة من الحيرة، واخذت الزندقة ايضا من الحيرة.» (الاعلاق النفيسة ص ٢٧٣)

ورافق هذه الشكوك عند الجميع تذمر من تردي الحالة الاخلاقية وانتشار الفساد، ولا سيما الخمر. وقد حرمه بعضهم على نفسه. وكان منهم قيس بن عاصم التميمي، وعبدالله بن جدعان، وعثمان بن مظعون.

وفي هذا الوقت الذي كان يتحدث فيه العرب عن المنقذ المنتظر، وهو حديث كان يشجعهم عليه ما يسمعونه من اليهود من قرب مجيء المسيح الحقيقي. في هذا الوقت الملائم ظهر محمد ﷺ جامعا بين الدعوة الى التوحيد وبين الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي، فوجد فيه المرتابون بوثنيتهم، والمتذمرون من الفوضى الاجتماعية والاخلاقية ضالتهم المنشودة، فاقبلوا عليه مسلمين.

مساهمة التجارة بمكة في التأهب للاصلاح الاجتماعي

كان للتجارة، في سائر الأزمان، الفضل الاكبر في صدد تبادل الافكار بين الناس وانتشار المعتقدات. واذا ذكر الأسلام فيذكر معه ما كان للتجّار من اياد بيضاء في توفير الأسباب لظهوره ولنجاحه في جزيرة العرب، كما

تذكر معه اياديهم في نشره، من بعد، في كل مكان، ولا سيا في مجاهل افريقية وآسية.

(١) التجارة عند العرب

كان العرب معروفين لدى الشعوب القديمة بأنهم وسطاء التجارة البرية بين الشرق والغرب، وحفظة مسالكها ودروبها. وكانت بلادهم، بحكم موقعها الجغرافي، حلقة الاتصال بين ممالك العالم القديم. ففي عصر الرومان كانت شهرة الانباط في بطرا قد ملأت مسامع الدنيا، فقال عنهم ديودورس الصقلي (الكتاب الثاني ص ٤٨ ـ ٥٠) «ان الانباط بلغوا الأوج في احتكار تجارة آسيا الغربية، وكان لهم الاشراف على جميع المتاجر الأخرى». وكانت بطرا مجمع العملاء والصيارفة والسماسرة وأرباب المال، ونقطة الارتكاز التي تتشعب منها طرق التجارة الى سائر الأرجاء. فشمالا الى البلقاء وسوريا وتدمر، وشرقاً الى خليج فارس والعراق، وغرباً الى البحر الأحمر ومصر. وقد استبد الأنباط بهذه الطرق التجارية الى حد ان كل قافلة غريبة كانت تحاول ان تحيد عن طرقهم وتتخلص من جعالاتهم تصبح عرضة للنهب والسلب من قبلهم (ديودوروس جزء ٣ ص ٤٣ واسترابون فصل ١٦ ص ٢١).

وكانت تدمر، التي عاصرت بطرا في عنفوان عزها، تتعاون معها في نقل التجارة العالمية حتى اذا سقطت بطرا بعهد الرومان، قبل نيف وقرن من ميلاد المسيح، احتلت تدمر مكانتها التجارية العالمية وظلت تحتفظ بها نحو قرن الى أن دخلت أيضاً في حكم الرومان.

أما في جنوب جزيرة العرب فقد كانت اليمن الوسيط الآخر التجاري بين العالم: كانت تنقل تجارة الهند والصين وما يليهما الى بلاد بطرا وتدمر، حيث تتوزع من بعد في الأمصار الفارسية والرومانية. وكانت تعتمد في ذلك على

قوافل تبدو في عظمة شأنها كأنها مدينة متنقلة. وقد ذكر استرابون الرحالة اليوناني، الذي ولد قبل نحو ٥٠ عاماً من المسيح، انه رأى قافلة من القوافل العربية «كأنها الجيش اللجب لما فيها من الحراس والأدلاء والعيون والوكلاء والحفظة على الحيوانات والخدم».

وكانت بعض هذه القوافل تحط الرحال أحياناً في تيماء ولا تتعداها، لأن تيماء، الواقعة في شمالي جزيرة العرب، كانت المحطة الكبرى للقوافل، والمركز التجاري الأكبر. انها كانت كواحة في صحراء النفوذ تتصل ببابل بطريق حائل، وبمصر بطريق معان وايلة (العقبة) وسيناء، وبسوريا بطريق بصرى. وكانت بصرى في عهد البيزنطيين قاعدة الولاية العربية التي كان يحكمها الملوك الغسانيون، ومحطة كبرى أخرى للقوافل التي تتعدى تيماء، وأحفل سوق على التخوم السورية. ولا أدري اذا كانت القوافل العربية الذاهبة الى الشام كانت تحط الرحال في بصرى حيث تدفع المكوس، وتدفع بسلعها الى أيدي المفوضين من قبل الدولة، أم انها كانت تتعداها الى دمشق وغيرها. ولكن الذي لا ريب فيه ان أصحابها كانوا يزورون القدس وسائر مدن الشام، وان أصحاب القوافل التي كانت تؤم مدينة الحيرة كانوا يزورون بلاد العراق.

وأما مكة فلم، تكن لها في ذلك الزمن منزلة تجارية مرموقة، بل كانت، هي ويثرب، بمثابة مناخ استراحة للقوافل بين اليمن وسوريا. غير ان ما حدث من بعد من تطورات سياسية، أثرت في تحول مسالك التجارة العالمية، وجعلت مكة تضيف الى زعامتها الوثنية زعامة أخرى اقتصادية. ذلك بأن الصراع الذي وقع بين الروم والفرس (٦٠٤ - ٦٢٧ م) على سيادة العالم، وما تبعه من تنازع الدولتين على الاستئثار بمسالك التجارة كان من عواقبه قيام الحجاز مقام اليمن على صعيد الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب.

فاليمن التي كانت تعتبر البرزخ التجاري المهم في جنوب جزيرة العرب القائم بين الهند وما بعدها، وبين سوريا ومصر من أعمال الامبراطورية البيزنطية، ان اليمن هذه كانت عرضة لمطامع الروم والفرس الذين كان كل منهم يريد أن يتخذها مركزاً استراتيجياً له للتضييق على ملاحة الآخر في البحر الأحمر. فلما أتيح للفرس اجلاء الأحباش عن اليمن، قبيل سنين قلائل من مولد محمد ﷺ، وذلك بمساعدتهم لسيف بن ذي يزن، ثم لما أتيح لهم أن يستبدوا بها ويدخلوها في حيازتهم، استطاعوا القضاء على ملاحة البيزنطيين حلفاء الأحباش في البحر الأحمر، فتحولت التجارة المهمة الى القوافل. وإذ كان الفرس، أصحاب اليمن وقتئذ على عداء مع البيزنطيين برزت الفرصة المواتية لأهل الحجاز للاستئثار بالمكانة التجارية العظيمة التي كانت لليمن من قبل، وأصبحت مكة بلداً تجارياً عظيماً، ومركزاً للعمولة ولتصريف البضائع المختلفة، ونقطة انطلاق للقوافل بدلاً من تيماء. وكانت تليها في الأهمية يثرب الغاصة بتجار اليهود والمرابين منهم والوسطاء. وبذلك أصبح أهل مكة تجاراً من الطراز الأول. وعلى قول أحمد زيني دحلان «فمن لم يكن تاجراً لم يكن عندهم بشيء». وكانت لهم رحلتين تقليديتين كل عام: رحلة الشتاء الى اليمن، ورحلة الصيف الى الشام، هذا فضلا عن أسفارهم الأخرى لفارس والحبشة ومصر والسودان. ويروي حسين هيكل (حياة محمد ص ٢٤٠) «ان بعض قوافل مكة والطائف كانت تسير في ألفي بعير، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار».

وكانت أسرة محمد ﷺ من أكابر التجار، وفي عداد الذين قضوا حياتهم في الأسفار حتى أن أبناء عبد مناف: هاشم واخوانه عبد شمس والمطلب ونوفل لم يعرف بنوأب تباينوا في محال موتهم مثلهم «فإن هاشماً مات بغزة، وعبد شمس مات بمكة، ونوفلا مات بالعراق، والمطلب مات ببرعاء من أرض

اليمن» (السيرة الحلبية ج ١ ص ٤)، كما ان عبدالله والد محمد ﷺ توفي على مقربة من يثرب.

هذا وكانت الأديار منتشرة في طرق القوافل، وهي كمحطات صغرى لها. فأدى ذلك الى توطيد الصداقة بين رهبانها وبين تجار قريش، والى تبادل الهدايا وكان تقارب اللغات السامية يسهل التفاهم بين الفريقين، هذا فضلا عن ان اللغة العربية لم تكن غريبة في الشام والعراق، وإنما كانت من اللغات المتداولة هنا وهناك وذلك قبل عهد آل غسان وآل لخم. فالرومان عندما فتحوا سوريا كان للعرب فيها دولتان: دولة آل السميدع في تدمر، ودولة الأنباط في البتراء. (العروبة والشعوبيات الحديثة للمؤلف ص ١٥٦): ثم بسط آل غسان ولا يتهم على رقعة تمتد من دمشق الى تخوم الحجاز، وشملت هذه الرقعة بصرى والبلقاء وتبوك وتيماء فجعلوا لغة الجزيرة العربية تنتشر حتى في دمشق وما حولها. وكذلك فعل آل لخم أصحاب الحيرة في العراق.

(٢) أثر التجارة على العرب

كان العرب قبل الاسلام أعلم الناس بما يحدث في سائر البلاد من التطورات السياسية والفكرية، وأعلمهم بأخبار العالم دولة شرقية كانت أم غربية. وكانوا فوق ذلك، مذيعي هذه الأنباء من قطر الى قطر. وعلى قول الهمذاني: «لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب. ذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة، واخبار أهل الكتاب، وكانوا (أي أهل مكة) يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم وأيام حمير وسيرها في البلاد. وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبني اسرائيل واليونان. ومن وقع بالبحرين وعُمان فعنه أتت أخبار

السند وفارس. ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيارة» .

وصارت مكة مثل اليمن أسبق البلاد الى الاحاطة بأخبار العالم، حينما تناولت منها مهمة الوساطة التجارية بين القارات. ذلك لانها، بالاضافة الى تجاراتها الواسعة، كانت داراً للحج من زمن بعيد. وكما كان يؤمها العرب للعبادة، وللمساهمة في أسواقها الأدبية والتجارية التي تعقد في الأشهر الحرم، فقد كان يقصد اليها تجار الأعاجم من كل ناحية للبيع والشراء، وتأتيها البعثات الدينية والسياسية والاقتصادية. والذين يشهدون تلك الأسواق كانوا يتناقلون الأنباء، ويتبادلون الآراء مثلما يتبادلون السلع.

على أن أهل مكة والطائف لم يكونوا ينتظرون موسم الحج لتلقّف أخبار العالم، بل كانت هذه الأنباء تصل إليهم مباشرة بواسطة المبشرين، ووكلاء التجار المقيمين بينهم، وأكثرهم من رعايا البيزنطيين الذين وصفهم أوليري «بأنهم كانوا عيوناً لدولتهم على فارس». هذا فضلاً أن أهل مكة والطائف كانوا خلال رحلاتهم يتزودون بأنباء شتى من أنباء الكون.

وهذا الاتصال بالعالم الخارجي الذي كان لقريش، بالإضافة الى اتصال العرب قاطبة بهم، كان من شأنه أن يفتّح أذهانهم، ويروّض أخلاقهم، ويجمّل أحوالهم الاجتماعية. خصوصاً وان هذا الاتصال كان مشفوعاً بثروة طائلة أصابوها بالاتجار. والثروة من طبيعتها دفع أصحابها الى الجنوح للتجدد، وللأخذ بالأفضل.

(٣) تطلع العرب الى الاصلاح

كان من المنتظر بعد أن أتيح لقريش وسائر العرب أن يختلطوا، الى الحد بالعالم، وبعد أن أصابت مكة ومدن الحجاز من ثروة ومن تنور، وما

أخذت عن غيرها من مظاهر التمدن، كان من المنتظر أن يشمل تطلعها الى الاصلاح الناحية الدينية أيضاً، وأن يقوم عقلاؤها بالدعوة الى الاصلاح في الناحية الأخلاقية. وقد بدت تباشير ذلك فعلاً عندما اضطلع أسلاف محمد ﷺ من أهله بهذه المهمة ابتداء بقصّي الى عبدالمطلب وأبي طالب. بل ان الرغبة في الاصلاح الديني والاجتماعي، في ذلك الحين، لم تقتصر على أهل النبي فحسب، وانما تسربت الى نفوس كثيرين من غيرهم. وقد نوّه ابن اسحاق ببعض هؤلاء حيث قال ما خلاصته: «كانت قريش تضحي لأحد أصنامهم، ولكن أربعة من مفكريها استنكفوا عن ذلك، وهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبدالله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل. وكان هؤلاء يتشاورون في أمر عبادة الأوثان، فاتفقوا فيما بينهم على التجوال في البلاد الأخرى التماساً للدين القويم». وقد علق على رواية ابن اسحاق مؤلف كتاب تاريخ الامبراطورية العثمانية[1] بما ترجمته: «ان هؤلاء الأربعة كانوا على اتصال مستمر بمحمد ﷺ، وكان لهم تجاوب معه. ثلاثة منهم انتهى بهم الأمر لاعتناق المسيحية. وهم (١) ورقة بن نوفل الذي كان أعلم العرب في عصره، وكان يكتب بالعبرانية، وهو أسبقهم الى النصرانية. وترجم بعض أجزاء من الأناجيل الى العربية (٢) عثمان بن الحويرث انتهى به المطاف الى قسطنطينية حيث تعمد فيها (٣) عبيدالله بن جحش. وكان من أوائل الذين اعتنقوا الاسلام، وهاجر مع من هاجر من المسلمين الى الحبشة فراراً من اضطهاد قريش. وبقي فيها واعتنق المسيحية. (٤) زيد بن عمرو بن نفيل. وكان يحترم كلا من المسيحية واليهودية، ولكنه لم يعتنق واحدة منهما» وكان يقول: «اللهم اني لو

(١) Histoire de l'Emipre ottoman هو كتاب نفيس صدر في عهد السلطان عبدالحميد الثاني العثماني. وأغفل مؤلفه ذكر اسمه. وربما كان سبب ذلك يعود الى خوفه من السلطان. وارجّح ان المؤلف هو صاحب جريدة البوسفور التي كانت تصدر وقتئذ في استامبول.

أعلم أي الوجوه أحب اليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه». ولما أعلن محمد ﷺ رسالته غادر زيد سوريا قاصداً الى مكة ليصغي الى صديقه القديم. فاغتاله بعض الاعراب عند تخوم الحجاز.

ويؤثر عن زيد بن عمرو بن نفيل قوله:

أربـاً واحـداً أم ألـف رب ... أدين اذا تقسمـت الأمـور؟
تركت اللات والعزى جميعـاً ... كذلك يفعـل الرجـل البصير

وكان أبو بكر عبدالله بن قحافة، قبل الاسلام، في عداد هؤلاء المفكرين الذين يسفهون عبادة الأصنام. ويروي انه كان يأبى السجود لها. وكان يكثر زيارة محمد ﷺ بن عبدالله في منزله حيث يتداولان في أمر الانتفاضة على الوثنية. يدل على ذلك ما رواه أحمد زيني دحلان (السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية ج ١ ص ١٦٩) في حديث عن النبي انه قال: «كنت أنا وأبو بكر على هذا الأمر كفرسي رهان، فسبقته فتبعني، ولو سبقني لتبعته».

وفي هذه الظروف المؤآتية برز محمد ﷺ ودعا الى عبادة اله واحد لا شريك له، وسفه عبادة الاوثان. وكان من المفروض ان ترحب قريش بهذه الرسالة التي كانت قد تأهبت لها، ولكن كثرتهم انكرتها عليه، وناصبته العداء، وظلت تؤذيه وتهم بقتله حتى اضطرته للجلاء عن مكة والهجرة الى يثرب.

لماذا؟ ألأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بصحة عبادة الاوثان؟

كلا: وانما لأن الغرض مرض. «فقد كانوا عند العرب مثل اللاويين عند بني اسرائيل، ولهم مثل امتيازاتهم. وهي امتيازات الكهنة في النصرانية. فكانوا لا يؤدون اتاوة، ولا يتكلفون دفاعاً. يحكمون على الناس، ولا يحكمهم احد. فكان من الطبيعي ان يناضلوا نضال المستميت عن سيادتهم الروحية، وعن قدسية بيتهم العتيق الذي جعل مكة عاصمة لشبه الجزيرة. وهم كانوا لا

يتوّجون احداً الا اشترطوا عليه ان يكون متحمساً في دينهم.» (جرجي زيدان. التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٧٥)

والى هذا فقد كان لقريش منافع اخرى مادية في الحفاظ على الوثنية. واعني بها المنافع الاقتصادية التي يجنونها كل عام من الحج، ومن الاسواق الادبية والتجارية التي كانت تعقد حول مكة في موسم الحج.

على ان هذه الامتيازات والمنافع التي كانت لقريش لم يعبأ بها نفر منهم كانت نفوسهم تسمو فوق الماديات. فكان اسلام ابي بكر، الزعيم السخي المحبوب مشجعاً لبعض عظماء قريش للدخول في الاسلام منذ ظهوره. ومنهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، فضلا عن عدد من النساء.

وكان علي بن أبي طالب أول طفل أسلم من الخلفاء الراشدين، كما كان عمر بن الخطاب آخرهم. وكان عمر شديد البأس على الاسلام، ولما اسلم استعمل بأسه في خدمته فاعتز المسلمون به.

والجدير بالذكر هنا ان محمدا ﷺ ما ان اعلن رسالته حتى بدت حركة جديدة في جزيرة العرب ان دلت على شيء فانما تدل على ما كان فيها من نقمة على الوثنية، وتأهب للانتفاض عليها. واعني بذلك نشاط بعض رجالات شبه جزيرة العرب الى اعلان نبوتهم: فادعاها الاسود العنسي في اليمن، ومسلمة من بني حنيفة في اليمامة، وطلحة بن عبدالله من بني اسد، ثم رجع الى الاسلام. واكثر من ذلك فقد حبب الى سجاح بنت الحارث من تميم ان تدعي النبوة ايضا في ذلك الحين. ولكن الاسلام استأصل نبوءات هؤلاء من جذورها قبل ان تنبت فاستأصل الفوضى التي كان ينتظر وقوعها لو ارتفعت هذه الاغراس فوق ارض العرب. ثم اتيح له الانتصار على المكابرين في مكة وتطهير الجزيرة

العربية من الانصاب والاصنام .

(٤)

لاحظ جرجي زيدان (التمدن الاسلامي ج١ ص ٢٢) : « ان العرب على اختلاف القبائل والبطون قلما نبغ فيهم شاعر او خطيب او حكيم او كاهن الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . » وعلق على ذلك بقوله : « ولا يعترض بضياع اخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ . فقد حفظوا اخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة . فلو نبغ منهم في القرون الاخيرة قبل الاسلام شاعر او خطيب لما ضاع ذكره ضياعا تاما » .

ولعل زيدان اراد بهذا القول اواسط الجزيرة العربية فقط وان اطلق الكلام . ذلك لان العرب الآخرين في اليمن وفي الشام كانت لهم آداب تتناسب مع حضاراتهم الا انها تضاءلت في عهد الجاهلية نتيجة للتطورات السياسية ، ولم تصل الينا اخبارهم لأن مؤرخي العرب لم يعنوا الا بلغة مضر ، لغة القرآن ، التي كانت لغة اواسط الجزيرة وشمالها وهل من المعقول ان تكون اليمن التي اشتهرت بحضارتها في عهد الدولتين السبئية والمعينية محرومة من نوابغ الادباء والحكماء امثال الذين لا نزال نتحدث عنهم في عصر الجاهلية ؟ ويرد هذا التساؤل ايضا عن البتراء وتدمر وسيناء وغيرها من البلاد التي ساهمت في الحضارة باوفى نصيب ، وكانت لغتها عربية وان استعمل بعضها حروفاً اخرى غير الحروف التي كُتب بها القرآن الكريم .

ومع ذلك فانا لانجاري زيدان الا بتحفظ في قوله : « قلما نبغ فيهم شاعر او خطيب او حكيم او كاهن الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . » لا نجاريه في ذلك حتى ولو حصر الكلام بالعدنانيين ، وانما نميل الى الاعتقاد ان الاخبار السابقة للقرن المذكور تنوسيت لبعد عهدها عن صدر الاسلام ، ذلك

لان عرب الجاهلية كانوا لا يعنـون كثيرا بـالتـدويـن، وانما يعتمـدون على الذاكرة.

على ان اللغة العربية التي نطق بها نوابغ شعراء وخطباء وحكماء القرن الاول قبل الهجرة، هذه اللغة نفسها تدل على انها وليدة عصور. فما فيها من انواع التشابيه والاستعارات والكنايات ووفرة الاسماء للمسميات، بالاضافة الى رقة الفاظها، وسلامة تعابيرها، ادلة ناصعة على انها لغة هذبتها العصور. وقد احسن الدكاترة حتي وجرجي وجبور الوصف في قولهم (تاريخ العرب ج١ ص ١٢٩). «**وكأن قصائد الجاهلية باقة من الازهار الأرجة القيت الينا من فوق جدار عظيم الارتفاع لا يدري الرائي ما خلفه من ايات ومشاهد. الا ان هذه الباقة تكفي للدلالة على وجود روضة زاهية.**» واذا كان لا بد من التنويه ببعض نوابغ الشعراء الذين ظهروا قبل ذلك القرن الذي حدّده زيدان فحسبنا التنويه بالمهلهل بطل تغلب في حرب البسوس المتوفي حوالي سنة ٥٣٠ م. وامرىء القيس الكندي امير الشعر القديم المتوفي في عام ٥٤٠ م.

اما ما استند اليه مؤرخنا الكبير في صدد حفظ عرب الجاهلية انباء عاد وثمود، وصالح وهود مما يستلزم حفظ انباء غيرهم فجوابنا عليه ان انباء هؤلاء انما وصلت الى العرب من اليهود، وما هو مدوّن منها في التوراة لا ينسى ما بقي العهد القديم.

ونحن على كل حال لا نود التوسع في استعراض احوال العرب الأدبية في فترة الجاهلية، لان المؤرخين، ولا سيما المعاصرين الذين عنوا بوضع الكتب المدرسية، اصدروا مئات من الكتب الحافلة بتراجم ادباء وحكماء ذلك العهد. غير ان من المفيد الاشارة الى انه كما كان للفروسية عند العرب المرتبة الاولى لأنها كانت عدتهم في الزود عن حياضهم، وفي طلب معاشهم والتماس زعامتهم،

فقد كان للشعر عندهم مكانة تضارع منزلة الفروسية . ذلك بان الشعراء كانوا في الحرب الباردة كالفرسان في حومة الوغى، يدافعون عن قبائلهم، ويذيعون مفاخرها، ويحملون حملات شعواء على خصومها وينشرون مساوئهم. واذا اتيح لواحد منهم ان يجمع بين الفروسية وممتاز الشعراء كعنترة العبسي (نحو ٥٢٥ - ٦١٥) اعتبر عندهم صاحب السيفين، واضحى زعيما لا يضيره سواد وجهه، ولا يشينه انه ابن ذبيبة الجارية.

وكان الشعر عندهم على شتى الانواع . فمنه القصيد والرجز والاغاني . ومنه ما ينشد في القتال على نقر الدفوف، وما يستعمل لحدي العيس او للرقص. وتنوعوا فيه حتى لم يغفلوا عن نظم الشعر الذي يستعان به على تنويم الاطفال.

ومثلما كانوا يقيمون ايام المواسم وفي غيرها ميادين للفروسية والالعاب الرياضية على ظهور الصافنات الجياد، فقد كانوا يحيون للشعر اسواقاً ادبية في الاشهر الحرم حول مكة. فكانت العرب اذا ارادت الحج تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تنتقل الى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما . ثم تجيء الى سوق ذي المجاز فتقيم فيه ايام الحج. واذا اجتمعوا ضربوا قبة لاكبر الشعراء كالنابغة الذبياني . وجاءه شعراء القبائل يتنافسون فيما اوحي الى كل منهم من المنظوم، فيحكم بينهم. واذا تفرقوا كان لكل شاعر رواة يروون قصائده . وسرعان ما تنتشر في بلاد العرب من اقصاها الى ادناها مثلما تنتشر الآن بالاذاعات في سائر العالم اقوال الرؤساء المعاصرين اصحاب الشأن كجمال عبد الناصر وكنيدي وخروشوف منذ صدورها عنهم.

وحسبنا في هذا البحث الاشارة الى اصحاب المعلقات السبع (١) امرىء القيس (٢) طرفة بن العبد (٣) عمرو بن كلثوم (٤) الحرث بن حلزة

اليشكري (٥) زهير بن ابي سلمى (٦) عنترة بن شداد العبسي (٧) لبيد بن ربيعة العامري.

فقد بلغ من اعجاب العرب بهذه المعلقات ان رفعوها على استار الكعبة الى جانب اصنامهم. وبلغ من اهتمام الغربيين بها انهم ترجموها حديثا الى بعض لغاتهم. على انّا لا نغفل في هذه المناسبة عن التنويه بشعراء آخرين كالنابغة الذبياني، ودريد بن الصمة، والشنفري الأزدي، والأعشى الاكبر.

واما النثر فلم يبرز كفاية في الادب الجاهلي لأن الشعر طغى عليه. ومع ذلك فقد وجد سبيلا له في كلام الخطباء من امثال قس بن ساعدة، وفي سجع الكهان.

والى جانب الفرسان والشعراء كانت تساهم فئة اخرى في الاحترام قوامها الكهنة والعرافون الذين كانوا يمثلون الطبقة الروحية. ومن مشاهير الكهنة شق، وسطيح، وحنظلة بن صفوان كاهن حمير، وخالد بن سنان العبسي، وامية بن ابي الصلت الثقفي، وقس بن ساعدة الذي تنصر، بعد ذلك، واصبح كاهنا في نجران.

وقيل ان ابنة خالد بن سنان ما ان سمعت قراءة سورة الاخلاص من القرآن: ﴿قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا احد.﴾ ما ان سمعت هذه السورة حتى قالت: «كان ابي يقرأ مثل هذا».

واما العرافون فاشهرهم رباح بن عجلة عراف اليامة، والابلق الازدي عراف نجد.

وكان عند العرب وقتئذ طبقة اخرى تحظى بالاحترام ايضا هي طبقة اهل العلم: الاطباء والفلكيون وعلماء الانساب، (وهم من قبيل المؤرخين) وعلماء آخرون في تعبير الرؤيا. وكان ابو بكر وعقيل بن ابي طالب من البارزين في

هذين العلمين. وكان الرقيّ من العين يعتبر فرعا من الطب. وعلى رواية السيرة الحلبية (ص ٢٥٢) فان محمدا ﷺ كان قبل البعثة يرقي من العين.

فهذا الازدهار الأدبي الذي اتسمت به فترة الجاهلية كان له تجاوب مع انتفاضتها الفكرية التي تتشوق للاصلاح الديني. وكان لهذا التجاوب بينهما مفعول كبير في تحقيق الانقلاب. ومثلما جاء موسى بعصاه السحرية خلال رواج السحر في مصر وغيرها فاذا هي حية تسعى تلقف ما صنعوا فان محمداً ﷺ. أنزل عليه القرآن في غضون ما كان قـومـه مـأخـوذيـن بسحـر البيان، لم يلبث الا قليلا حتى احلّ القرآن محل المعلقات في الكعبة، وصرفهم عن الحياة الشعرية الخيالية الى حياة العمل المجدي الذي ادى للانتصار.

(٥) استشراء فساد الاخلاق في الجاهلية، والتطلع الى الاصلاح

لما انتزعت مكة من ثغري ظفار وعدن ومدينة صنعاء زمام الوساطة التجارية بين العالم زخرت فيها، وفيما حولها من بلاد الحجاز، الثروات وازدهرت حياتها الاجتماعية اي ازدهار. فشيد اثرياؤها القصور واقتنوا الجواري الحسان، والعبيد والغلمان، وانصرفوا الى اللهو والفسق، وغالوا في التبرج شأن كل من يدرك نصيبا وافرا من الثراء. وقد تهتكوا في المعاصي الى حد انهم كانوا يعقدون مجالس الشراب حول الكعبة على مقربة من آلهتهم، ولا يتسترون في ارتكاب الموبقات.

والى ذلك فقد كان هؤلاء الممولون يستعبدون الفقراء، ويفرضون على المحتاجين الربا اضعافا مضاعفة، ثم لا يرحمون أهل العسر حتى كان الدائن قد يضطر المدين الى اكراه امائه على البغاء للحصول على المال، وهذا أمر يكاد لا يصدق لولا ان اشار اليه القرآن الكريم في معرض النهي: ﴿وَلَا

﴿ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ﴾
(سورة النور)

وقد وصف القرآن استشراء الفساد بينهم في آيات متعددة:

• ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا . ﴾ (سورة البقرة) اشارة الى اعتبارهم الربا تجارة محللة.

• ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (سورة المطففين) اشارة الى غشهم وسرقتهم.

وفضلا عن ذلك فان حكمة القرآن في استعمال الألفاظ التجارية في مخاطبتهم احيانا كان مردها الى انصرافهم بكليتهم الى الكسب عن كل شيء آخر، حتى كانت التجارة مدار حديثهم.

• ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ ﴾ (سورة الصف)

وفي الحديث: «حاسبوا انفسكم قبل ان تُحاسبوا، وزنوا اعمالكم قبل ان توزنوا».

كل هذا حمل اللورد هدلي على ان يصفهم بقوله: «لقد كانت الفضيلة عندهم مفقودة، والزنا منتشرا، حتى لم يتورع بعضهم عن التنويه به شعرا. وكانوا يرثون زوجة الاب في جملة ما يرثون، ويتزوج الاخ اخته وزوجة ابيه، ويأتون المنكرات ويعاقرون الخمرة بادمان، ويقامرون بلا مبالاة، ويتاجرون بالقيان، ويعتقدون بالطلاسم.»

واستشهد اللورد هدلي على قساوتهم بهند زوج ابي سفيان «اذ بلغ من حقدها انها أكلت قلب حمزة عم محمد ﷺ حينما سقط قتيلا في معركة احد» وعلق على ذلك بقوله: «ان بعض النساء كن يتقلدن عقودا نظمت من قلوب الاعداء، وان منهن من كن يصبغن اثوابهن بدماء القتلى.»

هكذا كانت احوال اهل مكة الاخلاقية، قبيل الاسلام، ومكة كانت قاعدة الوثنية، ومحط انظار العرب وقدوتهم. وهي احوال مذرية لم يكن من الطبيعي ان يقبل بها المحرومون وهم سواد الشعب الذين كانوا عرضة للاستثمار وللاستعباد، ولم يكن من المعقول ان يرضى بها الاخيار من اولي الالباب. فانبرى نفر من هؤلاء، ولا سيما من الاسرة الهاشمية، للدعوة الى الاصلاح، وللنهي بصورة خاصة عن البغي والظلم. ويؤثر عن عبد المطلب جد النبي قوله: «لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يُنتقم منه» الى ان هلك رجل من الشام وهو ظلوم، ولم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك فقال: «والله ان وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب المسيء باساءته. وذلك شأن الظلوم في الدنيا اذا خرج منها ولم تصبه عقوبة فهي معدة له في الآخرة.»

وروى سبط بن الجوزي: «ان لعبد المطلب سننا جاء باكثرها القرآن وجاءت السنة بها، منها الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن وأد البنات، وتحريم الخمر والزنا، وان لا يطوف بالبيت عريان.» وتقول السيرة الحلبية: «ان عبد المطلب رفض في اخر عمره عبادة الاصنام.» ثم كان ابو طالب عم النبي صنو ابيه في الحض على مكارم الاخلاق، والدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر.

«وقد شعرت قريش بعد حرب الفجار (التي وقعت بينهم وبين هوازن) بان ما اصابها، وما اصاب مكة جميعا بعد موت هاشم وموت عبد المطلب من تفرق الكلمة، وحرص كل فريق على ان يكون صاحب الامر، قد اطمع فيها العرب بعد ان كانت امنع من ان يطمع فيها طامع. اذ ذاك دعا الزبير بن عبد المطلب، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان. فصنع لهم طعاما فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم لنكونن مع المظلوم حتى يؤدّى اليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفة. وقد حضر محمد ﷺ (قبل النبوة) هذا

الحلف الذي سمته العرب حلف الفضول، وكان يقول: «ما احب ان لي بحلف حضرتُه في دار ابن جُدعان حُمر النّعم، ولو دعيت به لاجبت.» (حسين هيكل: حياة محمد ص ١١٥).

غير ان احوال مكة الاخلاقية والجماعية كانت، في الواقع، تحتاج الى معالجة اخرى غير النصح والارشاد المجردين، وغير الاحلاف التي كانت حبرا على ورق. كانت تحتاج الى رجل آخر غير اولئك المصلحين، وتطلع الى رجل يستمد نفوذه من دين يقرر الثواب والعقاب. ذلك لأن القوم وسائر العرب لم يكن لهم زاجر من انفسهم، ولم يكونوا على استعداد للتأثر بدعاة الاصلاح. فاذا بمحمد ﷺ، سليل تلك الاسرة التي اضطلعت تباعا بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يظهر حاملا تلك الرسالة الدينية المنشودة، فيلتف حوله خيارهم الذين كانوا يتذمرون من سوء الحال، ويؤمنون برسالته، ويعاونونه على نشر الاسلام. ويقبل على محمد ﷺ سواد الشعب المظلوم اقبالاً عظيما، ويدخلون في دينه افواجا افواجا ذلك الدين الذي يحررهم في الدنيا، ويعدهم بنعيم الآخرة. واما المكابرون الذين ما كان الارشاد ولا الحجة يجديان نفعاً عندهم، فقد خاطبهم محمد ﷺ، من بعد، باللسان الـذي يفهمون: خاطبهم بحد السيف، فاذا بهم يهتدون، واذا بهم ينزلون عن اراثك أرستوقراطيتهم الى صفوف الذين استعبدوهم في الأمس، ويمشون معهم في موكب الديموقراطية كتفاً لكتف، وعلى قدم المساواة، شعارهم جميعاً «ان اكرمكم عند الله اتقاكم».

الفصل الرابع

العناصر السياسية والدينية والقومية والاقتصادية
التي وفرت الاسباب لنجاح الاسلام

كان لأحوال العالم السياسية والاجتماعية اثر كبير، ليس في توفير الاسباب لظهور الاسلام فحسب، وانما في تمهيد السبل لنجاحه. ذلك بان العالم وان كان يبدو مجزءاً جغرافياً، ومستقلا سياسياً بعضه عن بعض، الا انه، في الواقع، يتأثر بحاضره، كما يتأثر بماضيه. ولما كان نجاح الاسلام، او فوز محمد ﷺ بدعوته، يعود لأسباب سياسية، واجتماعية. خارجية وداخلية، منها ما يتصل بالماضي، ومنها ما يرجع الى العهد المعاصر. فاذا ليطيب لنا استعراض هذه الاسباب في هذا الفصل بعد ان استعرضنا العناصر التي وفرت الاسباب لظهوره.

في الناحية الخارجية ـ الروم والفرس والغسانيون واللخميون.

كان يسيطر على العالم، من اواسط آسيا حتى المحيط الاطلسي، قبل ولادة محمد ﷺ دولتان عظيمتان: دولة فارس والامبراطورية البيزنطية. وكان الاكاسرة والأباطرة قد اشتبكوا في صراع مستمر دائم بغية الغلبة، وبسط السيادة على العالم. واتفق ان آل عرشا الدولتين، في وقت متقارب، الى اسرتين شهيرتين: آل ساسان بفارس، وآل يوستنيانوس في الامبراطورية البيزنطية. وصادف ايضا ان تبوأ عرش كل منها عاهل عظيم

الشأن: كسرى انوشروان، والامبراطور يوستنيانوس، ثم خلفهما ملكان كانا ايضا من اعظم ملوك الاسرتين: خسرويه الثاني، وهرقل الاول.

وقد ولد محمد ﷺ في اواخر حكم كسرى اني شروان، وبعد اربعة اعوام، او خمسة، من وفاة يوستنيانوس، وعاصر خسرويه الثاني وهرقل الاول. وما كان ليخطر ببال احد، مهما كان متهوساً، ان ذلك اليتيم الأمي الذي كان وقتئذ يرعى انعام اهله بمكة سينشىء سلطة تدين لها جزيرة العرب بأسرها، ثم لا تلبث الا قليلا حتى تدرك عرش الاكاسرة وتبسط يدها على بلادهم، وتقلّص ملك القياصرة، ثم تمضي الى قسطنطينية عاصمتهم وتحاصرهم مرات كثيرة.

ـ فماذا حدث في العالم حتى تمّ هذا الانقلاب الفجائي في وقت قصير؟

ـ ان الحروب التي استمرت ناشبة طوال عشرات السنين بين الفرس والبيزنطيين، واشتد اوارها في عهد محمد ﷺ قد افضت الى ما يشبه انحلال الدولتين، وافضت بالتالي الى ان كل واحدة منهما كانت ما تكاد تنتهي من حرب حتى تمسي مهددة بحرب جديدة، فكانت استعدادا للقتال لا تكتفي بتجنيد شعوبها، واعداد العدد للانتصار، بل تعمد في سبيل تحقيق ذلك الى مصادرة الاموال، والى استعمال العنف ضد المتذمرين. فكان من عواقب كل ذلك ان الشعوب الكثيرة التي كانت تخضع بالقوة لهاتين الدولتين، ولا سيما اولئك الذين كانوا مضطهدين لانهم لا يدينون بدينها، ولا يتمذهبون بمذهبها، هذه الشعوب اصبحت تتربص بالدولتين الدوائر، وتضمر الملل والضجر من الحروب، وعدم الاستقرار.

وقد عرض حادث في عهد محمد ﷺ كان بالغ الاثر في الامبراطورية البيزنطية. ذلك بأن الفرس، الذين شنوا حربا شعواء منذ ٦١٠ م على

البيزنطيين، استطاعوا بعد قرابة ثلاث سنين ان يتقدموا ظافرين الى الشام، وان يمضوا، من ثم، في زحفهم شطر مصر وشمالي افريقية، وينتزعوا هذه البلاد من البيزنطيين.

وهذا حادث عادي بالنسبة للدول، ولطالما انتصرت واحدة منها على الاخرى. بيد ان المهم في هذا الحادث، الذي كان له دوي الصاعقة، هو انتزاع الفرس، حين احتلالهم فلسطين، الصليب المقدس عند النصارى الذي صلب عليه المسيح على اعتقادهم. ونحن نترك لدرابر وصف ما كان لهذا الامر من التأثير على المسيحيين. قال:[1]

« لا نستطيع الآن ان نتصور تأثير ذلك الحدث القاسي على اتقياء ذلك العصر. ان الخشبة المقدسة، التي كان صيتها يملأ العالم رهبة تجاسر على سلبها المنتصرون، وتجرؤوا على تحقيرها. وكان من عواقب ذلك انها تعرّت من السلطة التي كانت تتحلى بها، وتبخّرت بالتالي كل ثقة كانت موضوعة في الاكليروس الآسيوي. ذلك بأن احدا منهم لم يأت بمعجزة تحول دون سلبها... ان فريقا من الاتقياء كانوا يتوقعون انشقاق الارض، وابتلاع الكفر الذي تجاسر على التعرض للامكنة المقدسة. ولما لم يقع شيء من ذلك استولى عليهم اليأس، وتسربت الى نفوسهم الريب، وساورتهم الشكوك فيما كانوا يؤمنون.» وخلص درابر من هذا الى القول: «ولقد ضاعت، من جراء ذلك، آسيا وافريقية.» ويعني بقوله الامصار التي كانت تابعة للامبراطورية البيزنطية.

والواقع ان هذه الامصار لم تضع بسبب حادث واحد، وانما ضاعت بسبب تفاقم امر الجدل البيزنطي بين المذاهب، وما رافقه من فتن، وذلك بالاضافة الى كوارث الحروب المستمرة. فقد حفلت الامصار المسيحية

(١) J. W. Draper, Histoire du Developpement Inieliectuel de L'Europe T 11. P. 94.

التابعة للبيزنطيين في اوروبا وآسيا وافريقية بمذاهب كثيرة مختلفة النزعات من آريوسية ونسطورية واوتيشية ويعقوبية وغيرها . واشتبكت هذه الفرق بمشاحنات ومجادلات صرفتها وصرفت معها الدولة عن كل ما سواها . وكان مدار هذه المناظرات الله ، وعيسى ، ومريم ، والمشيئة والمشيئتين ، والطبيعة والطبيعتين ، والتوحيد والتثليث . وكانت هذه المناظرات لا تقتصر على الكلام ، والاقناع بالمنطق ، وانما تتعداها الى الخصام والقتال . وقد وصف احد رهبان الكنيسة تلك الحالة بقوله :

« كانت أطراف البلد ملأى بالجدل ، سواء اكان ذلك في الاسواق او غيرها : فعند باعة الملابس ، ولدى صيارفة النقود وباعة الاطعمة يصطدم الانسان بهذا الجدل . فانت تريد ان تبدل قطعة من الذهب ، فاذا بك في جدل عما خلق ولم يخلق ، وانت تريد ان تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : « الاب اعظم من الابن ، والابن خاضع له . » وانت تسأل عن حمامك ، وهل ماؤه ساخن ؟ فيجيبك غلامك : « لقد خلق الابن من العدم . »

وكانت الدولة تتدخل لتفرض مذهبها بالقوة على الآخرين ، فاذا بالحرية تفقد ، واذا بالمظلومين من الملل الأخرى والمذاهب ، ولا سيما في الشام ومصر ، يصبحون اعداء للدولة ، وعملاء للاجانب اسوة باليهود مواطنيهم . وكلهم ينتظر المنقذ .

وقد وصف اللورد هدلي الامبراطورية البيزنطية وكنيستها في ذلك الحين بقوله : « انهما كانتا على اسوأ حال : اضطرب الامن ، وانتشرت الخزعبلات انتشار الفساد والرذائل بين طبقات رجال الكنيسة وسواد الشعب . »

وفي غضون هذه الاحوال المتردية التي احاقت بدولة الروم اعلن محمد ﷺ دعوته بمكة فرحبت بها المسيحية عموما ، للاعتبارات التي سنأتي على

اسبابها، ولا سيا فرقها الموحدة. ولكن الروم لم يلبثوا الا قليلا حتى ادركوا خطر محمد ﷺ حينا تعرض لاقاليمهم المجاورة لشبه جزيرة العرب. بيد ان احوالهم الداخلية بالاضافة الى انصراف افكارهم الى مجابهة الفرس عن كل شيء آخر، حولت انظارهم عنه، فاذا به يمهد في حياته السبل لفتح بلادهم.

وقد كان في عداد الاسباب التي وفرت لمحمد ﷺ، ولخلفائه من بعده التقدم في بلاد الشام ذلك الانقسام الذي وقع عند ظهور الاسلام بين آل غسان. ان ملوك آل غسان كانوا حماة الروم تجاه الفرس، وكانوا لهم بمثابة الجبهة الحربية حيال العرب، ولكنهم كانوا قد فقدوا وحدتهم، واضاعوا شوكتهم في اعقاب دخول كسرى برويز الشام منتصرا على الروم (٦١٣ - ٦١٤ م) فتضعضعت بانقسامهم هذه الجبهة. وكان جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم، قد شارك الروم في قتال المسلمين في وقعة اليرموك. ثم لم يسعه الا ان يعلن اسلامه في خلافة عمر بن الخطاب؛ وقدم الى مكة حاجا. ويروي ابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١) انه بينا كان يطوف وطىء اعرابي ازاره فلطمه. فبعث اليه عمر ان يرضي الأعرابي. ولكنه استكبر ذلك وما ان امتد جنح الليل حتى خرج فارا هو واصحابه الى القسطنطينية.

واما الفرس فلم يكونوا عند ظهور الاسلام احسن حالا من الروم. كانوا في الناحية السياسية على اسوأ حال: كرت عليهم الامبراطورية البيزنطية واستردت منهم الشام وغيرها من البلاد، وظلت تطاردهم حتى بلغت عاصمتهم. وكانوا في الناحية الاجتماعية قد منوا بمثل ما منيت به الامبراطورية البيزنطية من الانقسام الديني، والتنازع بين الفرق، وشهدوا فتناً تأخذ برقاب بعضها البعض نتيجة لتلك المناظرات المذهبية. وزاد في

الطين بلة انتشار مذهبي ماني ومزدك الأباحيين في البلاد الفارسية، وما رافقها من تردي الاخلاق، وانتشار الفسق والفجور. فاذا بشعوب فارس التي انهكتها الحروب، والتي حطمتها الموبقات تتلفت، يمنة ويسرة، تلتمس انقاذها من تلك الفوضى العامة. اما الدولة فانها كانت، في اول الأمر لا تعبأ بمحمد ﷺ ذلك لانهم كانوا بالاضافة الى غرورهم يتكلون على حلفائهم القرشيين اسياد مكة معتقدين ان لهؤلاء من الحول والطول ما يغنيهم عن التفكير في امره. ولكن لما عظم شأنه في المدينة كانوا قد امسوا على حال لم يعد يسمح لهم في التفكير بما هو خارج عن نطاق بلادهم. فلقد كان الانحدار الذي منوا به عظيما الى حد ان الروم اعداءهم بلغوا نينوى عاصمتهم سنة ٦٢٧ م، وكان هذا الانكسار العظيم من شأنه ان يشغلهم مدة طويلة عن كل شيء آخر يقع في جزيرة العرب.

وكان من حسن طالع الاسلام ما اصاب الاسرة اللخمية العربية في الحيرة من الانحلال، وهي التي كانت للفرس اجناداً ضد اعدائهم، وجبهم لهم حيال سائر العرب. ففي حياة محمد ﷺ، وعلى عهد النعمان الثالث (٥٧٠ - ٦٠٢) اضاعت هذه الاسرة الملك، فأصبحت بذلك العراق الفارسية وما بعدها مكشوفين حيال الفاتحين العرب.

ولما تم للعرب احتلال بلاد كسرى والشرق الادنى من بلاد قيصر اسدل الستار على تلك المأساة القديمة التي هلك فيها الوف مؤلفة من الناس، واعني بها مأساة الصراع بين كسرى وقيصر. ودخل الشرق في عهد جديد، عهد التعاون لاقامة مدنية زاهرة، مدنية وصلت بين ما سبقتها من مدنيات وبين ما خلفها، فكانت حلقة ممتازة في سلسلة حضارات العالم.

في الناحية الروحية ـ الصراع بين النصرانية واليهودية

عندما هاجر اليهود من فلسطين وسائر بلاد الشام الى جزيرة العرب استقر اكثرهم في يثرب وفي بعض مدن شمالي الحجاز وقراه التي كانت بمثابة محطات تجارية. ثم تقدموا الى اليمن وانتشروا فيها. وزاولوا في كل مكان الاعمال التجارية والمصرفية والزراعية والصناعية فأثروا، واصبحوا حيث كانوا اصحاب مكانة اجتماعية. ذلك بانهم كانوا في ارض اسماعيل ابن ابراهيم كأنهم في ارض اسحاق اخيه، غير غرباء عن الوطن، وغير غرباء عن اللغة والعادات. وكانوا يبشرون بدينهم صراحة في تلك البلاد التي ألفت الحرية، فتهودت بعض قبائل العرب، وبعض ملوك حمير.

وكانت المسيحية تراقب سير اليهودية في البلاد العربية، فاذا بالامبراطورية البيزنطية وحليفتها الحبشة ترسلان بعثات تبشيرية الى شبه الجزيرة، ولا سيما الى اليمن. وتوفدان البعثات الدينية والبعثات التجارية للاسواق الادبية والتجارية التي كانت تعقد حول مكة في موسم الحج. وقد كان لمبشريها نصيب من النجاح اذ تنصرت بعض القبائل العربية.

وكان من نتيجة ذلك ان الصراع القديم بين اليهودية والمسيحية انتقل الى جزيرة العرب. غير انه لم يبق فيها صراعا دينيا صرفا، وانما اصطبغ بلون سياسي. كان النصارى هناك يتوجهون بقلوبهم الى قسطنطينية واديس ابابا، ويتمتعون بحمايتها. وقد احرزت اليهودية الانتصار في اليمن حينما تهود ذو نواس آخر ملوك حمير، وتعصب لها، وذلك قبل نحو سبعين سنة من مولد محمد ﷺ. وقد حفر اخدوداً في نجران، التي كانت قاعدة المسيحية باليمن، وملأه ناراً، وعرض النصارى، ومن لم يرتدّ منهم عن دينه القاه في الاخدود يحترق. على ان بعض المستشرقين ذهبوا الى ان عمله

هذا لم يكن الدافع اليه التعصب الديني، وانما كان مرده الى الانتقام من المسيحيين الذين كانوا عيونا لفارس على حمير. واني اعتقد ان هذا العمل قد يكون عائداً للامرين معاً: التعصب الديني ومعاقبة المسيحيين، اذ لا شيء يمنع الجمع بين هذين السببين.

ومهما يكن السبب فان هذا العمل افضى الى تدخل الحبشة، بايعاز من قسطنطينية، والى احتلالها اليمن وانتشار المسيحية فيها، وادى بالتالي الى تطورات كثيرة وقعت في جزيرة العرب مهدت السبل لظهور الاسلام، كما بيناه في فصل سابق.

وخلال هذه الاحداث كانت المناظرة بين النصرانية واليهودية مستمرة. ولم تكن تقتصر على دعوة كل منهما لدينه بالحجة والبرهان، وانما تتعدى هذا المجال الى تناول كل منهما الدين الآخر بالتسفيه والتكذيب بعنف وضراوة.

وكان العرب، خلال ذلك الصراع الجدلي، يصغون الى الفريقين، ويستمعون الى حججها ومهاتراتها فيتأثرون بها ايجابياً وسلبياً في وقت واحد، ويفكرون طويلا فيما يسمعون. يتأثرون ايجابيا ببراهين الفريقين التي قد لا تختلف من حيث الدعوة الى عبادة الله، وتسفيه الوثنية فتساورهم الشكوك فيما يعبدون حتى لقد كان شائعا يومئذ عند الكثير من القبائل ان لله دينا غير دينهم الذي هم عليه. ويتأثرون سلبيا اذ يسمعون النصارى واليهود يكذب كل منهما دين الآخر، ويلصق به النقائص، فيتساءلون ايهما الدين الصحيح؟ ويتساءلون اين هو الدين الصحيح؟

وهم في حيرتهم هذه، وفي ريبتهم من صحة الوثنية ظهر محمد ﷺ معلنا انه جاء مصدقاً لموسى وعيسى على السواء، ولسائر الرسل والنبيين،

وداعياً الى ترك الوثنية. فالذين كانوا اقرب لتصديق اليهودية وجدوا في الدين الجديد تعظيا لموسى ولسائر انبياء اسرائيل، ووجدوا في القرآن نتفاً كثيرة من اخبارهم التي جاءت في التوراة، والذين كانوا اقرب الى تصديق المسيحية وجدوا في دين محمد تعظيا وافرا لعيسى، وتقديساً جماً له ولأمه وتقديراً لحواريه. فرأى الفريقان في هذا الدين الحل الوسط فيا اختلفت عليه المسيحية واليهودية، ورأوا فيه زيادة عن ذلك، ما كانت تصبو نفوسهم اليه من الجنوح الى التدين بغير الوثنية. فاذا بهم يجدون فيه منفذاً من حيرتهم، واذا بهم يقبلون عليه مسلمين.

وهكذا كان الصراع بين المسيحية واليهودية في عداد العناصر التي وفرت الاسباب لانتشار دعوة محمد ﷺ في جزيرة العرب.

- في الناحية الداخلية - العناصر السياسية والاقتصادية والاجتاعية في الأوساط العربية

تضافرت عناصر متعددة في شبه جزيرة العرب، على تمهيد السبل للدعوة الاسلامية. كان بعضها متقدماً عن عهد النبي، وبعضها يرجع الى عصره. وهي ذات ألوان مختلفة: فمنها السياسي ومنها الديني، ومنها الاقتصادي، ومنها الاجتاعي الذي يرجع الى التقاليد العشائرية التي كانت مرعية عند العرب. وهذا ما سنتحدث عنه في هذا المقال:

(١) العناصر السياسية في جزيرة العرب والاقتصادية.

• كان للعرب دول مستقلة أهمها آل غسان في الشام، ولخم في الحيرة، وكندة في حضر موت وفي غيرها، وحمير في اليمن. وأما عدنان قوم محمد ﷺ في الحجاز ونجد وتهامة فكانوا على الأكثر خاضعين لدولة حمير. بينا كان

فريق منهم ينتمي لغسان، في الشام، وفريق آخر يتبع اللخميين في الحيرة. وكان الخصام المستمر بين القبائل في شبه الجزيرة يزيد كلا منها رغبة في الانتساب الى الدول العربية القائمة.

ولما اشتبكت حمير بالحروب مع الحبشة وفقدت هيبتها تراءى للعدنانيين الامساك عن دفع الأتاوة لها. فأدى ذلك الى حدوث عدة وقائع بينهم وبينها. حتى اذا جمع كليب أمير وائل معداً تحت لوائه، أي ربيعة وقضاعة ومضر واياد ونزار، انتصر على اليمنيين في يوم خزار، وحرر العدنانيين من سلطة حمير، وأبطل الأتاوة التي كانت لهم وسمي ملكاً للعرب.

غير أن العدنانيين لم يكونوا على هوى واحد، بل فسرعان ما تنازعوا وأضاعوا استقلالهم. ولما دخلت اليمن في حكم الحبشة عادوا للانتماء الى أصحاب القوة المجاورين لهم: فمنهم من دخل في رعاية كندة، ومنهم من دان لغسان، ومنهم من خضع للخم. وكانوا كلهم على البداوة الآ سكان مكة ويثرب والطائف وسواها من الثغور.

أما مكة فكانت شبه جمهورية مستقلة ذات صبغة ارستوقراطية دينية. وكان الحكم فيها لقريش، وهو يقوم على أساس انتخاب عشرة رجال منهم يحكمون باسمها ويتولون مناصب الكعبة (كارليل ـ الأبطال ص ٥٦). والكعبة كانت عند العرب مثل البانتيون عند الرومان بيتاً مقدساً لأصنام القبائل. وأما مناصبها فكانت الحجابة والسقاية واللواء والرفادة. فلما تولى قصيّ بن كلاب شؤون الكعبة استقل بهذه المناصب كلها، بيد انه لما كبر انتدب ابنه الأكبر عبد الدار للولاية عليها. ثم اصطلح أولاد عبد الدار مع أبناء عمومتهم بني عبد مناف على أن يعطوهم السقاية والرفادة، ويحتفظوا لأنفسهم بالحجابة واللواء.

وقد وقعت في فترة الجاهلية أحداث أكدت قدسية الكعبة، ورفعت شأن قريش حتى أحلّتهم في نظر العرب محل ملوك حمير. ذلك بأن الصراع بين اليهودية والنصرانية كان قد أفضى، في أعقاب مأساة الأخدود بنجران سنة ٥٢٣، الى احتلال الحبشة اليمن، فنفض العرب أيديهم من حمير، أولئك الملوك الذين لم يكن ينازعهم منازع بين العرب على السيادة، وولوا وجوههم شطر أسياد مكة: سدنة البيت العتيق، فتحولت بذلك الزعامة السياسية عن صنعاء الى مكة صاحبة الزعامة الروحية. ثم تحررت اليمن من الأحباش سنة ٥٧٥ م، أي قبل نحو أربع سنين من مولد محمد ﷺ، ولكنها لم تلبث الا قليلا حتى صارت ايالة لفارس التي ساعدت على تحريرها. وفارس كانت عدوة كل من الحبشة والامبراطورية البيزنطية، فأغلقتا أبواب مرافقها التجارية في وجه اليمن. فسنحت الفرصة لقريش لأن يجمعوا بين الزعامتين الروحية والسياسية من جهة، وبين الزعامة التجارية من جهة أخرى. ذلك لأنهم كانوا على شبه حياد بين الدول المعاصرة فاستطاعوا أن يقوموا بدور الوساطة التجارية بينها مكان اليمن، فكان ذلك، بالاضافة الى أسواقهم التجارية التي كانوا يقيمونها كل عام حول مكة خلال الأشهر الحرم، وسيلة لازدهار الحجاز، ولا سيا مكة. وكانت هذه الأسواق أشبه شيء بمعارض هذا العصر، تشترك فيها الدول، كما يشترك فيها التجار من كل قطر، يعرضون فيها أنواع السلع، ويبيعون ويشترون، وينقلون الى بلادهم مطاليبها من انتاجات الأقطار الأخرى، ومن محصولات ومصنوعات البلاد العربية.

هذا بالاضافة الى رحلتين تقليديتين كانتا لأهل مكة كل عام قديمتي العهد: رحلة الشتاء الى اليمن، ورحلة الصيف الى الشام، يضطلعون فيهما بنقل بضائع البيزنطيين الى اليمن التي احتلها الفرس، وبنقل سلع اليمن الى الشام التي كان يحتلها البيزنطيون. وهذه البضائع وسواها كانت تصدر من كل من

اليمن والشام الى ما وراءهما من الأقطار الشرقية والغربية .

على أن الفوائد التي جنتها مكة والحجاز من الظروف الطارئة لم تقتصر على الماديات فحسب، بل كانت لها منافع أخرى معنوية أهبّتها لانتفاضة جبارة: ذلك بأن اختلاط العدنانيين بالعناصر الأجنبية، بواسطة الاتجار، أفضى الى تفتح أذهانهم، وتنور عقولهم، وتهذيب أخلاقهم وتطريتها . هذا فضلا عن احاطتهم بأنباء التطورات العالمية والتيارات الفكرية .

وقد عـرف هـاشم، الذي كـان يشغـل منصبي السقـايـة والرفـادة بمكـة (٤٦٤ م)، أن يستغل الظروف ويوثق زعامته على سائر العرب في شبه الجزيرة، ويوحي احترامه الى غيرهم من الذين يسكنون في الشام والعراق . وبلغ من علو شأنه انه عقد مع كل من الامبراطورية البيزنطية وأمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة . وحصل من الامبراطور على اذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة . ولما خلفه عبدالمطلب، (٤٩٥ م) بعد ولاية المطلب، عرضت فرصة أخرى وثقت عرى زعامته . كان عبدالمطلب جد النبي، عاقلاً حازماً فأفاد من فشل أبرهة (ابراهيم) عام الفيل في محاولته هدم الكعبة (٥٧٠ م) واتخذها فرصة كبيرة لاكتساب ثقة العرب ومحبتهم . ولا بدع أن يكون لارتداد عامل الحبشة عن مكة أثر عظيم بينهم . ولا سيما في صدد المزيد من تقديس الكعبة، واجلال بني هاشم حلتها، خصوصاً عندما ذاع في الأوساط العربية حديث الطير الأبابيل، التي كانت ترمي جيش أبرهة بحجارة من سجيل فتجعلهم كعصف مأكول .

وكيف لا يزداد تقديس العرب للكعبة وقد نقل اليهم قول عبدالمطلب لأبرهة «ان للبيت رباً يحميه» وقد حماه ربه؟ وكيف لا يقدسون أيضاً سدنة الكعبة وهم الذين وفّقوا لطرد الأحباش بينما ان أقيال حمير وأذواءها أسياد

العرب لم يستطيعوا سبيلاً من قبل، لدفع هؤلاء عن احتلال وطنهم؟

ويبدو لي أن احتلال الأحباش لليمن كان له وقع آخر في نفوس العرب غير تحول وجوههم شطر أسياد مكة. وأعني بذلك انتفاضة عربية ضد الاحتلال الأجنبي. فالعرب استطاعوا أن يصونوا استقلالهم منذ الطوفان كما قال المستشرق جورج سال الذي علق على ذلك بقوله: «كم من قائد انقض عليهم، ولكنه ارتد خائباً». فلما احتلت الحبشة اليمن ثارت، في الأوساط العربية، العاطفة التي لم يكونوا يتحسسون فيها من قبل، وأعني بها النعرة الوطنية: انهم أوجسوا خيفة من هذا الاحتلال، ثم ازداد خوفهم شدة حينما زحف أبرهة على مكة يريد تهديمها تمهيداً لنشر المسيحية. فهذا الخوف كان حافزاً لهم على الرجوع للوحدة العربية، وللتفكير في التأليف بين أركانها. وآية ذلك ما رواه سديو المؤرخ الافرنسي في هذه المناسبة حيث قال: «ما ان جلا أبرهة عن اليمن بالقوة حتى خف عبدالمطلب، سيد مكة، الى صنعاء ليقدم تهانيه باسم قريش، الى سيف بن ذي يزن محرر اليمن».

ولكن قريشاً لم تلبث الا قليلا حتى منيت بالانقسام، وأضاعت كثيراً من نفوذها خلال حياة محمد ﷺ. ولعل حادث اعادة بناء الكعبة كان مظهراً من مظاهر التفسخ. اذ حدث ان صدع السيل جدران الكعبة فأجمعت قريش على هدمها، واقتسموا جوانبها بحيث أصبحت كل قبيلة من قبائلهم الأربع مسؤولة عن هدم أحد الجوانب وبنائه. حتى اذا بلغوا مرحلة نقل الحجر الأسود تنافسوا على شرف رفعه، وكادوا يقتتلون لولا أن اتفقوا أخيراً على أن يحكّموا بينهم أول قادم من باب الصفا. وكان ذلك القادم الأول محمداً ﷺ. فدعا بثوب وضع الحجر الأسود فيه، ووكل الى شيخ كل قبيلة من هذه القبائل الأربع رفع الثوب حتى اذا بلغ مكانه تقدم محمد ﷺ ورفعه بيده وأقره في موضعه، فتدارك بحكمته وقوع القتال بين القبائل.

ولقد انتهت هذه الأزمة العارضة بسلام، بيد ان القلوب لم تكن على صفاء من جراء ما قام بينهم من التنازع على الزعامة. ذلك بأن بني هاشم قد خسروا الكثير بموت عبدالمطلب الزعيم الذي كان لا يُنافس. وما ان خلفه عبدالمطلب حتى اختل التوازن بينهم وبين بني أمية، وخف هؤلاء الى منازعتهم على الزعامة. فأبو طالب لم يكن يتمتع بمثل ما كان يتمتع به أبوه من قوة الشخصية والثروة. وكان قد خلف أباه على الرفادة والسقاية، فاذا به يتخلى عن الرفادة، وهي ضيافة الحجاج واطعام المساكين منهم، ويكتفي بالسقاية التي لا تحتاج الى كثير من النفقة.

وكان هذا الانحلال الذي أصاب زعامة قريش من حسن طالع الاسلام ذلك لأنه كان مشجعاً للمفكرين منهم على الجهر بآرائهم ضد الوثنية، ومنشطاً لغيرهم الى التفكير بحرية في أمر صحتها. هذا الى انه شجع أيضاً اليهود والنصارى وغيرهم ليس على المزيد من حرية تسفيه عبادة الأوثان فقط، وانما شجعهم كذلك على تعيير العرب بها. فاذا بقدسية الأصنام، وقد هوجمت من كل صوب، تتزعزع في نفوس القوم حيثما كانوا، واذا بأهل مكة يفسحون المجال للشكوك في صحة الوثنية، رغم ان سادتها ظلوا يحرصون على حمايتها حفاظاً على منافعهم الخاصة. واذا بمحمد ﷺ يأتي في الوقت المناسب، ويدعوهم الى ما كانت تدعوهم اليه اليهودية والنصرانية من عبادة إله واحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشورى) واذا به يتلو عليهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (سورة الحج).

وقد أصغى له من أصغى، وقاومه من قاوم؛ ولكن الصراع انتهى أخيراً

بانتصار الحق على الباطل. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الاسراء).

(٢) العناصر الاجتماعية في جزيرة العرب

• أصبحت جزيرة العرب في فجر الاسلام كبركان تغلي في قلبه الحمم وهو على وشك الانفجار من جراء التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها. وكانت قواعد الحجاز، مكة ويثرب، والطائف بمثابة الذروة من هذا البركان.

غير أن قريشاً، التي كانت تمثل الفئة الارستوقراطية في الحجاز، لم يكنْ من مصالحها الاقتصادية والروحية أن تفسح المجال لهذا الانفجار الذي من شأنه أن يطيح بها من عُلٍ الى مستوى الناس، ويحرمها سيادتها، وشيئاً كثيراً من مواردها. فحاولت جهدها أن تقف في وجهه، ولكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح. ذلك بأن المنافع الاقتصادية والاجتماعية ليس بوسعها أن تطمس الحقائق إلاّ الى أجل محدود. فإذا بفريق من أهل مكة وغيرهم، ولا سيما من الفئة التي كانت لا تساهم في هذه المنافع، يسمو بهم الفكر الى ما فوق المادة، ويمهدون السبل لوقوع هذا الانفجار. وكان يشجعهم على الجهر بآرائهم، وعلى تسفيه عبادة الأوثان ما أصاب قريشاً من تصدع الزعامة، وما أصاب الأخلاق الاجتماعية من تردد وفساد. فمنهم من اكتفى باعلان تأففه من عبادة الأوثان، وأبدى رغبة صادقة في التعرف الى الإله الحقيقي، ورغبة أخرى في اصلاح المجتمع كأبي ذر الغفاري ومنهم من كان يمنّي نفسه بأن يكون النبيّ الهادي لهذه الأمة الضالة كأمية بن أبي الصلت.

وفي هذه الظروف المؤاتية انبرى محمد ﷺ لابلاغ رسالته «فكانت ذلك الشهاب السماوي الذي أصاب حطباً يابساً فجعله شعلة من نار» كما قال توماس كارليل. وقد أحسن هذا الكاتب الوصف حيث قال: «وكأنما قد وقعت من

السماء شرارة على تلك الرمال التي ما كان يبصر بها فضل، ولا يرجى منها خير، فإذا هي بارود سريع الانفجار، وما هو برمل ميت، واذا هي قد تأججت واشتعلت ثم اتصلت نارها بين غرناطة ودلهي. ولطالما قلت ان الرجل العظيم مرسل من قوس الله يجيش في صدره العزم، ويغلي في عروقه البأس، الا ذاكم الشهاب».

أما وقد واجهت قريش الخطر على مصيرها وحسبت ألف حساب فقد خفت، بقضها وقضيضها، لاطفاء هذه الشعلة قبل امتدادها، وكان في طليعتها عبدالعزي بن عبدالمطلب عم النبي الذي لقبه القرآن بأبي لهب، والحكم بن هشام الأموي المعروف في الاسلام بأبي جهل، وهما من زعماء قريش.

غير أن قريشاً لم تلبث أن منيت بمزيد من الفرقة والانقسام أثر دعوة محمد ﷺ: فبنو هاشم عشيرته الأقربون وسائر بني عبد مناف، مسلمهم وغير مسلمهم، كان عليهم أن يحموا محمداً ﷺ عملاً بالعصبية، ووفقاً للتقاليد العشائرية المرعية. وأولاد عمومتهم بنو عبد الدار اشفقوا على مصيرهم بصورة خاصة، وذلك ليس لما كانوا يتوقعون أن يصيبهم كما يصيب سائر قريش، من خسران السيادة الروحية، وموارد الحج فقط اذا نجح محمد ﷺ برسالته، وانما لأن نجاحه سيفضي الى ترجيح كفة بني هاشم عليهم في الزعامة على مكة، وبالتالي في السيادة على العرب.. وهم كانوا واياهم على منافسة شديدة في صدد هذه الزعامة. وما أشد هذه المنافسة بين الأسرة الواحدة؟. والحوار الذي جرى بين الأخنس وبين أبي جهل يكشف الستار عن هذا الشعور «فقد ذهب الأخنس الى الحكم ابن هشام الأموي فسأله يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟» فكان جواب أبي جهل: «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى اذا

تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه (حسين هيكل: حياة محمد ص ۱۷۳) .

كل هذا كان يحمل هؤلاء القرشيين من أقرباء محمد ﷺ على مقابلة دعوته بالانكار وعلى مناصبته العداء حتى أجمعوا على قتله غير مبالين بجهاته . ولكنه البركان اذا انفجر وتساقطت حممه نيراناً تجعل الأرض حوله لهباً . فمن يستطيع أن يقف في وجهه؟ ومن يجسر على القيام بمحاولة اخماد جذوته؟

فبعد عشرين سنة من الكفاح، ابتداء من بعث محمد ﷺ الى دخوله مكة فاتحاً، جاء محمد ﷺ الى مسقط رأسه رافعاً بيده مشعل الثورة على الوثنية، ودخل الكعبة وحطم أصنامها، ثم جمع فيها أولئك الناس الذين آذوه وهموا بقتله وأخرجوه من بلده وقال: «يا معشر قريش ماذا ترون اني فاعل بكم؟» قالوا: «خيراً. أنت أخ كريم وابن أخ كريم» فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهنا لا بد من الاشارة الى أن تلك المنافسة التي كانت قائمة بين الهاشميين وبين الأمويين كان لها أيضاً نتائج ايجابية: فهي كما كانت من أسباب مكابرة الأمويين فقد كانت من دواعي حدب الهاشميين على ولدهم محمد ﷺ . وأذكر في هذه المناسبة سبب اسلام حمزة: فقد بلغه ان أبا جهل شتم ابن أخيه محمداً ﷺ فغضب، وما أن التقى به حتى رماه بقوسه وشجه وقال له: «أتشتم محمداً وأنا من دينه؟» ثم استمر حمزة من بعد على اسلامه، وأعتز به الاسلام كما اعتز بعمر» «أحمد زيني دحلان السيرة النبوية ص ٢١٩» .

(٣) التقاليد العشائرية المرعية في الأوساط العربية

• للاعراب عادات وتقاليد خاصة بهم يشاركهم فيها من كان مثلهم على البداوة أو قريباً منها . وهذه العادات والتقاليد منبثقة من المحيط الذي يعيشون

فيه، ومن أسلوب الحياة الذي يتصل بمعاشهم. وقد تطورت بحسب تطور الزمان حتى استقرت عندهم على شكل نظام معروف بهم، وذلك قبل أن تتقرر الشرائع الدينية. وهذا النظام وان لم يكن مدوناً ومبوّباً كالشرائع والقوانين إلا أنه مقرر بينهم، ولا يحتاج لبساطته الى تفسير واجتهادات. وقد أسلم أعراب الجزيرة وغيرهم وانتشروا فيما حولها. ومع ذلك فإن نظامهم العشائري ظل مرعياً عندهم رغم ما فيه من بعض الأحكام التي لا تتفق مع ما نص عليه الاسلام، واعترفت به الحكومات المتعاقبة. على أن القبائل العربية التي سكنت المدن في عصر الجاهلية مثل قريش في مكة، والأوس والخزرج في يثرب، وان تحضرت وخالطت العناصر الأخرى المتمدنة الا انها لم تخرج عن نطاق ذلك النظام العشائري، ولم تتخل عما فيه من موجبات. وأهمها الضمان الجماعي بين كل العشيرة، ومداره الدفاع عن نفسها، والذود عن كل فرد من أفرادها، هذا فضلاً عن مساهمة كل العشيرة بالدية التي تتوجب على القاتل لآل القتيل، واعالة المعوزين، وكفالة الأيتام، وتزويج الفقراء؛ وما الى ذلك من التضامن.

ويترتب على شيخ القبيلة أن يقوم ببعض هذه التبعات، ولا سيما في ضيافة الزائرين لقاء جعالات تؤديها له عشيرته وأفرادها. وأجلّ شيء في هذا النظام هو أن التضامن الجماعي كان يشمل أفراد العشيرة ولو اختلفوا سياسياً في وجهات النظر، وحتى ولو تباينت أديانهم.

كم ساهمت هذه التقاليد في خدمة محمد ﷺ ورسالته؟

بدأ محمد ﷺ دعوته بين أهله، ثم بين عشيرته فلم ينكرها عليه بنو هاشم، الا أن غيرهم من قريش سخروا بها وقتئذ، بيد أنهم كانوا يجتنبون التعرض له بأذى مراعاة لعشيرته. ولكنه ما ان انتقل الى المرحلة الثالثة: مرحلة تسفيه

آلهتهم حتى تناكره هؤلاء، وأجمعوا على مناصبته العداء.

وقد تساءلوا فيما بينهم ما العمل؟ وهذا محمد لا يزال يستمر على النيل من آلهتهم؟ وما العمل ودعوته شرعت تحظى باقبال كثير من الناس؟

لا شيء أسهل من فتك جماعة بفرد، ولكن الواقع ان هذا الفرد لم يكن وحده، بل كانت وراءه جماعة تحميه، فهو بمقتضى التقاليد المرعية كان في حماية وضمان بني هاشم وسائر أهلهم من بني عبد مناف، سواء أكانوا قد أسلموا أو لم يسلموا. لذلك لم يجدوا سبيلاً لردعه عن تسفيه الوثنية الا بالمجيء الى عمه أبي طالب يشكون ويطلبون وساطته. ثم عاودوا الشكوى لعمه وأشفعوها بالتهديد ان لم يسلمه اليهم.

أما وأن محمداً ﷺ أبى أن يصغي الى نصيحة عمه مستنكراً دعوتهم له للرجوع عن رسالته فإن أبا واجه أمرين كلاهما خطر. أيسلم محمداً ﷺ فيهتك بذلك حرمات التقاليد العشائرية؟ أم يرفض بأباء تسليمه فيتحمل تبعات الفتنة التي يرتقب أن تقع بين عشيرته وسائر قريش؟

فاختار الشق الثاني زغم انه كان لا يزال على دين الوثنية، وما كان ليختار غير ذلك لأن محمداً ﷺ كان كولد من أولاده، فضلاً عن انه كان مسؤولاً عن حمايته، وقد دعا بني هاشم وبني المطلب للدفاع عن ابن أخيه فوافقوه جميعهم الاّ أخاه عبدالعزى (أبا لهب).

وكان عمر بن الخطاب لا يزال على الوثنية فراودته نفسه أن يكون هو قاتل محمد ﷺ حينما أجمع الفريق الآخر من القرشيين على الفتك به، وكادت جرأته المعروفة تحمله على تحقيق ما نوى غير حافل بأحد، ولكنه لم يلبث أن نظر الى العواقب حينما نهاه نعيم بن عبدالله، وقال له: «لئن فعلت ذلك لن يتركك بنو عبد مناف تمشي على الأرض» «أبو الفدا ج أ ص ١١٨».

واشتدت الأزمة بين بني عبد مناف وغيرهم من قريش، وأدرك أبو طالب ان القوم قد أجمعوا على الغدر بمحمد ﷺ وقتله بعد أن رأواه يشتد في تسفيه آلهتهم، ورأوا دينه ينتشر تباعاً حتى ان عمر بن الخطاب ذلك الذي همّ بالفتك به كان في عداد المقبلين على الإسلام. فما وسع أبو طالب، وقد جدّ الجد، الا أن يجمع بني هاشم وبني المطلب، ومؤمنهم ومشركهم للمشاورة في الأمر.

وكان أمامهم في هذا الاجتماع أن يضغطوا على محمد ﷺ من أجل الكف عن دعوته اجتناباً للفتنة الكبرى. وكان أمامهم اذا لم يذعن أن يختلفوا في أمره، وأن يقول قائل منهم بالتخلي عنه حفاظاً على راحتهم الخاصة، والاستقرار العام. ولكنهم اذ كانوا يعلمون أن محمداً لن يعود عن دعوته ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره، أجمعوا الرأي على أن يغادروا مكة ومعهم محمد ﷺ الى شعب من شعابها. وقد مكثوا في شعبهم ثلاث سنين يواجهون مقاطعة قريش لهم، ويعانون آلام الجوع والوحشة دون أن يفكر أحد منهم، حتى الذين لم يكونوا قد أسلموا، في التخلّي عن محمد ﷺ، وما كان كل ذلك الا حفاظاً على ما تفرضه التقاليد العشائرية من واجبات التضامن.

وهنا مجال لورود هذا السؤال: لولا هذه التقاليد التي كانت مرعية الى هذا الحد أكان بوسع أي انسان أن يبقى حياً وهو يسفه آلهة قوم كانت شباكاً لسيادتهم وقواماً لمعاشهم؟

والجدير بالذكر هنا ان ثمة تقاليد عربية أخرى خدمت رسالة محمد ﷺ في غير هذه الناحية. وأعني بها تقاليدهم في الأشهر الحرم. فقد كانت تعقد في هذه الأشهر كل عام الأسواق الأدبية وأشهرها سوق عكاظ، والمعارض التجارية فيؤمها العرب والعجم. هذا يعرض بضاعته الأدبية، وذاك يعرض بضاعته التجارية، وأولئك يبشر كل منهم بدينه. وجميعهم آمنون على أنفسهم

مطمئنون ذلك بأن الحرية والأرواح كانتا مصونتين في هذه الأشهر حتى بين الذين لهم إثارات على بعضهم البعض. والأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم على التوالي، وشهر رجب على انفراد. وكان العرب لا يستحلون فيها القتال الا بنو خثعم وطي على رواية سعيد الخوري الشرتوني في معجمه أقرب الموارد (ج ١ ص ١٨٤).

وقد تحدث الدكاترة حتي وجرجي وجبور في كتابهم «تاريخ العرب ج ١ ص ١٢٨» عن هذه الأشهر وسوق عكاظ فقالوا: «وكان سوق عكاظ - فيما رووا - تقام في الأشهر الحرم التي كان القتال محظوراً فيها. والتقويم السنوي في عهد الوثنية عند العرب قمري مثل التقويم الاسلامي الذي تلاه. وكانت أشهر السنة الثلاثة الأولى - أي فصل الربيع - ذو القعدة وذو الحجة ومحرم توافق فترة السلم».

فاستميح العذر من مؤلفي الكتاب اذا توقفت عند هذه العبارة للفت نظرهم الى ملحوظاتي الآتية حباً في التحقيق.

- ان الأشهر الثلاثة الأولى من السنة الهجرية القمرية هي محرم وصفر وربيع الأول، وليست ذا القعدة وذا الحجة ومحرم.

- هذه الأشهر وغيرها من أعوام السنة الهجرية القمرية لا تأتي دائماً في فصل الربيع، وانما قد تأتي في هذا الفصل تارة، ثم تأتي في سواه تارات أخرى لأن السنة القمرية دورية.

- الأشهر الحرم أربعة وليست ثلاثة.

فهذه الأشهر الحرم أتاحت لمحمد ﷺ الفرص للدعوة الى دينه بحرية دون أن يحسب حساباً لعدوان. فقد كان ينزل الى هذه الأسواق في كل عام،

ويسأل عن منازل القبائل فيطوف عليها ويدعوها الى الاسلام، ويتلو عليها القرآن .

وظل محمد ﷺ يأتي هذه المواسم طوال عشر سنين مبشراً ومنذراً فكانت خير وسيلة للتعريف بدينه، ثم لانتشاره في أنحاء الجزيرة العربية .

وهناك جاءه الفرج من حيث لا يحتسب . كان في أشد الأزمات اذ ماتت زوجته خديجة وهي سلواه، وتوفي عمه أبو طالب وهو نصيره، وهاجر أصحابه الى الحبشة من شدة التضييق عليه وعليهم بعد موت أبي طالب . فجاءه الفرج باسلام ستة من الخزرج ما ان عادوا الى يثرب حتى أذاعوا أخباره فلم تبق دار بالمدينة الا وتحدثت عنه . وكان اسلام هؤلاء ومن جاء بعدهم الى الحج في الموسمين التاليين فاتحة عهد جديد للاسلام في المدينة، عهد كله ازدهار وانتصار .

(٤) الصراع الاقتصادي بين مكة ويثرب وأثره في نجاح الاسلام

• كان للعرب في الجاهلية في رحلاتهم التجارية التقليدية وغيرها من الأسفار محطات تجارية أهمها مكة ويثرب . وكانتا هاتان البلدتان تتسابقان في حلبة التجارة لنيل السبق . وكان اليهود في يثرب، الذين استغلوا العداء الشديد بين الأوس والخزرج، وهم الذين كانوا ينفخون في رماده، كانوا بعد وقعة بعاث التي وقعت بين الأوس والخزرج قد أصبحوا قابضين على زمام التجارة فيها، معتبرين المنطقة التي تمتد من يثرب الى تخوم الشام منطقة نفوذ لهم من الناحية التجارية . وكان لهم فيها مستعمرات قوية أهمها في خيبر وفدك وتيماء، تستغل الزراعة كما تستغل التجارة. من أجل ذلك كان اليهود أحرص أهل يثرب على منافسة مكة في الشؤون الاقتصادية . وكان يحزّ في نفوسهم أن يتخذ العرب هذا البلد قاعدة لوثنيتهم، ومقراً لأصنامهم، وأن يعتقدوا بالتالي حوله

الأسواق التجارية كل عام، والأسواق الأدبية مما كان يفضي الى المزيد من ثروة مكة وازدهارها . واليهود فيها قلة لا شأن لها .

فلما رحبوا بثورة محمد ﷺ على الوثنية وبانتشار الاسلام في يثرب لم يكن يعود ذلك الى عاطفة دينية فحسب، بل كان يرجع، على الأكثر، لنزعة اقتصادية . وهي النزعة التي يعني بها الاسرائيليون قبل كل شيء آخر، في كل زمان ومكان .

اجل فاليهود ما ان رأوا الاسلام بدأ ينتشر في يثرب حتى رحبوا به على اعتباره فرعاً من اليهودية مفروضاً ان يكون مؤيداً لهم على الوثنية فيها، وحتى شجعوا، بطرقهم الخاصة، المسلمين من اهلها على اقناع محمد ﷺ بأن ينتقل الى يثرب، ويهجر مكة على أمل ان يكون لهم بهذا الانتقال تأمين المزيد من المنافع الاقتصادية ان اصبحت يثرب مقاماً لنبي الاسلام .

وكان محمد ﷺ وهو يوالي دعواته بمكة يقدّر الخطر الذي يحيق به من قبل اعداء الاسلام بعد وفاة عمه ابي طالب الذي كان يحميه، ولذلك كان اذا وافى المواسم كل عام، وتبع حجاج القبائل الى منازلهم، ودعاهم الى الاسلام، كان، على رواية احمد زيني دحلان « يدعوهم احيانا ان يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه فلا يجد منهم حامياً . » « السيرة النبوية ص ٢٨٢ - ٢٨٧ »

ولما شرع الاسلام ينتشر في يثرب، اصبح له فيها كثير من المريدين والانصار من ذوي المنعة والقوة « ٦٢٢ م » وعلم بأن بين حجاج يثرب ٧٣ رجلاً وامرأتين فكر في بيعة ثانية يجريها معهم لا تقف عند الدعوة الى الاسلام، بل تمتد الى ما وراء ذلك: الى حمايته ان هو هاجر الى يثرب . واقبل سراً على مكان الاجتماع الذي حدده واياهم، وهو العقبة[1] وكان عمه العباس

---

(١) العقبة قرية تبعد بضعة أميال عن مكة، وهي غير مرفأ العقبة المعروف على البحر الأحمر.

ابن عبدالمطلب ما يزال على دين قومه . فجاء معه يستوثق منهم حماية ابن اخيه ، فبايعوا محمداً ﷺ على ان يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم . وهو عاهدهم في نفس الوقت على ان لا ينحاز الى اليهود اعدائهم . وعلى اثر ذلك امر المسلمين بالهجرة خفية الى يثرب ، فرحلوا ارسالا ارسالاً ، الاّ عمر بن الخطاب فأنه أظهر هجرته . ولم يجرأ احد ان يتعرض له .

وما كاد يتنفس الصبح على هذه البيعة حتى علمت قريش بها ، وكان النبأ عليها كأنما هو صاعقة اذهلتهم .

فلماذا ؟ الأنهم لا يريدون التخلص من محمد ﷺ ، وهو الذي كان يقضّ مضاجعهم ؟ ام لانهم لا يريدون الخلاص من المسلمين ، وهم الذين كان مرآهم ينغص عليهم عيشهم ؟

كلا فالمسلمون كانوا قد هاجروا من قبل مرتين الى الحبشة ، ولم تكن لهجرتهم على اعداء محمد ﷺ مثل وقع هجرة المسلمين الى يثرب .

اما السبب فكان غير هذا وذاك . ومن المؤسف ان اكثر المؤرخين اغفلوا ذكره واقتصروا على الظن بأنه يعود فقط الى خوف مشركي قريش من يوم يستطيع فيه محمد ﷺ ، وهو في يثرب ، ان ينتقم منهم .

والواقع ان السبب الأهم يعود الى شؤون اقتصادية ، يعود الى المنافسة التي كانت مشتدة بينهم وبين اهل يثرب . فهم كانوا يتوقعون سلفاً ان هاجر محمد ﷺ اليها ان يأخذ عليهم طرق قوافلهم ما بين مكة والشام فيعرقل تجارتهم ، هذا فضلا عن ان قيام الاسلام في يثرب من شأنه ان يحول الانظار اليها ، على اعتبارها دار دين ، وهم لا يريدون ان تكون غير مكة قبلة للعرب . ومن المعلوم ان الذين كانوا يحاربون محمداً ﷺ بمكة لم يكونوا يحاربونه استنكاراً لدينه ، وانما كانوا يفعلون ذلك خوفاً على منافعهم التي كانوا يجنونها من قيام

الوثنية بمكة، وهي منافع اقتصادية ومعنوية.

لذلك فلما ان علمت قريش بهجرة المسلمين سراً الى يثرب حتى حاولت ردهم، وكانت تعيد بالقوة من تعثر عليه منهم. وخفت الى عقد جلسة طارئة في دار الندوة للمداولة في امر محمد ﷺ، بصورة خاصة، قبل ان يفلت من ايديهم، فقرّ رأيهم على الفتك به، وان يكلوا هذا الامر الى خمسة من اشدائهم، كل واحد من قبيلة بغية ان يضعوا اهله بني هاشم امام قرار اجماعي فلا يسعهم من بعد القيام بأي ثأر ضدّ كل هذه القبائل.

وما ان علم النبي ما أسروا وبيّتوا حتى أمر علي بن أبي طالب بأن يرقد في فراشه، ويتشح ببرده الاخضر ليتوهموا انه نائم، وان يتخلف علي ريثما يؤدي ما كان عند النبي من ودائع. وخرج محمد ﷺ ومعه ابو بكر على غرة منهم، الى غار في جبل ثور على مقربة من مكة حيث مكثا ثلاثة ايام؛ حتى اذا حانت الفرصة، ويئست قريش من العثور عليهما انسلاّ الى يثرب. فكانت هذه الهجرة فوزاً ليثرب على مكة في المعركة الاقتصادية التي كانت تدور رحاها بينهما منذ امد بعيد. وقد اكتمل هذا الفوز للمدينة حينما اسفر الصراع بينهما عن انتصار محمد ﷺ على مكة، وعن دخولها في عداد البلدان التي اصبحت في حوزة الأسلام.

الفصل الخامس

محمد ﷺ بن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني

٥٧٠ ـ ٦٣٢ م

لست اتوخى في هذا المقال ايراد سيرة نبينا على ما تستحقه من الاسهاب، وانما سآتي بعرض موجز لها بغية استكمال دراسات الكتاب. ذلك بأن المؤرخين، سواء اكانوا من العرب او العجم، ومن المؤمنين به او من المنكرين له، لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة من حياته الا احصوها حتى لم يكتب الكاتبون تاريخ احد من البشر بمقدار ما دونوا عنه.

والواقع ان سيرة محمد ﷺ جديرة بأن تدوّن على سلامتها ويقرأها بامعان كل انسان، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، لأن فيها تاريخ أعظم رسول للبشر، وفيها دروس مفيدة على ما يجنيه الصابرون من اطايب الثمرات، وفيها امثولات عديدة على ما يجزي به الثابتون على مبادئهم من الانتصار. وهي في الجملة دراسة مفيدة في موضوع اسرار النجاح.

نشأة محمد ﷺ

كان لعبد المطلب سيد مكة ولد أسمه عبد الله تزوج آمنة بنت وهب سيد بني زهرة. وكان عبد الله قد خرج في تجارة الى الشام، ولكنه لم يعد، اذ لم يكد يبلغ يثرب في عودته حتى وقع مريضاً فنقل الى دار اخوال جده هناك من بني النجار، ومات فيها، ومحمد ﷺ جنين في بطن امه ابن شهرين.

وولد محمد ﷺ في ١٢ ربيع الاول الموافق ٢٠ آب من سنة ٥٧٠ م على

الأرجح، ونشأ يتيماً. ويقول الدكتور فيليب حتي (العرب موجز ص ٣٢) «ولقد دعته أمه باسم قد يظل مجهولاً. أما الاسم الذي عرف به في القرآن فهو محمد».

والواقع أن جده عبد المطلب هو الذي أسماه، واختار له اسم محمد في اليوم السابع من ولادته جريا على سنة العرب في تسمية اولادهم بعد مرور اسبوع على رؤيتهم النور. وكانت قريش تسترضع اولادها عندما رضع من اهل الوبر فاسترضعته حليمة من بني سعد بن بكر، وظلت تحتضنه حتى بلغ الخامسة من سنه، فكان هنالك ينهل من جو الصحراء الطلق روح الحرية والفروسية، ويقتبس لغة العرب صافية. ولما اعادته حليمة الى امه كفله جده عبد المطلب. وكان هذا في عداد الذين يؤمنون بوجود إله غير الاصنام احق بالعبادة، كما كان من الفئة التي كانت تضطلع، في فترة الجاهلية، بالدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر. فافاد محمد ﷺ من افكاره واخلاقه. وفي السنة السادسة من ولادة محمد ﷺ قصدت امه الى يثرب لتزور قبر زوجها، ولكنها لم تعد ايضاً اذ ماتت في طريق عودتها، وتركت ولدها يتيما من الأبوين. ثم فجع هذا اليتيم، وهو لا يزال في الثامنة، بموت جده عبد المطلب فدخل في كفالة عمه ابي طالب. وكان عمه من تجار قريش. ولما اراد يوما ان يخرج في تجارة له الى الشام صحب معه ابن اخيه، وهو في نحو الثانية عشرة من عمره. ولما بلغ بصرى من اعمال الشام قاعدة ملوك آل غسان، نزل عند الراهب بَحيرى Sergius.

ولما شب محمد ﷺ رعى غنم اهله، وغنم بعض اهل مكة. ورعي الغنم عند العرب عادة مألوفة حتى الآن ولا يجدون فيها حطة، وكان كل من موسى وداوود من الرعاة في مطلع حياتهما. ولما بلغ محمد ﷺ العشرين سمت به همته لمزاولة عمل اجدى وانفع فمارس التجارة، على غرار اهله، وسافر الى سوق حباشة باليمن شريكا لقيس بن السائب.

وكانت في مكة سيدة من اشراف قريش ومن كبار تجارها هي خديجة بنت خويلد سمعت بامانته فاتفقت معه على التجارة لها . فسافر اربع مرات الى اليمن، وواحدة الى الشام . فكانت هذه الاسفار كافية لتقديرها له فتزوجته، وهي في نحو الاربعين، وهو في الخمس والعشرين . وكان زواجاً موفقاً، ليس من حيث ما تمتع به محمد ﷺ من اليسر فحسب، وانما لما كان له بخديجة من المواساة والتأييد حينما اضطلع برسالته .

النبوة في مكة

كان لاختلاط العربي بالجوالي الأجنبية التي تسكن بلادهم، وترد اليها في المواسم، كما كان لاختلاطهم باهل الشام والعراق واليمن في اسفارهم، مفعول شديد، فهو قد فتّح اذهانهم، ونوّر افكارهم، وسرّب الى نفوسهم الريب في صحة الوثنية . وكان المفكرون من اهل مكة يخلون الى انفسهم في بعض الاشهر للتأمل في خلق السماوات والارض . وقيل ان عبد المطلب كان اول من تعبّد في جبل حراء على مقربة من مكة خلال شهر رمضان؛ فحُبب الى حفيده محمد ﷺ، وهو المفكر الكبير الذي زادته الرحلات نورا على نور، حبب اليه ان يسلك سبيل جده في التحنث، ويختار كلا من هذا الجبل وهذا الشهر ليخلو الى نفسه، وزاده الكعك والزيت . ولما بلغ رأس الأربعين، وفيما هو نائم في خلوته، جاءه اول الوحي: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ● خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ● اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ● الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ● عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق) فعاد الى زوجته خديجة وهو يرتعد كأن به الحمّى، وقال: «زمّلوني، زمّلوني» اي غطوني . وحدثها بما رأى وسمع فهدّأت روعه وقالت: «أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون نبيّ هذه الامة .» ثم عاوده الوحي خلال هدأة نومه في بيته ملكا يقرأ عليه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ● قُمْ فَأَنْذِرْ ● وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ● وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ● وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ● وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ● وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

(سورة المدثر).

صدع محمد ﷺ للأمر فبدأ بالتبشير لدينه بين اهله، فكان ايمان خديجة به ذا اثر كبير في تشديد عزيمته، وكانت اول من آمن به من النساء، وكان علي في حجر محمد ﷺ لعسرة اصابت والده ابا طالب. فكان اول من آمن به من الفتيان. وكان زيد بن حارثة اول من اسلم من الموالي. وهو مولى لخديجة اعتقه النبي وتبنّاهُ الى ان جاءه الوحي: ﴿ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله.﴾

وبقي الاسلام محصوراً في بيت محمد ﷺ الى ان توجه الرسول بدعوته الى اعز اصدقائه عبد الله بن ابي قحافة، فكان ابو بكر اول من آمن به من رجال قريش. وكان محبوبا بين قومه مطاعا فيهم، فاذا بنفر من اهل مكة، وعلى رأسهم عثمان ابن عفان، ينصاعون اليه ويدخلون في الاسلام.

اما بنو هاشم اهله فلم ينكروا عليه دعوته، كما ان سائر القرشيين لم يبعدوا عنه، في اول الامر، حينما انتشر نبأ نبوته، ولم يردوا عليه. وكانوا اذا مرّ بهم في مجالسهم يقولون، على ما روى الزهري، «هذا ابن عبد المطلب يُكلمّ من السماء.» وعبد المطلب كان جده الذي كفلـه فعرف به. حتى اذا اوحي له في السنة الرابعة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ.﴾ (سورة الشعراء) تحولوا عن الرفق به الى السخرية منه، على انهم مع ذلك كانوا يجتنبون التعرض له بالاذى.

دعا محمد ﷺ اثر نزول هذه الآية عشيرته الاقربين الى طعام في بيته فلبوا دعوته. بيد انه ما ان حاول ان يحدثهم عما اوحي اليه حتى وقف عمه عبد العزى بن عبد المطلب(او لهب) وقاطعه وخرج وخرج معه المدعوون، هازئين به ساخرين. ودعاهم محمد ﷺ كرة اخرى، ولما أطعموا دعاهم للاسلام، فأعرضوا عنه ايضاً وانصرفوا ساخرين.

بيد ان هذا الاعراض عنه لم يؤثر على عـزيمتـه. وانما خـرج بعـد ذلـك يتبعهم. فصعد يوما الى الصفا ونادى قريشاً. «ان الله أمرني ان انذر عشيرتي

الاقربين، واني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً الاّ ان تقولوا لا اله الا الله.» فأعرضوا عنه ايضاً، واظهروا سخطهم. وكان على رأس الغاضبين عمه ابو لهب فصاح به: «تباً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟..»

غير ان دعوته شرعت تلقى قبولا على الاكثر عند المستضعفين الذين يتذمرون من الحرمان، وينشدون الحرية والمساواة. ذلك لأنهم وجدوا فيها، مع سلامة العقيدة، الانصاف الذي ينشدون. اما سائر زعماء قريش. فقد شرعوا يهزأون بنبوته، ويحطون من شأنه، ويطلبون منه المعجزات. وقد وصفهم القرآن بسورة الانبياء حيث قال:

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾

اما محمد ﷺ فكان يتلو عليهم كلما تعرضوا له بطلب المعجزات ما هو من قبيل هذه الآية:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ ﴾ (سورة الاسراء) ثم لم يزده عنادهم ومكابرتهم الا عزماً وصبراً ونشاطاً فشرع يوافي الأسواق الأدبية والتجارية في المواسم، ويتبع القبائل الى منازلهم في الحج ويتلو عليهم القرآن. فكان يقرأ عليهم تارة:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(سورة الانعام) وكان تارة يتلو عليهم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل).

ورغم ان هذه الآيات وامثالها لم تكن تتعرض بسوء الى الاصنام، وكانت لا تتعدى حدّ الوعظ والأرشاد فأن قريشاً ظلت تسفه دعوته، وتنكر نبوته، وتسخر من مواعظه. وكان بعضهم يتبعه اين ذهب للحط من شأنه امام القبائل.

بيد ان الصراع بين محمد ﷺ وبين قريش من غير بني عبد مناف لم يلبث ان انتقل من نطاق الكلام الى حيّز العدوان على محمد ﷺ منذ أعلن تسفيه عبادة الأوثان وحمل عليها. لقد كانوا من قبل اذا اجتمعوا في دار الندوة، أو جلسوا حول الكعبة، واتى ذكره لم يثر اكثر من علامات الاستخفاف واقوال الهزء. اما الآن، وقد شرع يحقر آلهتهم، فالأمر لم يعد يقف عند هذا الحد. بل اصبح موضع جد وتفكير. وكيف لا؟ فاذا ما اتيح لمحمد ﷺ ان يصرف العرب عن اوثانهم بمكة فهو سيحرم سادة قريش من مكاسبهم التي يجنونها من ايام الحج واسواقها، وهو سيهدم زعامتهم التي احرزوها برعاينهم للكعبة دار الأوثان. فما وسعهم بعد ذلك الا ان يناصبوا محمداً ﷺ العداء، ويسيئوا اليه، ويعذبوا المستضعفين من المؤمنين به، حتى بلغ من حذر المسلمين انهم كانوا لا يبيتون الا والسلاح الى جانبهم.

اما وان محمداً ﷺ كان يتمتع بحماية عمه ابي طالب، ويتمتع بالتالي بحماية بني هاشم وبني المطلب، مسلمهم وغير مسلمهم، فكان عليهم ان يلجؤا الى عمه يشكونه. وقد ردهم ابو طالب رداً جميلا. ومشوا اليه مرة أخرى، ثم مرة ثالثة استعملوا التهديد فيها. وحينئذ وقد جد الجد، واصبحت الفتنة بين قبائل قريش قاب قوسين او ادنى ما وسع ابو طالب الا ان يقف موقفاً حازماً من

محمد ﷺ . وقال له في جملة ما قال: « فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا اطيق. »

وبعد فما اصعب هذا الموقف بالنسبة لمحمد ﷺ ؟ عمه الذي كان يحميه يطلب منه ان لا يحمّله ما لا يطيق، ولا يعرضه للخطر، وهو الى ذلك يحذره من خطر يوشك ان يلم به، ويعلن له انه عاجز عن حمايته. اما المسلمون فكانوا وقتئذ اضعف من ان يردوا عن محمد ﷺ مكروها، بل هم اضعف من ان يدفعوا الأذى عن أنفسهم.

واي انسان واجه مثل هذا الموقف لا بدّ له من اختيار احد امرين إما المهادنة والانصراف عما يدعو اليه، واما طلب السلامة لنفسه ولدينه ولاتباعه بالفرار الى حيث يواصل الدعوة آمناً مطمئناً. اما محمد ﷺ، الذي كان يؤمن ايماناً صادقا بانه مرسل من الله، فلم يعبأ بالتهديد، ولم يحفل بالوعيد، ولم يغتر بما كانوا يبذلون له من انواع الترغيب، فالتفت الى ابي طالب وقال له بكبرياء وشمم: « يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله، او اهلك فيه ما تركته. » وكان ابو طالب لا يزال على الوثنية، ومع ذلك فقد اثر فيه صدق ايمان محمد ﷺ، فناداه واسترجعه، وطمأنه بانه لن يتخلى عنه. ومن هنا بدأت المعركة على اشدها بين الفريقين: بين محمد ﷺ وبني عبد مناف من جهة، وبين سائر المشركين من قريش من جهة اخرى. اما وقد بدا لهؤلاء ان الفتك بمحمد ﷺ أمر غير ميسور بعد ان اجمع اهله بنو هاشم وبنو المطلب على الدفاع عنه فتحولوا الى العدوان على المسلمين، ولا سيما الضعفاء منهم، حتى أحرقوا بعضهم. فكان ذلك مما حمل محمداً ﷺ على ان يأذن للمسلمين بالهجرة الى الحبشة في السنة الخامسة من النبوة (٦١٤ م) حيث مكثوا فيها ثلاثة اشهر. وكان عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد ﷺ في عداد هؤلاء المهاجرين. وكاد ابو بكر يخرج معهم لولا

ان رده لمكة ابن الدغنة سيد قبيلة القارة وجعله في ذمامه على ان يلزم بيته . اما محمد ﷺ فظل يتحمل اذى قريش بصبر وثبات ، ذلك الأذى الذي كان يشتد كلما أشتد هو في تسفيه آلهتهم ،حتى اذا ما اسلم عمر بن الخطاب واعتز الأسلام به أوجست قريش خيفة من سوء المصير ، فعقدت العزم على الفتك بالنبي دون مبالاة باهله ، واجمعت على مقاطعتهم لا يناكحونهم ولا يبايعونهم حتى يسلموه اليهم .

الخطر على محمد ﷺ بدا وشيكا ، والفتنة الكبرى ذرّ قرنها . ولكن تسليم محمد ﷺ أمر منكر في نظر بني هاشم وبني المطلب لذلك آثروا ، مسلمهم ومشركهم ، ان يغادروا مكة وينحازوا لأحد شعابها على التخلي عنه ، وذلك في السنة السادسة من النبوة (٦١٥ م) ، على ان يهاجر المسلمون مرة اخرى الى الحبشة . وظل محمد ﷺ واهله في ذلك الشعب ثلاث سنين لا يخرجون منه الا في الاشهرم الحرم ، وظلوا يعانون ضائقة القطيعة ، ويتحملون المجاعة حتى اكلوا ورق الشجر ، وحتى اشفق عليه بعض انسبائهم المتخلفين بمكة ممن كانوا لا يزالون على شركهم ، وحملوا قريشا على فك الحصار .

ـ وبعد هذا فهل طرأ على محمد ﷺ اي تبديل ؟

ـ كان المفروض باي انسان امسى مهددا بالقتل ، وامسى الاقربون من عشيرته عرضة للصدود والمقاطعة ، ان يعدل عن موقفه ، او ان يخفف من لهجته على اقل تقدير ، ولكن محمدا ﷺ عاد لبلده وهو اشد مما كان عزما . ورغم انه فجع بعيد عودته من الشعب الى مكة بوفاة عمه ابي طالب الذي كان يحميه ، وبوفاة زوجه خديجة التي كانت تشد عزيمته وتواسيه ، وذلك في عام واحد سمي بعام الحزن ، الا انه ظل كالطود ثابتا في المعركة التي اشتد اوارها من بعد ، ذلك بان قريشا كانت ، وقد تجرأت على التنكر لبني هاشم وبني المطلب

حتى اضطرتهم، من قبل، للالتجاء الى الشعب، قد تمادت في الاستهانة بهم خصوصاً بعد وفاة عميدهم ابي طالب، فاذا بها تنقض على محمد ﷺ بشتى العدوان، وهو يقابل الاذى بالثبات، والصبر ويقول: «والله ما نالت مني قريش شيء اكرهه حتى مات ابو طالب.»

ولكن الامر اذا ضاق اتسع. فجاءه الفرج من حيث لا يحتسب. جاءه من يثرب دار أخوال جده. وأهل يثرب كانوا أكثر العرب استعداداً للايمان لانهم كانوا يخالطون ثلاث قبائل يهودية كانت تسكن في بلدهم وفيما جاورها. وكان دأب هؤلاء اليهود الحملة على الوثنية. والى هذا فان اهل يثرب كانوا قد استعدوا ايضاً للاعتقاد برسول يأتي داعياً للهدى. وهي فكرة انتقلت اليهم من اليهود الذين كانوا لا يزالون يترقبون مجيء المسيح.

وصادف ان محمداً ﷺ خرج على عادته للعدوة الى دينه في ايام الحج من ذلك العام العسير، فلقي في العقبة ستة من الخزرج من اهل يثرب فآمنوا به، وافشوا في بلدهم اخباره. ثم اقبل، في العام التالي، اثنا عشر رجلاً آخرون فاسلموا. ولما دخل الموسم في السنة الثالثة عشرة من النبوة (٦٢٢ م) وفد ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، من الذين اسلموا في يثرب، وعاهدوه على حمايته ان هاجر الى بلدهم.

وقد اتينا في الفصل الرابع على ذكر هذه الهجرة بتفصيل. فنكتفي بما اوردناه هناك مشيرين الى ان هذه الهجرة كانت مبدأ التاريخ الاسلامي، بل نقطة الانطلاق للاسلام. وكانت ايضاً مصدر اسم جديد ليثرب وهو المدينة.

الرسالة في يثرب

كاد محمد ﷺ ان يكون غير غريب في يثرب حينما دخلها يوم ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٤ ايلول سنة ٦٢٢ م. وما كان مرد ذلك الى ان له فيها

انسباء قدماء فقط هم آل النجار اخوال جده، او لأن له فيها مثوى ابيه، وذكريات وفاة أمه، واما لما كان له من اصدقاء كثيرين هناك ومعارف ترجع علاقاته بهم الى ايام التجارة في غضون غدوه ورواحه الى الشام. ثم لم ينقطع عهده بهؤلاء الاصدقاء لأن الحج كان يجمع احيانا بينهما. هذا فضلا عما صار له من انصار كثيرين في يثرب قبل ان يدخلها وذلك بانتشار الاسلام فيها.

ولما ترامى الى اهل يثرب بشرى الهجرة الى مدينتهم تلقوا هذا النبأ بسرور عام، وخرجوا لاستقباله جميعاً، رجالا ونساء، وكلهم فرح بمقدمه، وكلهم متشوق لرؤيا ذلك القادم العظيم الذي كانوا يكبرون ثباته على الأذى، ويقدرون ما صدر عنه من البطولة الفائقة. والناس تقدر البطولة واصحابها حتى ولو صدرت عن الاعداء، فكيف بهم وهم كانوا يعتبرون محمداً ﷺ صديقاً اختارهم على قومه، وجاءهم مهاجرا وراغبا في جوارهم؟

اما وقد تبدل الجو في المدينة بالنسبة لمحمد ﷺ فأصبح يعيش في طمأنينة على نفسه وعلى المؤمنين به بين مواطنين كانوا يرعونه بالمحبة والتقدير، واما وقد رأى دعوته تلقى هناك اقبالا شديدا، يوماً بعد يوم، فقد اخذ يشعر بالاعتزاز، وشرعت بالتالي حياته تتطور حتى اختلفت اختلافاً كثيراً عنها في مكة.

كانت في بلده الأول حياة نبوة تقتصر على التبشير والانذار، وعلى الدعوة للمعروف، والنهي عن المنكر،وذلكبالموعظة الحسنة. اما في بلده الثاني فقد اصبحت حياة تنظيم اجتماعي وتشريع، وحياة نضال حربي، وهو في كل ذلك يعتمد على الرفق حيث يحسن استعمال الرفق، ويلجأ الى القوة والشدة حيث لا ينفع غيرهما. هذا فضلا عن انه لم يقتصر بالمدينة، في تبليغ رسالته، على عامة العرب، بل عمد الى ابلاغها الى سائر امرائهم، والى ملوك العجم.

وكانت بداية التنظيم الاجتماعي مؤاخاته بين الأفراد، ثم مؤاخاته بين الجماعات: آخى بين المسلمين، ثم آخى بين المهاجرين المكيين وبين الأنصار من أهل يثرب. وكانت مؤاخاة وثيقة بلغت حدّ سنّ التوارث بين المتآخين، وهو توارث كان وقتياً دعت الحاجة اليه، ثم نسخه الاسلام عندما لم تعد ثمة ضرورة له بالآية ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ (سورة الأحزاب).

وكان الأوس والخزرج، وهما عماد سكان يثرب، قد فرق مواطنوهم اليهود صفوفهم بغية استثمارهم على السواء. وألقوا العداوة والبغضاء بينهم حتى تقاتلوا في معركة تعرف بيوم بعاث، وذلك قبل سنين قليلة من الهجرة. فكانت المرحلة الثانية من مراحل التنظيم الاجتماعي الذي عني به محمد ﷺ التأليف بين القبيلتين. والمهمة كانت جد صعبة، ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم. فإذا بمحمد ﷺ يؤلف بين قلوبهم، ويجعلهم، فوق ذلك، اخواناً بالاسلام، وأجناداً له يتنافسون في خدمة أهدافه، وسماهم الأنصار.

وأما التكتيك الحربي فكان مداره التضييق على أهل مكة والطائف اقتصادياً، بغية ردهم عن مكابرتهم. كانوا سدنة بيت الأوثان وحماة الوثنية فاذا ما أسلموا ذهبت هيبة الأصنام، وتمهدت السبل لانتشار الاسلام في سائر جزيرة العرب. وكان هؤلاء يعلقون شديد الاهتمام على رحلاتهم التقليدية الى الشام فأراد أن يضرب على وترهم الحساس. فمنذ الشهر السادس للهجرة بدأ محمد ﷺ في تطبيق هذا التكتيك الحربي فأرسل السرية الأولى لاعتراض قافلة لهم، واتبعها بغيرها حتى بلغت سراياه سبعاً وأربعين، فاضطرت قريش لأن تسلك طريق العراق الى الشام. وأشفع محمد ﷺ هذه السرايا، بغزوات كان يقود أكثرها بنفسه، وقد بلغت تسعاً وعشرين غزوة. وكان بعضها موجهاً

ضد اليهود الذين انقلبوا عليه . وواحدة منها ، وهي غـزوة تبـوك ، كـانـت موجهة ضد الروم وآل غسان .

وكان انتصار محمد ﷺ في غزوة بدر بثلاثمائة من المسلمين على أكثر من ألف من المكيين وأهل الطائف (٦٢٤ م) حجر الزاوية في صرح اعتزاز الاسلام ، كما كان انتصاره في غزوة تبوك (٩ هـ ـ ٦٣٠ م) ، وهي آخر غزواته ، بمثابة الذروة لذلك الصرح .

هذا وكان محمد ﷺ قد رضي بمهادنة أهل مكة للتفرغ الى اليهود الذين انقلبوا عليه وشرعوا يؤلبون العرب لقتاله ، ولما أدرك وطره منهم فكر في مكة . ولم تكن الهدنة قد انتهت بينهما حينما اعتدت ، بنو بكر حلفاء قريش ، على بني خزاعة حلفائه . فرأى محمد ﷺ في هذا العدوان نقضاً للهدنة ، فخرج لفتح مكة (٨ هـ = ٦٣٠ م) . وكان فتحها يسيراً لم يتخلله الا مناوشات ، فدخلها المسلمون مهللين مكبرين ، ودخل محمد الكعبة وبيده قضيب فجعل يهوي به على كل صنم من أصنامها فيخرّ لوجهه ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقاً » .

ولقد كان من المنتظر أن ينتقم محمد ﷺ من أهل مكة أولئك الذين آذوه كثيراً ، وساموا صحبه سوء العذاب ، وتآمروا مرات على قتله ، واضطروه للهجرة من بلده . ولكنه لم يفعل ، ولم يعاملهم معاملة الأسرى ، بل جعلهم طلقاء ، فخرجوا من بيوتهم وكأنهم نشروا من القبور ، وأقبلوا على الاسلام أفواجاً أفواجاً . أما عاقبة هذا الفتح ، وتطهير الكعبة من الوثنية فكانت فتح سائر جزيرة العرب ، وانتشار الإسلام في سائر أطرافها .

ولم يمكث محمد ﷺ في مكة الا أسبوعين ونيف أرسل خلالها ثلاث سرايا لهدم ما كان حولها من الأصنام : العزى وسواع ومناة . ولما هزمت بعيد ذلك

هوازن وأسلمت أصبح سيد الجزيرة بلا منازع. وقد بعث محمد ﷺ عقب فتح مكة علي بن أبي طالب الى حمدان، وبعث في سنة عشر للهجرة أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل الى اليمن، وخالد بن الوليد الى نجران للدعوة الى الاسلام، وتعليم شعائره. وبهذه البعثات، وبالوفود الكثيرة التي جاءت النبي الى المدينة تعرض اسلامها توحدت جزيرة العرب تحت راية الاسلام.

والجدير بالذكر هنا ان محمداً ﷺ أصبح بعد هجرته الى المدينة غيره في مكة أيضاً من حيث التشريع: ففي المدينة أوحيت اليه الآيات القرآنية التي كانت والحديث أساساً للشريعة الإسلامية بما فيها من آيات تتعلق بالأحكام، وآيات تتعلق بالعبادات. فكان محمد ﷺ فيها ذلك المشترع العظيم، والمنظم الاجتماعي، الذي جمع بين السيادة الدنيوية وبين السلطة الروحية.

هذا وقد حج محمد ﷺ بالمسلمين في السنة العاشرة للهجرة (٦٣١ م) وأدى مناسك الحج. وهناك ألقى خطبته الجامعة التي أراد أن يدلي فيها بنصائحه الأخيرة للمسلمين بعد أن شعر بدنو أجله. وقد سميت خطبة الوداع. ثم لما وصل، في طريق عودته للمدينة، الى المكان المعروف باسم الصخرات تلي باسم ربه على الناس:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾. (سورة المائدة) وهو بذلك أعلن انجاز رسالته، وانتهاء مهمته.

وفعلاً فقد اشتد المرض بعد ذلك على محمد ﷺ وقضى نحبه في السنة التالية (١٢ ربيع الأول) (٨ حزيران ٦٣٢ م) وكان عمره ثلاثاً وستين سنة: أربعين منها قبل النبوة، وثلاث عشرة بعدها مقيماً بمكة، وعشر سنين في المدينة.

مات ذلك الذي ولد يتيماً، وعاش، في أول أمره، فقيراً أمياً. ولكنه لم يمت

الا بعد أن أوجد من العدم أمة عظيمة ، وسن شريعة جامعة ، فـإذا نحن في القـرن العشرين لا نزال نسمع القرآن يتلى من اذاعات لندن وواشنطن ، ويشاد بذكره من أعلى المآذن في أقطار العالم بأصوات مدوية في الفضاء « أشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمداً رسول الله » .

الفصل السادس

تطور سياسة محمد ﷺ تجاه الأديان

لقد تطورت مواقف محمد ﷺ تجاه الأديان وأهلها بمقتضى الظروف والأحوال، وكان هذا التطور في عداد أسباب نجاح رسالته، ومن أروع أفانين سياسته.

ونحن في هذا الفصل لا نتعرض لتطور الأحكام، وما فيها من ناسخ ومنسوخ، ولا نتعرض لتطور العبادات التي فرضت تباعاً لأن ذلك من المواضيع الدينية، ولا علاقة لها بالنواحي التاريخية التي نريد دراستها، وانما نستعرض هنا مراحل الدعوة الاسلامية حيال الكفار عبدة الأوثان، وحيال أهل الكتاب على ما بين الدعوة للفريقين من اختلاف، وعلى ما بين معاملة كل منهما من بون، ونضيف الى ذلك نبذة من سياسة محمد ﷺ العامة التي كان لها الأثر الكبير في هذا النجاح.

تطور الدعوة حيال أهل الأوثان

جاء محمد ﷺ يدعو الى الايمان بالله الواحد الأعلى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر. والدعوة الى هذه العقيدة لم يطرأ عليها تبديل أو تغيير من البداية حتى النهاية، وانما حدث التطور في أسلوب تبليغ محمد ﷺ رسالته. فلما شارف الأربعين اقتصر، باديء ذي بدء،

على اعلان نبوته بين أهله وذويه، وكان لا يتعرض فيها الى تسفيه الوثنية ومهاجمة الأوثان. لذلك فإن أهل مكة لم يعبأوا بها حينئذ، وظنوا انها لا تخرج عن حديث رهبان النصارى، وحكماء العرب وأمثال قس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت، وورقة بن نوفل. ولكن ما ان أمر في السنة الرابعة بأن ينذر عشيرته الأقربين، وشرع يجمعهم تارة، ويتبعهم تارة أخرى لابلاغ رسالته حتى أشفعوا اللامبالاة به بالأعراض عنه، وبالسخرية منه. ثم لما انتقل الى مرحلة التعرض للوثنية وتسفيه عبادة الأوثان ناصبوه العداء وأشهروا عليه حربين: واحدة باردة؛ وأخرى حامية. فالباردة كانت حرب الشعراء والهجائين بما فيها من وابل الافتراءات والاتهامات. والحامية كان مدارها الاساءة اليه، والمؤامرات على حياته، وسومهم المؤمنين به سوء العذاب، ولا سيما المستضعفين منهم.

وكانت هذه الحرب ذات مرحلتين: الأولى في مكة، والثانية في المدينة. ففي الأولى كانت دعوة محمد ﷺ تتسم بالمسالمة والاقناع، يرافقها الصبر على الأذى والصفح عن المعتدين. ويظهر ذلك في نيف وسبعين آية نزل أكثرها بمكة، وهي تجنح الى هذه المسألة:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾.. (سورة الفرقان).

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾. (سورة البقرة).

وأكثر الآيات التي أوحيت الى محمد ﷺ بمكة كانت لا تتعدى حد الانذار والتبشير. وأما في الثانية مرحلة المدينة فقد كانت الآيات تتسم بالشدة وتخير المشركين بين الاسلام والحرب، ولا ترضى منهم حلا وسطاً.

وفي معركة مكة كان النصر فيها من نصيب قريش اذ ارغموا المسلمين الى

الهجرة مرتين الى الحبشة فراراً من الاضطهاد، واضطروا بني هاشم وبني المطلب لأن يلجأوا الى شعب من شعاب مكة، ومعهم محمد ﷺ خوفاً من مؤامرة المشركين على حياته، وظلوا هناك ثلاث سنين يعانون أشد الضيق والمقاطعة. وأخيراً انتهت هذه المعركة بهجرة محمد ﷺ والمسلمين الى يثرب (٦٢٢ م) بعد نضال استمر ثلاث عشرة سنة.

وأما معركة المدينة، التي استمرت ثماني سنين، فكانت حرباً بالمعنى الصحيح. ظهرت تباشير النصر فيها لمحمد ﷺ على المشركين منذ السنة الأولى في غزوة بدر، وانتهت بفتح مكة وتطهيرها من الأوثان وبدخولها في حوزة الاسلام (٦٣٠ م).

وكان فتح مكة فيصلاً بين الإسلام والوثنية، وأساساً لقيام الدولة الإسلامية في جزيرة العرب دون منازع. فبعد أن عاد النبي منتصراً من غزوة تبوك (٩ هـ - ٦٣٠ م) واستراح من مقابلات الوفود التي جاءته من كل صوب تعلن اسلامها فكر في استئصال الشرك من شبه الجزيرة. فلما أزف موعد الحج في السنة العاشرة للهجرة بعث أبا بكر ليحج بالناس، وقفاه بعلي وأمره بقراءة آيات من أول سورة براءة. فاذا به يعلنها حرب تدمير على الوثنية. واذا به يعلن أن المشركين نجس ويحظر عليهم الحج من بعد ذلك العام.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. (سورة التوبة).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. (سورة التوبة).

وقد وقف علي في الناس بمنى وهم يؤدون مناسك الحج. فتلا عليهم تلك الآيات ثم صاح بالناس: «أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان عند رسول الله ﷺ عهد فهو الى مدته».

فكان لهذا الموقف الحازم، يقفه محمد ﷺ من المتخلفين على دين الوثنية، اثر بالغ عليهم حملهم على الخروج عن ترددهم، خصوصاً وان الاسلام لا يقبل منهم ما يقبله من أهل الكتاب من البقاء على دينهم واداء الجزية، وحملهم بالتالي على التخلي عن المكابرة والاقبال على الاسلام.

تطور الدعوة حيال أهل الكتاب

هاجر اليهود تباعاً من الشام الى جزيرة العرب فراراً من ظلم الرومان فالبيزنطيين. ومنذ نزولهم في رحابها عكفوا على التبشير بدينهم فتهودت بعض القبائل. وكانت المسيحية انتشرت أيضاً بتأثير الجوار أو بالتبشير فانتقل الصراع بذلك بين الملتين الى جزيرة العرب وكان هذا الصراع بينهما ممهداً السبل للاسلام.

ولما أعلن محمد ﷺ بمكة دعوته خلال ذلك التزم الحياد بينهما، وكانت دعوته مصدقة للتوراة والانجيل على السواء:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾
(سورة الشورى).

فرحبت وقتئذ كل من اليهودية والنصرانية بالاسلام للأسباب التي ذكرناها، وظلت ترحب به في أعقاب هجرته الى المدينة، ذلك بأن النبي كان مذ استقر في المدينة قد جنح لموالاة أهلها على اختلاف نحلهم ومللهم، وأعلن

حرية العقيدة في غضون ما كان يضطلع بأعباء التنظيم الاجتماعي:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة).

وكان اليهود من أكثر الناس توددا اليه، في أول الأمر، أملاً منهم بأن يتخذوه ظهيراً لهم على أولئك النصارى الذين أجلوهم عن فلسطين. ولكنهم لم يلبثوا أن أوجسوا خيفة منه على مصيرهم، ولا سيما بعد أن رأوا فريقاً منهم، ومن علمائهم يعتنقون الاسلام، فانقلبوا عليه.

وأما النصارى الذين كانوا يحسدون اليهود على ما أدركوا من رعاية محمد فقد كان اغتباطهم لا يوصف بما حدث بينه وبين اليهود من خلاف فتقربوا منه ووادّوه، وجاء وفد منهم من نجران الى المدينة فيه خيار رجال دينهم، وهو يرغب في أن يوطد الصداقة مع محمد ﷺ، ويطمع في أن يباعد بينه وبين اليهود. وشاء الوفد هناك أن يتعرف الى المزيد من العقيدة الاسلامية، ولا سيما في شأن الله وعيسى، فدخل في نقاش مع محمد ﷺ شجعه عليه ما لقيه، خلال هذه الزيارة، من مجادلة اليهود له بشدة مجادلة لم يكن القصد منها حب الاستطلاع، وانما بغية افحامه. فكان النقاش الذي جرى بين وفد نجران وبين محمد ﷺ مما أفضى الى كشف خلاف في العقيدة بين الملتين لم يكن من قبل بارزاً: ذلك بأن الآيات التي أوحي بها الى محمد ﷺ، في الجواب على أسئلة الوفد، جاءت لا تنكر التثليث فحسب، وانما تشجب القائلين به أيضاً.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

﴿وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ • إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ • قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(سورة آل عمران).

وكانت الملاعنة هذه التي دعا اليها القرآن عادة مألوفة عند الأمم منذ أقدم التاريخ. غير أن وفد نجران اختار أن لا يلجأ اليها وأن يبقى كل على دينه، وعاد ومعه أبو عبيدة بن الجراح أميناً من قبل محمد ﷺ، متعهداً بجعل سنوي يؤديه أهل نجران من مال وأنسجة يمانية. وظل النصارى على ولائهم لمحمد ﷺ طوال نحو سبع سنين.

وأما اليهود فإنهم استرسلوا في كيدهم لمحمد ﷺ فكان ما كان بعد من أجلائهم عن المدينة، ومن الانقضاض عليهم في خيبر، واخضاعهم حيث كانوا بالقوة. والآية التي تقابل بين النصارى واليهود والتي نزلت في أعقاب تلك الفترة من الزمن تشير صراحة الى مواقف كل منهما حيال المسلمين:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

ولكن السياسة اذا تسربت الى أمر أفسدته. فما أن توترت العلاقات السياسية بين محمد ﷺ ومتنصرة العرب من آل غسان وبينه وبين الامبراطورية البيزنطية وذلك منذ سنة ٦٢٩ م حتى تغيرت النوايا وتبدلت القلوب في أوساط المسيحيين بجزيرة العرب، ولا سيا بعد عودته من تبوك منتصراً.

والى هذا كان محمد ﷺ قد أصبح بعد فتح مكة السيد الأوحد على بلاد ، تترامى حدودها ما بين بحر العرب جنوباً ، وبين تخوم الشام شمالاً ، وأصبح بالتالي مسؤولا عن سلامة هذا الكيان حيال الخصوم سواء أكانوا في الخارج أم في الداخل . لذلك فإنه لما أرسل علي بن أبي طالب رديفاً الى أبي بكر يوم حج بالناس ، وأمره بتلاوة الآيات الأولى من سورة التوبة كانت هذه الآيات تتناول أيضاً الذين لا يدينون دين الحق من أهل الكتاب.

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ● وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ● اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة التوبة) .

ثم توالت الآيات الموجهة الى الفئة القائلة بالتثليث من النصارى وقتئذ ، وآخرها تلك الآيات التي تدعوهم فيها الى التوحيد .

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ● أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ● مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة المائدة) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن

يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (سورة النساء).

وقد قلنا ان هذه الآيات كانت موجهة للفئة القائلة بالتثليث من النصارى «الذين لا يّدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب» ذلك بأن بعض الفرق المسيحية المعاصرة لمحمد ﷺ كانت على غير هذا الرأي، وكانت لا تزال موالية له.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران).

على ان الاسلام وان أمر بقتال أهل الكتاب من اليهود الذين يؤلّهون العزيز، ومن النصارى الذين يؤلّهون عيسى فهو مع ذلك لم يعاملهم معاملة الكافرين في تخييرهم بين الاسلام والقتال حتى يسلموا، وانما جعل ايمانهم بالله شفيعاً لهم بحيث يكون لهم الخيار بين الاسلام واداء الجزية.

هذا وقد وجد بعض المستشرقين مجالاً للانتقاد لمناسبة تطور الدعوة الاسلامية حيال أهل الكتاب، ولا سيما النصارى. والواقع انهم لو أخذوا بعين الاعتبار ان الاسلام جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، وشمل شؤون الدين والدنيا، لوجدوا له المبرر في هذا التطور. وهو انما كان تطوراً في تفصيل العقيدة تباعاً بحسب الظروف والمناسبات بعد أن أعلنها جملة واحدة بعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله». أما العقيدة فلم يطرأ عليها أي تبدل منذ البداية حتى النهاية.

سياسة محمد ﷺ في الميزان

ذلك التدرج الذي جرى عليه محمد ﷺ في ابلاغ الرسالة، على مراحل بما فيها من عقيدة وعبادات وأحكام، كان ضرباً من ضروب السياسة الحكيمة

التي لا بد منها لادراك النجاح.

ففي مكة وجه دعوته الى المشركين للايمان بإله واحد لا شريك له، ولعبادته عبادة مباشرة دون ما حاجة لشفعاء. أما أهل الكتاب فقد أعلن انه جاء مصدقاً لكتبهم ورسلهم حتى اذا لقي ما لقي من الأذى من قبل المشركين كان يجد بين النصارى واليهود المؤيدين والمواسين. وما أجدى المواساة في غضون الشدة فضلا عن التأييد؟

وأما في المدينة، حيث تمتع بمناعة كافية اطمأن بها على حياته وحياة المسلمين واطمأن بها على مصير دينه، فقد أظهر من أفانين السياسة أنواعاً وأنواعاً وفرت له النصر في معركة النضال.

كان محمد ﷺ مذ نزل المدينة يحنّ الى مسقط رأسه حيث ترعرع وشب، ويتطلع اليه ذاكراً ما لاقاه فيه من العنت والأذى، وما كان يأتي على ذكراه الا وتتأرجح أمام أنظاره تلك الأوثان الكثيرة القائمة في البيت العتيق والناس حولها سجّد خاشعون يقدمون لها النذور.

وما كانت هذه الذكريات المؤلمة تمرّ بخاطره الا ويذكر أيضاً ان فريقاً من أسياد مكة، الذين قد اتخذوا تلك الأصنام شباكاً لمعاشهم، وسلماً لزعامتهم، لن يتركوه وشأنه في المدينة. بل انهم سيؤلبون العرب للقضاء على دينه الذي يهددهم، وللقضاء عليه وعلى من اتبعه.

وكان محمد ﷺ أمام هذه الذكريات يفكر فيما هو خير سبيل لعودته الى مكة ظافراً لتطهيرها من رجس الوثنية، ولانقاذها من أولئك الأرستوقراطيين الذين أقاموا أنفسهم حماة لها.

ولكنه كان اذا التفت الى ما حوله لا يرى ما يشجع لبلوغ هذه الأمنية: فالمهاجرون كانوا لا يزالون قلة ضعيفة فقيرة لا يعتمد عليها. والأنصار من

أهل المدينة لم يكونوا قد بايعوه قبل الهجرة الا على حمايته والدفاع عنه دون الهجوم معه على الآخرين. هذا الى انهم لم يكونوا يمثلون يثرب برمتها، ولم يكونوا في سياستهم المحلية صفاً واحداً لأنهم كانوا لا يزالون يتأثرون بما بين قبائلهم من عداوة تقليدية.

غير ان محمداً ﷺ لم يكن يتكل على ما هو في طاقة الانسان ان يصنع في مثل هذه الأحوال، وانما كان يتوكل على رب لا حد لقدرته، على أن يكون التوكل مسبوقاً بالعمل. لذلك لم ييأس ولم يقنط، بل خف الى العمل. وهنا ظهرت قدرته السياسية مع حنكته الحربية.

ففي السياسة كان لا بد له أن يلتمس، قبل كل شيء آخر، القوة التي تضمن له وسائل الدفاع عن الإسلام ووسائل نشره. والقوة لا تكون الا بالاتحاد. اذن فكان الواجب الأول يدعوه لأن يقوم بتوحيد صفوف المسلمين. فكان ما كان مما ذكرناه في سيرته من المباشرة بالمؤاخاة بين المهاجرين، وما تلاها ابتداء من الشهر الخامس للهجرة من المؤاخاة بين هؤلاء والانصار، وما تبع ذلك من التأليف بين الأوس والخزرج.

وكان اليهود في يثرب وما حولها قوة أخرى لا سبيل للتغاضي عنها، فقابلهم بمثل ما استقبلوه من الود وتعاهد معهم، وبهذه السياسة الحكيمة، مضافة الى كرم أخلاقه، لم يلبث محمد ﷺ أن أدرك هدفه وذلك بايجاد وحدة سياسية في المدينة تدين له بالزعامة.

وأما في الناحية الحربية فكان اتجاهه منصبّاً على مكة قاعدة الوثنية. انه لم يكن في طاقته مهاجمتها. ولكن عصبها الحساس كان يمتد بينها وبين دمشق، وأعني به قوافلها التجارية التي هي قوام حياتها. فشرع محمد ﷺ يهاجم هذه القوافل لتذليل عناد أصحابها. ولكن قريشاً لم تهن ولم تستكن وقابلته بحروب

متصلة استعانت خلالها بحلفائها العرب. وأشهرت عليه حرباً أخرى باردة وكان قوامها الشعراء الذين كانوا يؤلفون جهاز الدعاية. فإذا بمحمد ﷺ يقابلهم في الحربين بالمثل، ويستعين أيضاً بالشعراء للدفاع عنه وعن دينه. وكان أشهرهم حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك. واذا به يستعين بالعيون والأرصاد يبثهم في أنحاء الجزيرة، ينقلون اليه أخبارها، وينقلون اليه ما يأتمر به خصومه.

ولعل هذه العيون والأرصاد هي التي عبدت الطرق له لفتح مكة: فقد كانوا ينقلون اليه أنباء الانقسام الذي وقع بين سادتها بعد أن طال أمد القتال بينهم وبين محمد، ﷺ وجنوح بعضهم الى مصالحته. وكان ذلك حافزاً لمحمد ﷺ على عقد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، أو بكلمة أصح الهدنة التي وفرت له الأسباب من بعد لفتح مكة.

وكان محمد ﷺ لا يبت في أمر الا بعد مشورة أصحابه. ولما شاورهم في أمر الصلح مع قريش كانوا على غير رأيه، وكان عمر بن الخطاب أشدهم معارضة له. ولكنه في هذه المرة أصرّ على عقد الصلح، بينما لم يكن يصرّ من قبل على رأي، وإنما ينزل عند رأيهم. بيد أن الحكمة باصراره لم تلبث إلاّ قليلاً حتى تبدّت، وكانت خير دليل على حسن سياسته. ذلك بأن اختلاط المسلمين بأهليهم بمكة، بعد الهدنة التي قررها صلح الحديبية، أفضى الى تعرف السواد الأعظم من القرشيين على حقيقة الاسلام، والى رجوعهم للمقابلة بينه وبين الوثنية، هذا فضلا عن المقابلة بين ما يدعو اليه محمد ﷺ من مكارم الأخلاق والاصلاح الاجتماعي، والمساواة بين الطبقات وحق المحرومين في أموال الأغنياء، وبين ما كان فاشياً عندهم من الفساد، والعبودية والاستثمار. فاذا بالشعب ترق قلوبه للإسلام، وأكثره كان محروماً، واذا بالزعماء يخففون من عداوتهم لقريبهم محمد ﷺ. واذا بعدد كبير من أهل مكة، ولا سيما من

الطبقات المحرومة، تقبل، خلال هذه المدنة، على الاسلام، واذا بفريق من سراة القوم يمشون اليه في الطليعة وعلى رأسهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة وغيرهم.

وقد ازداد عدد المسلمين، بعد صلح الحديبية زيادة كبيرة الى حد أن محمداً ﷺ لما خرج بعد سنتين الى فتح مكة (٨ هـ - ٦٣٠ م) خرج في عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المقاتلين معه لا يزيد عن ألف وأربعمائة حينما خرج اليها من قبل.

والواقع ان الذي فتح مكة بتلك السهولة دون حرب لم تكن كثرة المقاتلة من المسلمين فقط؛ وانما كان ذلك يعود الى أن الاسلام كان خلال المدنة قد فتح قلوب السواد الأعظم من أهل مكة قبل أن تطوقها جيوشه.

والى هذا فقد بدرت بوادر أخرى غير صلح الحديبية دلت على بعد نظر محمد ﷺ في الشؤون السياسية. ولعلّ توجيهه المسلمين شطر ما وراء جزيرة العرب كان من أحكم هذه البوادر: فالمؤرخون، عندما يذكرون السبب في توتر العلاقات بين محمد ﷺ وبين الروم ومعهم متنصرة العرب، يرجعون ذلك الى اغتيال رسول محمد ﷺ الذي بعث به الى ملك غسان الحارث بن شمّر يدعوه فيه الى الاسلام. وأمّا الذي يراه بعض رجال الدين فهو ان مبدأ العالمية في الإسلام[1] - هو الذي حمل محمداً ﷺ على التعرض للبيزنطيين حباً بنشر الدين. والواقع فإذا كانت حادثة اغتيال رسول محمد ﷺ في قرية مؤتة من أعمال البلقاء هي المصدر المباشر لذاك التوتر، واذا كان الحافز الديني لنشر الاسلام هو الباعث على توالي الحملات على تخوم الشام فإن الغاية من هذه

---

(١) «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً» (سورة سبأ) «يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً» (سورة الأعراف).

الحملات كانت ترجع أيضاً الى أسباب اقتصادية وقومية واجتماعية لم أقرأ فيما قرأت من كتب المؤرخين من تعرض لتبيانها .

(١) الأسباب الاقتصادية

توترت العلاقات السياسية بين محمد ﷺ وبين الروم ومتنصرة العرب منذ غزوة مؤتة ، وازدادت توتراً بعد غزوة تبوك سنة ٦٣٠ م، وكان من نتائج هذا التوتر وقوع قطيعة في الأعمال التجارية بين الشام والمدينة . ولما دخلت مكة في حوزة محمد ﷺ ، في ذلك العام الميلادي، شملتها القطيعة . ومكة كانت بلداً عالمياً للتجارة العابرة، فأصيبت بأزمة مالية خانقة . ثم اشتدت ضائقتها أكثر فأكثر حينما بادر محمد ﷺ الى منع مشركي العرب من المجيء الى الحج . وان الآية التي جاء فيها هذا المنع تشير الى ما هو متوقع من اشفاق أهل مكة على مواردهم التي كانوا يجنونها من الحجاج، ومن الأسواق التي كانت تعقد في مواسم الحج حول بلدهم العتيق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة التوبة) .

وتشير هذه الآية أيضاً الى أن الله سيعوّض عليهم ما فاتهم من الأرباح التي كانوا يجنونها من مجيء سائر العرب للحج . ولعل هذا التعويض كان مداره رفع الحواجز السياسية التي قامت في العهد الاسلامي بين جزيرة العرب وبين الشام، فإذا بمحمد ﷺ يتحوّل الى توجيه أنظار المسلمين لفتح الشام بالقوة .

(٢) الأسباب القومية

أوجد محمد في جزيرة العرب أمة واحدة كانت من قبل قبائل متخاصمة ،

ولكل فريق منها نزعات لا تمت للوحدة القومية بصلة، وحررها من النفوذ الأجنبي. وجعل لها قاعدة واحدة هي المدينة، ولواء واحداً هو الاسلام. ولكن بعض العرب الذيـن يقطنـون فيما وراء شبـه الجزيـرة: في الشـام، وفي العراق، كانوا لا يزالون خارجين عن نطاق هذه الوحدة، وكانوا لا يزالون أيضاً أعداء لها، فشاء محمد ﷺ بحملاته على الشام، وعلى آل غسان حلفاء الروم هناك، أن يضمهم الى الجامعة العربية الاسلامية تمهيداً لالحاق آل لخم في الحيرة بهم حتى لا يبقى أحد من العرب خارجها. وكان يرمي من وراء ذلك أيضاً الى الاستعانة بهؤلاء وأولئك، بعد دخولهم في الحظيرة العربية، على فتح البلاد المجاورة.

(٣) الأسباب الاجتماعية

كانت القبائل العربية مفطورة على مواصلة القتال فيما بينها بحكم ظروف الحياة التي كانت تحيط بها. وقد وجدت في الحروب، التي استمرت احدى عشرة سنة، بين المسلمين وبين المشركين من العرب، متسعاً لتأمين رغباتها الموروثة. فلما انتهى هذا الصراع بينهما، بفتح مكة قاعدة الوثنية، وبسيطرة الاسلام عليها وعلى سائر جزيرة العرب، واجهت هذه القبائل حالة اجتماعية جديدة لا تتفق مع حياتها القديمة وما فيها من عادات. ذلك بأن الاسلام قضى على النزعات الجاهلية، وعلى العصبية القبلية، وجعل المسلمين، مهما اختلفت قبائلهم وأصولهم، اخواناً رحماء بينهم، وحرّم على الاخوان القتال والبغي، وأمرهم جميعاً بأن يقاتلوا الفئة الباغية منهم حتى تفيء. ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(سورة الحجرات) فحيال هذا التنظيم الاجتماعي الجديد واجهت هذه القبائل فراغاً طبيعياً، ما كان ليملأه الا القتال فيما وراء شبه جزيرتهم لنشر رايتهم الجديدة راية الإسلام.

لذلك كان من حسن سياسة محمد ﷺ مراعاته الوضع القائم وتوجيهه الأنظار شطر الشام، وهي أقرب البلاد اليهم، وألصقها بهم في الشؤون التجارية، وفيها فريق من العرب الخلص، وفيها سلالات من العرب القدماء. وهو لم يكتف بما أحرزه من نصر في غزوة تبوك (٦٣٠ م)، بل جهز جيشاً بعد عامين من ذلك، كان فيه كبار الصحابة أمّر عليه أسامة بن زيد، وكانت وجهته البلقاء من أعمال عمّان. فكانت هذه الغزوات التي أنفذها النبي في حياته طليعة غزوات أخرى بعد مماته سرعان ما فتحت الشام والعراق وما بعدهما.

فهذه الأسباب الاقتصادية والقومية والاجتماعية بالاضافة الى الحرص على نشر الدين هي التي حملت محمداً ﷺ على توجيه المسلمين لفتح الشام. والجدير بالتنويه في ختام هذا الفصل ما كان لمنع مشركي العرب من الحج، بعد غزوة تبوك، من أثر بالغ في نشر الاسلام. وهو يدل على بعد نظر محمد ﷺ في الشؤون السياسية. فقد بعث، في السنة التاسعة للهجرة، أبا بكر الى مكة للحج بالناس وقفّاه بعلي بن أبي طالب وأمره بقراءة آيات من أول سورة براءة، وان ينادي بالحجيج «ان لا يطوف بعد العام عريان، ولا يحج مشرك». فهذا المنع من الحج للمشركين نزل عليهم نزول الصاعقة. أنهم ألفوا الحج منذ القديم الغابر، واقامة الأسواق حول مكة في المواسم، ودرجوا على سنة التعبد في الكعبة عند أقدام آلهتهم. وقد ارتضوا مكرهين بما حدث من تطهير الاسلام للكعبة من الأوثان، ولكنهم كيف يطيقون صبراً على منعهم من الدخول الى مكة، وعلى حظر الحج عليهم، وحرمانهم ومكاسبهم، والعادة طبيعة ثانية؟

ما العمل وليس في طاقتهم الصبر على هذا المنع، وليس بين أيديهم حول

ولا طول للقضاء على هذا الأمر الصادر من صاحب السلطان؟

لم يكن أمامهم للخروج من هذا المأزق الا الدخول في الاسلام، لذلك فقد خفوا، قبل موعد السنة المقبلة للحج، الى انفاذ وفودهم الى النبي في المدينة لتعلن أمامه اسلامهم.

والى هذا فقد كانت لمحمد ﷺ سياسة ايجابية حكيمة في توكيد الاسلام بين فئة كانت ارتضت به مصانعة ومسايرة للظروف، وكان الايمان لما يستحكم في قلوبها، وهي فئة معروفة بالمؤلفة قلوبهم. وكان بينها فريق ممن أعلنوا اسلامهم بعد فتح مكة، وفريق آخر استمهلوا النبي وقتئذ في اسلامهم فأمهلهم، ورافقوه في حملته على الطائف. فعند تقسيم الغنيمة التي أصابها المسلمون في هذه الحملة أعطى زعماءهم قسماً من نصيبه من الغنائم. فطابت بذلك نفوسهم، وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه، خصوصاً وقد رأوا فيه أباً عطوفاً لا يدع لأحدهم حاجة الا قضاها له. وكذلك فعل في غزوة حنين فجعل المال وسيلة لتأليف قلوب كانت قبل أسابيع تتنكر له.

وكان من نتيجة اسهام المؤلفة قلوبهم في الغنائم، وفي الزكاة أسوة بالمجاهدين، حافزاً لعدد كبير منهم على الأخلاص في اعتناق الاسلام.

بل ان سياسة محمد ﷺ في تأليف القلوب تجاوزت هذه الفئة، وشملت حتى الذين حافظوا على دينهم في جزيرة العرب: فلما بعث أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل كل واحد منهم الى مخلاف باليمن للدعوة الى الاسلام، وذلك بعد أن أصبح سيّد الجزيرة بلا منازع، زوّدهما بقوله: «بشّرا ولا تنفّرا». وكذلك لما بعث خالد بن الوليد الى نجران أوصاه ان يدعو أهلها ثلاثاً الى الاسلام قبل أن يخيّرهم بين القتال وبين اداء الجزية اذا لم يرتضوا بالاسلام ديناً.

فبهذه السياسة الحكيمة، السياسة المتطورة بحسب الظروف والممكنات استطاع محمد ﷺ أن يؤلف القلوب حوله وأن يخرج المترددين من ترددهم، ويدفعهم الى الاسلام. وبالتالي استطاع أن يخرج من معركة النضال التي استمرت ثلاثاً وعشرين سنة منتصراً، وأن يجعل لواء الاسلام في حياته خفاقاً من شواطيء بحر العرب في الجنوب الى تخوم الشام في الشمال، ولا بدع « فالرأي قبل شجاعة الشجعان ».

الفصل السابع

تطور العلاقات بين محمد ﷺ وأهل الكتاب

قامت دعوة محمد ﷺ بمكة على أساسين: الدعوة الى ما دعا اليه الأنبياء والرسل من قبل من الايمان بالله الواحد الأزلي وبكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر. والدعوة الى المعروف، والنهي عن المنكر. وكانت دعوته هذه تتميز بالرفق والموعظة الحسنة والارشاد. أما التفاصيل في العقيدة الاسلامية فقد جاءت من بعد بحسب المناسبات، وبمقتضى سنة التطور. وآية ذلك ان الآيات القرآنية التي تتعلق بالمسيح وردت منذ مجيء وفد نصارى نجران الى المدينة يسألون محمداً ﷺ عن عيسى وأمه، ويجادلونه فيها، وتوالت من بعد تباعاً بحسب الظروف والمناسبات.

أما ثورة محمد ﷺ منذ البداية فكان مدارها هدم قواعد الشرك بالله، أو بكلمة أخرى تقويض أركان الوثنية، وكان هدفها أيضاً اصلاح المجتمع من الموبقات.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
(سورة الأنعام).

فكان من الطبيعي أن يرحب أهل الكتاب، على اختلاف مللهم، بهذا المبشر الجديد الذي يشعل الثورة على الوثنية عدوتهم، والذي يحمل علم الاصلاح الاجتماعي، وهو، في كل ذلك، يعلن انه جاء مصدقاً لابراهيم وموسى وعيسى وسواهم من رسلهم وأنبيائهم.

غير أن الظروف الطارئة، بعد ذلك، قلبت هذه العلاقات الطيبة التي كانت بين محمد ﷺ وبين اليهود والمسيحيين رأساً على عقب. وهذا ما سنشير اليه في هذا الفصل.

تطور العلاقات بين محمد ﷺ واليهود

لعلّ اليهود كانوا أشد الناس ترحيباً بمحمد ﷺ حينما أعلن نبوته. وما كان يرجع ذلك الى انهم وجدوا فيه مصدقاً لما بين أيديهم فقط، ولا لأن اليهود كانوا، ولا يزالون، يؤيدون كل ثورة جديدة على المجتمع على رجاء أن يكون لهم بها المخرج الى مصير أفضل وخير أوفر.

واليهود بمكة لم يكونوا حين ظهور الاسلام كثرة في العدد، كما هم في يثرب واليمن، بيد انهم كانوا بالنسبة لأهلها الفئة المثقفة. ذلك لأنهم ظلوا قروناً تحت حكم الرومان والبيزنطيين، وتأثروا خلالها بالثقافة اليونانية. ويروي بعض المؤرخين انه كان يوجد بمكة، عند ظهور الاسلام، (١٧) شخصاً، وبالمدينة (١١) آخرون تعلموا على اليهود.

أما في يثرب وما حولها فكان اليهود كثيرين: بنو قينقاع في المدينة، وبنو قريظة في فدك، وبنو النضير على مقربة منها. وأكثرهم في تيماء. أما قاعدتهم فكانت خيبر تلك المدينة المحصنة، وهي وفدك وتيماء تقع تباعاً على الخط الشمالي التجاري الذي يصل يثرب بالشام.

وبالاضافة الى كثرتهم في هذه المنطقة فقد أصبحوا أصحاب الثروة فيها اذ جمعوا بين الأعمال التجارية والمصرفية والزراعية والصناعية، وأصبحوا بالتالي أصحاب النفوذ، ولا سيا بعد أن استطاعوا القاء المزيد من العداوة بين الأوس والخزرج. وهما أكبر قبائل العرب في المدينة.

ولما هاجر محمد ﷺ الى المدينة (٦٢٢ م)، أقبل عليه اليهود، وأحسنوا استقباله، وتقربوا منه، وحاولوا كسبه، فردّ تحيتهم بأحسن منها، وربط بينه وبينهم بروابط المودة باعتبار انهم موحّدون. وبلغ من مسايرته لهم انه كان يصوم يوم صومهم، على ما روى حسين هيكل (حياة محمد ﷺ ص ٢٢٠)، وترك قبلة أبيه ابراهيم الى قبلتهم: بيت المقدس. ثم ما كانت الأيام لتزيده باليهود، أو لتزيد اليهود به إلاّ مودة وقربى حتى وصل الأمر بينه وبينهم الى عقد معاهدة صداقة وتحالف تقرر حرية الاعتقاد.

وما كان اليهود يرمون من كل ذلك الى سبق النصارى في كسب محمد ﷺ فقط، بل كانوا يتوخون أيضاً كسبه حيال مواطنيهم الأوس والخزرج، أولئك الذين ساعدوا البيزنطيين ومتنصرة العرب يوم أغاروا على اليهود في يثرب وما حولها وفتكوا بهم.

فما عدا ممّا بدا حتى بدّل اليهود مودتهم بعداء لمحمد ﷺ؟

ما كان اليهود يتوقعون أن تشتد شوكة محمد ﷺ في المدينة الى هذا الحد، وما كانوا يتوقعون أن ينتشر دينه حتى يخلص الى أوساط ملتهم، والى اسلام بعض أحبارهم. فلما جمع محمد ﷺ بين الأوس والخزرج وأصبح سيد المدينة بلا منازع. ولما أسلم عبدالله بن سلام، وهو من كبار أحبارهم، فكروا في مصيرهم فأجمعوا رأيهم على الكيد له. وقد استهلوا ذلك بالجدل وبمناقشته ومناقشة المسلمين في دينهم. وكان نقاشاً شديداً حتى كان يتعدى أحياناً الكلام

الى الاعتداء بالأيدي . ولكن محمداً ﷺ قابلهم في أول الأمر بالصبر عليهم، وبالحسنى:

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (سورة البقرة) .

غير أن هذا المنطق السليم ما كان ليخمد النار المتأججة في أحشائهم، بل عمدوا الى الوقيعة بين المهاجرين والأنصار، بينما كانوا يواصلون السعي لاثارة الأحقاد القديمة التي كانت بين الأوس والخزرج تلك الأحقاد التي جعل الاسلام نارها برداً وسلاماً . أما وان السياسة لم تجد نفعاً في ردعهم فلم يسع محمداً ﷺ، من بعد، الا أن يلجأ الى القوة من أجل الدفاع عن الاسلام . فأجلى بني النضير عن المدينة، وبني قنيقاع عن ديارهم بجوار فدك .

وأما وان اليهود شعروا، بعد ذلك، بالضعف حيال محمد ﷺ فقد اعتزموا الاستعانة عليه بأشد خصومه. فأرسلوا وفداً منهم الى قريش بمكة شرع يهوّن عليهم فتح المدينة . ولما استدرجت قريش الوفد لابداء رأيه في كل من الاسلام والوثنية، فرغم أن اليهود متفقون مع الاسلام في الوحدانية لم يتورع الوفد عن التصريح لقريش بأن ملتهم خير من ملة الاسلام . وهذا ما أشار اليه القرآن بالآية:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ● وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء) .

ولما آنس الوفد اليهودي من قريش موافقتهم على السير للمدينة لاستئصال الاسلام راحوا يثيرون غطفان وسائر القبائل التي لها ثأر على محمد ﷺ، وما زالوا يحرضونهم حتى زحف هؤلاء مع قريش في الغزوة الكبرى المعروفة بغزوة

الأحزاب وغزوة الخندق لفتح المدينة (٦٢٧ م). وكان بنو قريظة في فدك على عهد مع النبي، فنقضوا عهدهم وهمّوا بالالتحاق بالجيوش الزاحفة على المدينة على أمل الاشتراك في الانتقام من المسلمين. غير ان هذه الجيوش، على كثرتها، وقفت خارج المدينة أمام الخندق الذي حفره محمد ﷺ حولها، وطال وقوفها حتى يئست واختلفت فارتدت على أعقابها خائبة.

وماذا بعد؟

هل من المعقول أن ينصرف محمد ﷺ عن اليهود، وهم الذين ألبوا عليه الخصوم، وبلغ بهم النفاق في سبيل الكيد له حدّ اعلان وفدهم بمكة تفضيل الوثنية على الاسلام؟

وهل من المعقول أن ينصرف عنهم وهو يتوقع أن يثيروا عليه البيزنطيين أو الفرس كما أثاروا العرب؟

كلا. فلا بد اذن من تصفية هؤلاء الأعداء الذين يعيشون في قلب الأوساط الاسلامية قبل أن يوفّقوا بتدبير مؤامرة أخرى قد يقضون فيها على الاسلام. لذلك ما أن تراجعت الأحزاب عن المدينة حتى انقض علي بن أبي طالب على بني قريظة، واستولى على معاقلهم. ولكن ذلك لا يكفي ما زالت خيبر تعجّ بأقوى جموعهم متترسة وراء معاقل هي أمنع معاقل اليهود. وخيبر لا تبعد عن المدينة أكثر من ماية ميل. فرضي محمد ﷺ بمهادنة قريش للتفرغ لخيبر ولسائر اليهود في البلاد المجاورة، وسار اليها في مطلع العام السابع للهجرة (٦٢٨ م)، وشدد الحصار عليها. وقد دافعوا عنها دفاع الأبطال، ولكنهم لم يستطيعوا، في آخر الأمر، إلاّ الاستسلام بعد سقوط معاقلها واحدة بعد واحدة.

وكان أهل خيبر يتوقعون أن يكون مصيرهم الجلاء عنها أسوة ببني

قنيقاع، وبني النضير، وبني قريظة الذين أجلاهم محمد ﷺ عن ديارهم عقب الظفر بهم. ولكن محمداً ﷺ، وقد أمن من شرهم، آثر الرأفة بهم فأبقاهم على مزارعهم، وجعل لهم حصة في مواردها لقاء عملهم. وظلوا فيها حتى أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب.

ولما علم اليهود، في فدك وتيماء وغيرها، بأمر خيبر وقع الرعب في قلوبهم فخف أهل فدك الى مصالحة النبي على نصف أموالهم، وخف أهل تيماء الى الرضوخ واداء الجزية من غير قتال.

وكان النبي قد ضرب الجزية أيضاً على يهود البحرين وجيرانهم قبل نحو عام من فتح خيبر، ثم لما دانت اليمن له بعد فتح مكة أصبح يهود جزيرة العرب كلهم رعية من رعاياه. على انه رغم ما أسلفوا من الكيد له والمؤامرات عليه لم يعاملهم معاملة المشركين بل كان يكتفي منهم باداء الجزية لقاء حمايتهم على أن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين من الحقوق والواجبات.

تطور العلاقات بين محمد ﷺ والنصارى

كانت النصرانية، في فترة الجاهلية، قد انتشرت في جزيرة العرب، وفيما حولها من الأقطار الآهلة بالقبائل العربية. وكانت مكة من أحفل بلاد الجزيرة بالجوالي المسيحية. ومنهم التجار، ومنهم الصناع، ومنهم المبشرون. وكان بعضهم مقيماً فيها، بينما كان البعض الآخر يقصدون الى أسواقها في أيام المواسم للاتجار والتبشير.

وكان محمد ﷺ على اتصال بالمسيحيين، على غرار سائر مواطنيه، وذلك برحلاته الى الشام واليمن. وقد بدأ اتصاله بهم مذ كان يافعاً حينما رافق عمه أبا طالب في سفرة له الى الشام. وقد اجتمع وقتئذ في بصرى بالراهب بحيرى (سرجيوس)، ثم استمرت اتصالاته بهم. ولما قصد الى الشام للمرة الثانية،

اجتمع كذلك في بصرى براهب آخر اسمه نسطور.

وقد حافظ محمد ﷺ على ولائه للنصارى بعد البعثة. وكان يجالس بعض أعاجمهم في مكة. منهم عبدالنبي الحضرمي، وجبر. مما جعل المشركين يزعمون أن هؤلاء هم الذين يعلّمون محمداً ﷺ. وكانوا يقولون لهذه المناسبة: «اذا كان لأحد أن يخرج على دين آبائه فالنصرانية أولى». ولقد ردّ عليهم القرآن بالآية: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (سورة النحل).

على أن النصارى، كانوا يبادلون محمداً ﷺ الود بالود، مغتبطين بهذا الدين الجديد الذي ظهر في جزيرة العرب مصدقاً بعيسى ومبجلا له ولأمه، خصوصاً وهو يدعو الى مثل ما كان يدعو اليه المسيح من أخوّة الإنسان للإنسان، ومن التنويه بالسلام.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (سورة الفرقان).

وتعدّى اغتباطهم بمحمد ﷺ هذه الناحية الدينية الى الناحية السياسية: اليس هو على اتفاق مع أهل الكتاب لتحرير جزيرة العرب من الوثنية؟ ثم أليس هو قد أظهر تحزّبه للروم ضد فارس في مناسبات عدة؟ بلى واذا قدّر له النجاح فسيكون النجاح مزدوجاً اذ يحرر جزيرة العرب من نفوذ الفرس والمجوسية، فضلاً عن الوثنية.

وفي ظلال هذه العواطف المتبادلة أمر محمد ﷺ المسلمين مرتين (٦١٤ و٦١٥ م) بأن يهاجروا الى الحبشة فراراً من اضطهاد المشركين وأذاهم. وفي ظلال هذه العواطف المتبادلة أحسن النجاشي وفادة هؤلاء المهاجرين، ورد رسل قريش خائبين عندما جاؤوا، في الهجرة الأولى، يطلبونهم. وظل يتودد

الى النبي، ويتحفه بالهدايا. كما ان النبي ظل يحفظ له ذكرى اياديه البيضاء حتى انه لما علم بوفاته نعاه الى المسلمين، وخرج الى المصلّى وصلى عليه مع أصحابه وكبر أربع تكبيرات.

أما عطف محمد ﷺ على الروم وتأييده لهم ولسائر النصارى والمجوس فقد ظهرا في مناسبات عدة أتى على ذكرها القرآن. فحينما تحدث القرآن عن مأساة الأخدود في نجران التي وقعت سنة (٥٢٥ م)، أي قبل نصف قرن تقريباً من مولد محمد ﷺ، عدّ ضحاياها المسيحيين من شهداء الايمان:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ • النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ • إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ • وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ • وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة البروج).

وشجب القرآن بطل هذه المأساة المتهود ذا نواس آخر ملوك حمير، وان لم يسمه، وعدّ عمله خروجاً على الدين.

ثم ظهر تأييد القرآن للروم على المجوس حينما أتيح لآل ساسان في عهد برويز أن يتغلبوا على هرقل ويدخلوا الشام ظافرين ٦١٤ م. وبشر المسلمين بنصر قريب يحرزه الروم على الفرس في سورة سميت باسمهم يوم كان العالم لا يتوقع أن تقوم لهم قائمة بعد ذلك الفشل الذريع.

ثم اضطر محمد ﷺ للهجرة الى المدينة، فاذا بنصاراها يرحبون بمقدمه في طليعة المرحبين به من أهلها. وازدادوا اعجاباً به واخلاصاً له وتقرباً منه حينما رأوه يجنح، منذ استقرّ في يثرب، الى السلام، ويطلق للجميع الحرية بأن يعبدوا الله حسب طقوسهم. وان الآيات المدنيات التي كانت توحي إليه تباعاً تشير كلها الى هذه السماحة:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن

﴿... بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ (سورة المائدة).

﴿الٓمٓ ● ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ● نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ● مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران).

وكان النصارى، إذ يشاهدون مواطنيهم اليهود في المدينة يحاولون كسب هذا الرجل الكامل بأخلاقه، يرون انهم أحق به من سواهم. وكيف لا، وهو قد جاء مصدقاً للمسيح، بينا ان اليهود كانوا يعتبرونه دجالاً. ودار الفلك دورته فإذا بالنصارى يحافظون على ولائهم لمحمد ﷺ بينا انقلب عليه اليهود من بعد، فكان هذا الثبات المقرون بالاخلاص محققاً لهدفهم في كسب محمد ﷺ الى جانبهم. ولا أدل على ذلك من الآيات التي توالت من بعد وكانت تشيد بهم، وأشهرها تلك التي وردت في سورة المائدة:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

وقد بدرت في ذلك الحين بادرة جاءت دليلاً على ان ولاء المسيحيين لمحمد ﷺ لم يكن محصوراً في جزيرة العرب، بل كان عاماً، وحيث كانت توجد المسيحية، وأعني بهذه البادرة تلك الرعاية التي منحها عواهل المسيحية لرسل النبي الذين حملوا كتبه في الدعوة الى الاسلام. فقد وجه محمد ﷺ الى امبراطور قسطنطينية هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم . مـن محمد عبـدالله الى هـرقـل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنعليكاثم الأريسيّن (أي الرعية) . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الاّ نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون» .
وكتب مثل هذا الى النجاشي ، وهوذة بن علي ملك عُمان واليمامة ، والمقوقس عاهل الروم على الاسكندرية ، والحارث الغساني ملك تخوم الشام ، وكلهم من النصارى ، كما كتب أيضاً الى كسرى برويز بن هرمز عاهل الفرس ، والى ملك البحرين ، والى الحارث أمير حمير باليمن . ولا بد أن يكون قد بعث بمثل هذا الى ملك لخم بالحيرة ، ولكن المؤرخين اغفلوا ذكر هذه الرسالة ، ذلك لأنه ليس من المعقول أن يدعو محمد ﷺ كل هؤلاء الملوك والأمراء للاسلام ويغفل عن أمير الحيرة ، فبينما أحسن هرقل وأكثر عواهل المسيحية استقبال حاملي كتب محمد ﷺ ، فإن كسرى أمر عامله على اليمن بازان أن يأتيه بهذا الرجل الذي تجاسر على الكتابة اليه بمثل ما كتب . والواقع أن الغضبة التي أظهرها برويز لا ترجع الى فحوى الكتاب فحسب ، بل مردّها الى انه كان يعلم أن محمداً ﷺ صاحب الرسالة انما كان مؤيداً للنصارى وللروم أعدائه ، ذلك بأن الفرس لم تكن تخفى عليهم خافية من أحوال شبه جزيرة العرب .

ولكن هذه العلاقات التي كانت وثيقة بين الاسلام والنصرانية لم تلبث أن انقلبت الى خصومة بفعل السياسة . وكان العرب المتنصرة مصدر هذا التبدل . فآل غسان ، عمال البيزنطيين على بلاد الشام ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أعظم ملوك العرب المعاصرين ، كبُر عليهم أن يروا عربياً آخر يجرأ على الكتابة الى ملكهم الحارث بن أبي شمر على نحو ما كتب محمد ﷺ ، وأن يتجاسر ، مع ذلك ، على دعوة سيدهم هرقل الى الاسلام ، هذا الامبراطور العظيم الذي ثأر

للروم من الفرس، وظل يطارهم حتى عاصمتهم نينوى (٦٢٩ م)، والذي استعاد منهم الصليب وأعاده بحفاوة عظيمة الى القدس.

لذلك فإن الحارث المشار اليه ما أن تناول كتاب محمد ﷺ حتى رماه الى الأرض، وأرغى وأزبد، وأمر بالخيل أن تنعل، وهمّ بالزحف على المدينة، وكاد لولا أن هرقل حال بينه وبين ما أراد. ومع ذلك فإن حامل كتاب محمد ﷺ لم يسلم من آل غسان. فقد قتله شرحبيل بن عمرو النائب على كورة بصرى، في غضون عودته إلى المدينة، وذلك في السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م).

وكان هذا العدوان السبب الأول فيما حدث بعد ذلك بين محمد وبين آل غسان، ومن ورائهم الامبراطورية البيزنطية، من حروب لم تقض على العلاقات الطيبة التي كانت متوثقة بينهما فقط، بل تناولت العلاقات بين المسيحية والاسلام على وجه عام.

لقد كان نصارى العرب وغيرهم من المسيحيين القاطنين في شبه الجزيرة يعتبرون امبراطور القسطنطينية حامي حمى الدين، والمرجع الأعلى لهم. وكانوا يذكرون للبيزنطيين أمثلة على حمايتهم لهم أثناء الشدة، وأبرزها حينما أوعز الامبراطور إلى النجاشي أن يحتل اليمن ثأراً لأهل نجران في أعقاب مأساة الأخدود المذكورة. وكان الروم من جهة ثانية يعتمدون على متنصرة العرب، ليس في الشام فحسب، بل وفي اليمن وسائر الجزيرة، ذاكرين لهم خدماتهم، ولا سيما في غضون الحروب التي كانت متصلة بين الروم والفرس. ويشفعون هذه الذكريات بشتى المساعدات لهم فيكرمون زعماءهم، ويبعثون اليهم البعثات الدينية، ويبنون لهم البيع والكنائس، هذا فضلاً عن تمويل مشاريعهم العامة والخاصة، وذلك على غرار ما يفعل الغرب الآن في مساعدة مسيحي الشرق سياسياً ومالياً.

واليكم حادثة وقعت في عهد محمد ﷺ تدل على ما كان بين البيزنطيين وبين نصارى جزيرة العرب من روابط وثيقة مبنية على تبادل المنافع والمصالح. روى هيكل (حياة محمد ﷺ ص ٢٣٣) انه لما جاء وفد نصارى نجران الى المدينة لزيارة النبي كان أحدهم أبو حارثة «أكثرهم علماً ومعرفة فأدلى الى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد ﷺ فلما سأله رفيقه: «فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟» كان جوابه: «يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم. (ويعني البيزنطيين) شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبو إلاّ خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى».

فلما وقعت الواقعة بين محمد ﷺ وبين الروم منذ سرية مؤتة (٦٢٩ م) تصدع ما كان بينه وبين نصارى العرب من تواد وحسن علاقات. بل ان هؤلاء أصبحوا عيوناً عليه لأعدائه، وخصوصاً اليهود وان اضمروا هذه الخصومة. هذا الى أن بعض رجال الدين شرعوا يدبرون المؤامرات، ويجمعون الأموال باسم النضال عن المسيحية.

كل ذلك كان حافزاً لمحمد ﷺ على الحذر منهم، وعلى التشديد عليهم حتى اذا حان موعد تنظيم الدولة، وتلا علي بن أبي طالب بمنى في موسم الحج الآيات الأول من سورة براءة كان بينها سورة تندّد برجال الدين هؤلاء، بعد أن كان القرآن قد نوّه بهم من قبل، وأشاد بذكرهم.

«يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدّون عن سبيل الله. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم». (سورة التوبة).

وفي هذه السورة دعا القرآن الى قتال الفئة التي اعتبرها في عداد المشركين من أهل الكتاب حتى يؤمنوا، أو يؤدوا الجزية. فمنهم من أسلم ومنهم من

اختار الحفاظ على دينه، وأدى الجزية . وبذلك أصبحت جزيرة العرب كتلة واحدة ليس فيها للوثنية أثر، وليس للأجانب فيها نفوذ، وأضحت بلاد العرب خالصة للعرب .

الفصل الثامن

تطور العلاقات السياسية بين محمد ﷺ والدول

كان العالم على عهد محمد ﷺ كثير الشبه بعالمنا المعاصر من حيث الانقسام الى كتلتين: شرقية وغربية كانتا تتصارعان في سبيل المزيد من السيطرة على الأمصار، وعلى التوسع في الاستعمار. وكان الفرس في ذلك العهد يمثلون الكتلة الشرقية، بينما كان البيزنطيون يمثلون الكتلة الغربية.

وفي أيام يوستنيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥ م) صفا الزمن للامبراطورية البيزنطية ردحاً من الوقت، لأن هذا الامبراطور وفق بقائد من خيرة القادة، وهو بليزاريوس الذي لم يكتف برفع أعلام قسطنطينية على روما، بل خف الى افتتاح الشرق مبتدئاً بشمال أفريقية.

وصادف وقتئذ أن كان يتسنم عرش الأكاسرة الفرس عاهل يضاهي في عظمته يوستنيانوس، وهو كسرى انوشروان الملقب بالعادل من آل ساسان، فوقف في وجه المطامع البيزنطية موقفاً حازماً، خلال حروب استمرت عشرين سنة (٥٤١ - ٥٦١ م) حتى اذا صارت له المبادرة انقضّ على الامبراطورية البيزنطية. وقد انتصر عليها وأجبرها على عقد صلح أرغمت فيه على أن تؤدي جزية للفرس تقدر بثلاثين ألف دينار من الذهب كل عام.

ومات يوستنيانوس قبل بضع سنين من مولد محمد ﷺ تاركاً لآل ساسان

الفرصة لأن يتمتعوا بأعظم نفوذ في العالم.

العالم العربي قبيل محمد ﷺ في الناحية السياسية

ما كان العرب على رأي سياسي واحد ابان الصراع الطويل بين الفرس والروم؛ بل كانوا وقتئذ، كما هم اليوم خلال الحرب الباردة القائمة بين الكتلتين الشرقية والغربية، اما أنصاراً للفرس، واما انصاراً للروم. فالعرب الذين كانوا يقطنون خارج شبه الجزيرة كانوا فريقين: فريق آل غسان في الشام وما يليها من أعمال البيزنطيين، وفريق بني لخم في الحيرة وما يجاورها من أعمال الفرس. وكان الفريقان العربيان يقاتلان ويتقاتلان في سبيل اعلاء كلمة الدولة التي ينتسب كل منهما اليها. وأما عرب الجزيرة فكانوا، على وجه عام، حزباً لكسرى، عدو النجاشي، على قيصر ما عدا المتنصرة منها فكانوا بتأثير الجامعة الدينية، يميلون الى عواهل المسيحية.

أما أسباب تأييد شبه الجزيرة العربية لفارس فترجع الى الأمور التالية:

- كان اليهود في جزيرة العرب عمالاً أقوياء لفارس، وعيوناً لها على الروم. ذلك لأنهم لم ينسوا الارهاق الذي أصابهم من قبل الرومان فالبيزنطيين أيام كانوا في الشام، ولم ينسوا اجلاءهم قسراً وعنوة عن فلسطين. فساقهم حب الانتقام الى التطوع للفرس. وهؤلاء غمروهم بالمال، واعتمدوا عليهم في أغراضهم. ولليهود أساليبهم في توجيه الناس فاستطاعوا بها أن يوجهوا العرب شطر فارس.
- كان عبدة الأوثان في جزيرة العرب يجدون في مجوسية فارس قرابة دينية لهم لا يجدونها في التوراة والانجيل. وشبيه الشيء منجذب اليه.
- كان لملوك حمير باليمن نفوذ معنوي على سائر العرب يشبه نفوذ الخلفاء على المسلمين في العهد الاسلامي. وكان هؤلاء الملوك من أنصار الفرس،

الذين طالما أيدوهم ضد الأحباش خصومهم. كما ان اليمن، كانت على وجه عام، لا تزال تذكر أيادي الفرس البيضاء عليهم يوم ثار سيف بن ذي يزن على الأحباش المحتلين واجلاهم سنة ٥٧٥ م.

• كان الفرس بعد تحريرهم اليمن من الأحباش قد جعلوها ايالة من ايالاتهم بعد قليل من استقلالها، واتخذوا منها نقطة انطلاق لبسط نفوذهم على سائر أمصار شبه الجزيرة العربية. وقد استعانوا منذ ذلك بنفوذ اليمن التقليدي، الذي كان لها على سائر العرب، لتقوية سلطتهم في كل ناحية من النواحي العربية.

وربما كان أعظم الأسباب لاجماع جزيرة العرب على تأييد الفرس يرجع إلى محاولة أبرهة، عامل الدولة الأكسومية الحبشية على اليمن، تنصير العرب بالقوة. فقد كانت الحبشة احتلت اليمن سنة ٥٢٥ م، في أعقاب مأساة نجران المعروفة بالأخدود انتقاماً للنصارى من مرتكب هذه المأساة ذي نواس آخر ملوك حمير. وقد فكر أبرهة المشار اليه أن يحوّل العرب الى النصرانية، ومهّد لذلك ببناء كاتدرائية عظيمة في صنعاء عاصمة اليمن أحسن صنعها وزخرفها حتى كانت تعدّ من أفخم كاتدرائيات ذلك العصر. وقد سماها القلّيس، وهو اسم يوناني معناه البيعة. أما الخطوة الثانية التي فكر فيها أبرهة فكان مدارها هدم الكعبة بمكة، وهي قاعدة الوثنية، على أمل أن يحوّل وجهة العرب الى كاتدرائية صنعاء في سبيل تنصيرهم. وعلى هذا القصد زحف على مكة سنة ٥٧٠ م، وهي السنة التي ولد فيها محمد ﷺ، وتُعرف بعام الفيل نسبة لفيل كان يركبه أبرهة. ولم تكن الفيلة معروفة من قبل عند العرب.

على أن أبرهة وان لم ينجح في محاولته هذه، وعاد عن مكة خائباً لوباء انتشر بين جنده إلاّ انه خلّف في نفوس العرب عموماً، والعدنانيين خصوصاً،

كرهاً لأولئك النصارى الذين همّوا بتهديم بيتهم العتيق؛ كما انه خلّف أيضاً رغبة صادقة عند العرب في توثيق علاقاتهم بفارس، ولا سيما بعد أن أجلت الأحباش عن اليمن، واستقرت فيها.

ففي هذه الظروف السياسية نشأ محمد ﷺ، وكان، حيث نزل في جزيرة العرب، لا يسمع أحداً يذكر الفرس الا ويذكر أخبارهم مقرونة بالبطولة وبالحكمة، ومشفوعة بالثناء والتبجيل. أمّا اذا ذكرت الحبشة، أو الامبراطورية البيزنطية فيرادف ذكراهما فيض من الافتراءات اليهودية التي كانوا ينسبونها لهما، وأخصها مساوىء الأحباش في اليمن أيام احتلالهم لها، وآخرها محاولة عاملهم أبرهة تنصير العرب بالقوة. هكذا كان اتجاه الرأي العام في جزيرة العرب، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في وجه نار مشتعلة؛ من ورائها اليهود يزيدون ضرامها؟ بل أي بطل ذاك الذي لم يقف في وجه الرأي العام فحسب. وانما استطاع أن يقلبه رأساً على عقب، وان يحوّل العرب عن حزب كسرى الى حزب قيصر؟

الانقلاب السياسي الذي حققه محمد ﷺ في جزيرة العرب

ولد محمد ﷺ وشب أيام كان الفرس يترنحون بخمرة انتصارهم على البيزنطيين، وفي غضون ما كانوا يبسطون نفوذهم على شبه الجزيرة العربية. ولما بشر بدينه على أساس انه جاء مصدقاً لما قبله من الأنبياء والرسل، وداعياً الى العزوف عن عبادة الأوثان قابله الناس مقابلات مختلفة: فأهل الكتاب، ارتاحوا له على اعتبار انه جاء مؤيداً لهم ضد الكفرة والمشركين، وأما عباد الأصنام، فقد انكروا دعوته، ثم ناصبوه العداء مذ تعرض لتسفيه آلهتهم.

وكان النصارى أشد الناس ترحيباً بالاسلام اذ اعترف بالمسيح على انه كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه، واعتبروه فرقة من فرقهم المتعددة، بينما

ان اليهود كانوا يزعمون أن المسيح انما هو دجال، وهو غير المسيح المنتظر. وكان هذا التفاهم الروحي بين محمد ﷺ والنصارى الذي يلتقي عند عيسى مدعاة تقارب بينه وبينهم في العلاقات الاجتماعية مشفوع بالتواد والتعاطف.

وهذا ما تشير اليه هجرة المسلمين الى الحبشة دون سواها حينما اضطروا مرتين لمغادرة مكة فراراً من أذى قريش، وهذا ما يشير اليه ما لاقاه أولئك المهاجرون من الكرام.

على أن التقارب بين محمد ﷺ وبين النصارى لم يلبث أن تعدى حدود التعاطف الى الناحية السياسية: كان النصارى في جزيرة العرب حزباً لقيصر ضد كسرى لما كان بينهما من جامعة دينية، ومن علاقات تقليدية فإذا بالمسلمين وعلى رأسهم محمد ﷺ ينحازون اليهم في هذه النزعة السياسية دون سائر أهل الجزيرة العربية الذين كانوا حزباً لكسرى ضد قيصر.

وقد بدا انحياز المسلمين هذا مكشوفاً ظاهراً خلال الحروب التي كانت ناشبة بين هذين العاهلين. ذلك بأن البيزنطيين الذين منوا بالفشل سنة ٥٦١ م حاولوا بعد حين، في عهد هرقل الأول، ان يستردوا كرامتهم السليبة، فاشتبكوا منذ سنة ٦١٠ م مع الفرس بحروب استمرت سنين، وكانت سجالاً بينهما . ولكن ما أن تبوأ كسرى برويز عرش فارس حتى أتيح له أن يحرز انتصاراً حاسماً في اذرعات (درعا) وبصرى من أعمال الشام. فاستولى بعد ذلك على سورية وشمالي أفريقية.

وكان لهذا الانتصار الذي أحرزه الفرس على الروم وقع عظيم في العالم. فقد فرح به مؤيدو فارس، وحزن من أجله أنصار البيزنطيين. وكان المسلمون في عداد الذين أصابهم حزن شديد لانكسار الروم، وازدادوا ألماً على ألم من جراء التحدي الذي كانوا عرضة له من قبل المشركين الذين كانوا يقولون

لهم: « انكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب مثلكم. وقد ظهر اخواننا أهل فارس على اخوانكم من الروم، ولنظهرنّ عليكم جميعاً».

فاذا بالنبي يخفف عنهم آلامهم ويبشرهم بما أوحي اليه:

﴿ الٓمٓ ● غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ● فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ● فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ● بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ● وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سورة الروم).

وكان أبو بكر، الملقب بالصدّيق لما اشتهر عنه من تصديق ما يوحى الى الرسول، أشد الناس فرحاً لهذه البشرى فلم يتمالك الا أن يخرج الى المشركين ويقول لهم: « فرحتم بظهور اخوانكم، فلا تفرحوا فوالله لتظهرن الروم على فارس. اخبرنا بذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم».

ولكن الوثنيين أصحاب فارس هزئوا به، وبما تنبأ رسوله. وتجاسر عليه أبيّ بن خلف الجمحي بقوله له: « كذبت يا أبا فضيل». فقال له أبو بكر: « أنت أكذب يا عدو الله. اجعل بيننا آجلاً أناحبك (أراهنك) عليه».

وقد تراهنا على عشر قلائص (ابل شابة)، وجعلا الأجل ثلاث سنين. ولما رجع أبو بكر الى النبي، ونقل اليه ما حدث. قال له محمد ﷺ مستدركاً: « ما هكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع، فزايده في الخطر (المال الذي حدد في الرهان)، وماده في الأجل». فخف أبو بكر الى لقاء ابيّ الجمحي، وعدّلا الرهان بالتراضي.

ثم اضطر محمد ﷺ والمسلمون الى الهجرة ليثرب (٦٢٢ م) قبل ان ينتهي موعد الرهان، ومات بعد ذلك أبيّ من جراح أصابته من يد محمد ﷺ في غزوة أحد، ولكن الرهان ظل مكفولاً عند ورثته حتى اذا انتصر الروم على

الفرس استوفاه أبو بكر من الورثة وتصدق به على الفقراء امتثالاً لأمر نبيّه . (العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب للمؤلف ص ٢١ ـ ٢٢) .

وقد فرح المسلمون فرحاً عظيماً بهذا الانتصار الذي أحرزه هرقل على الفرس . وكان فرحهم مزدوجاً لأن هذا الانتصار حدث ابان فوزهم في غزوة بدر؛ ولأنه كان فاتحة انتصارات أخرى للروم على الفرس انتهت بمطاردتهم لهم حتى عاصمتهم .

ويخيّل لي ، في هذه المناسبة ، ان الضغط الشديد الذي أصاب محمداً ﷺ والمسلمين من قبل مواطنيه المشركين في أعقاب اظهار تحيزه للروم واجماعهم على الاشتراك جميعاً في قتله ، ان هذا الضغط وهذا الاجماع انما يرجعان الى ايعاز خارجي صدر عن الفرس . فقد كان الفرس حريصين على التخلص من ذلك الرجل الذي ظهر في جزيرة العرب الداخلة في منطقة نفوذهم ، وكان ظهيراً للروم عليهم .

وهذا أمر ليس بمستبعد ، ونحن لا نزال نرى في عصرنا الحاضر كيف توجه الدول الكبرى الدول الصغرى سراً شطر سياسة وأمور تتفق مع مصالحها الخاصة . ومثلما لم تكن تخفى على الفرس خافية في جزيرة العرب كان البيزنطيون كذلك والأحباش يحيطون علماً بأنبائها ؛ والى هذا يرد اكرامهم حملة كتب محمد ﷺ التي دعاهم فيها الى الاسلام . فهو وان دعاهم الى تبديل دينهم ودين آبائهم ، الا انهم تقبلوا منه هذه الدعوة برحابة صدر ، خلافاً لكسرى ، ذلك بأنهم كانوا يعتبرون محمداً ﷺ مؤيداً لهم في السياسة ضد فارس ، ويقدّرون له مواقفه حيال النصرانية وحيالهم .

محمد ﷺ يحرر جزيرة العرب من النفوذ الأجنبي

كان محمد ﷺ ، قبل فتح خيبر ومكة ، قد بعث برسله في السنة السابعة

للهجرة (٦٢٨ م) الى الملوك وعمالهم يدعوهم للاسلام. وقد عاد أولئك الرسل سالمين ما عدا شجاع بن وهب حامل كتابه الى الحارث بن أبي شمر ملك غسان، فقد قتله شرحبيل بن عمرو الغساني في قرية مؤتة وهي من قرى البلقاء من أعمال عمّان، وكان شرحبيل والياً على الكورة من قبل البيزنطيين.

وقد اعتبر محمد ﷺ هذا العدوان غدراً لا يتفق مع سنن العرب، وعدّ السكوت عليه تجاوزاً لهذه السنن، فجهز جيشاً بأمرة زيد بن حارثة وجّهه في السنة الثامنة للهجرة، للثـأر من القتلة. وكانت هذه الغزوة بمثابة البداية لتبدل العلاقات بين المسلمين والروم. ذلك بأن البيزنطيين ما ان بلغهم مسير الجيش الاسلامي حتى خفوا لانجاد عاملهم شرحبيل بن عمرو بقوة كبيرة معقودة اللواء لتيودور القائد المعروف الملقب عندهم بباطرياس Patrias. وقد ردت هذه النجدة المسلمين على مقربة من مؤتة وذلك في عام ٦٢٩ م.

ولم يقف البيزنطيون عند هذا الحد، بل أغراهم هذا النصر، وأخافهم ما وقع بعده في جزيرة العرب من أحداث كان أهمها اخضاع محمد ﷺ لليهود ودخوله مكة فاتحاً وبسط سلطته على كافة الجزيرة. فعقدوا العزم على اكتساح المدينة والقضاء على سلطة محمد ﷺ قبل أن تستفحل. وقيل ان الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام الى يثرب أخبروا النبي ان الروم اجتمعوا مع لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من متنصرة العرب بغية غزو المدينة، وأخبروه ان مقدمة جيشهم زحفت ووصلت الى البلقاء.

وكان محمد ﷺ في كل حروبه لا يتربص حتى يأتيه العدو، بل يأخذ المبادرة، فخف بنفسه للقائهم على رأس جيش من المسلمين، وتقدم حتى بلغ تبوك، وهي في منتصف الطريق بين المدينة والشام، وذلك في السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠ م). ولكن أحداً من البيـزنطيين وعمالهم لم يتقـدم للقـائـه،

وآثروا التزام حصونهم. ولا أدري السبب. وهم كانوا لا يزالون يترنحون بنشوة النصر الذي أحرزوه على الفرس سنة ٦٢٧ م. ولعل التزامهم مواقعهم كان يعود لأسباب داخلية، ومن أهمها ايثار شعبهم السلام على الدخول في حرب جديدة بعد أن سئموا من الحروب التي استمرت عشرات السنين مع الفرس.

على أن النبي آثر أيضاً أن لا يتقدم أكثر شطرهم عملاً برأي عمر بن الخطاب ومن جاراه، واكتفى بارسال خالد بن الوليد من تبوك على رأس أربعمائة فارس الى دومة الجندل بالشام. وصادف ان واليها اكيدر بن عبدالملك، وهو من متنصرة العرب، كان مع أخيه في الصيد فأسره خالد وأتى به الى النبي، فافتدى نفسه بمال وصالح على اداء الجزية. وقد وصف حسين هيكل (حياة محمد ﷺ ص ٤٥٠) هذا الانتصار بأنه كان «أجدى مما كان لفتح مكة والانتصار في حنين وحصار الطائف». وربما كان في هذا القول مبالغة لأن فتح مكة كان، في الواقع، أعظم نصر لمحمد ﷺ. فهي كانت معقل الوثنية، وهو كان منذ أعلن نبوته يتوخى تهديم قواعد الشرك، وكان منذ استقر بالمدينة يتطلع الى مكة مترقباً أن يكون فتحها فتحاً لجزيرة العرب بأسرها. وكان الأمر كذلك: فما ان استولى عليها حتى دانت له الجزيرة وأقبل أهلها على الاسلام أفواجاً أفواجاً. هذا فضلا عن أن فتح مكة هو الذي حمى ظهر النبي من الأعداء الداخليين، ولولاه لما كانت غزوة تبوك، ولما كان الانتصار فيها.

وقد أقام النبي نحو عشرين يوماً في تبوك لم يلق فيها مقاومة، بل كان الذعر قد استولى عليها وعلى ما حولها من أهل البلاد التابعة للبيزنطيين، فمنهم من فرّ لا يلوي على أحد، وهي مدينة ايلات الآن على رأس خليج العقبة،

وجاء معه فريق من أهل جرباء وأهل أزرح (أزرع) وصالحوا النبي على اداء الجزية .

ويروي المؤرخون أن محمداً ﷺ بنى في غضون عودته الى المدينة عشرين مسجداً، وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه لأن الاسلام لم يكن وقتئذ قد انتشر فيما بين تبوك والمدينة الى حد يستدعي تعمير كل هذا العدد من المساجد. ولعل معنى ذلك انه صلى في عشرين مصلى ابان عودته .

وكانت غزوة تبوك خاتمة غزوات محمد ﷺ، على انها كانت في نفس الوقت محررة جزيرة العرب من النفوذ الأجنبي مثلما ان فتح مكة طهر هذه الجزيرة من عبادة الأوثان وحملتها . فالبيزنطيون أحجموا عن لقاء محمد ﷺ حينما تحداهم وتقدم الى تبوك، وتخلوا عن عمالهم في تلك المنطقة التجارية الهامة، وتركوهم يأتون محمداً ﷺ خاضعين، ويعاهدونه على اداء الجزية .

والفرس كانوا قد تحطموا منذ عام ٦٢٧ م، في أعقاب مطاردة الروم لهم حتى عاصمتهم نينوى، فاستهان بهم الناس، من بعد، وانفضوا من حولهم .

فلم يبق أي مجال من ثم للنفوذ الأجنبي في جزيرة العرب . ولم يبق فيها أي شأن لأحد غير محمد ﷺ الذي فتح قاعدة الوثنية وهدم أصنامها، ثم اتبع ذلك بتعرضه لأعظم دولة في ذلك العصر، وعاد متوجاً باكليل الغار . فاذا بالذين كانوا لا يزالون في جزيرة العرب يترددون يرسلون الوفود الى المدينة يعرضون اسلامهم . فكانت السنة العاشرة للهجرة سنة الوفود . وكان في عداد هذه الوفود وفد ثقيف أصحاب الطائف هذه المدينة التي امتنعت على المسلمين بعد فتح مكة، كما كان على رأس هذه الوفود رجالات من أرفع زعماء العرب من أمثال عديّ بن حاتم، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي . هذا الى أن ملوك حمير أوفدوا رسولاً يحمل كتاباً منهم الى النبي يعلنون فيه اسلامهم على حين أن

اليمن كانت من قبل متبوعة، وتأنف من أن تكون تابعة للحجاز، وكان عواهلها يطيب لهم أن يلقّبوا بالملوك.

ولقد أفرد ابن سعد في طبقاته خمسين صفحة كبيرة لوفادات العرب الى المدينة بعد غزوة تبوك، كما ان حسين هيكل أورد في كتابه حياة محمد ﷺ أسماء ثمانين قبيلة وبطنا من هذه الوفود مما يدل على أن جزيرة العرب جميعها دانت لسلطة محمد ﷺ دون سواه، أو بكلمة أخرى لسلطة الاسلام. وكانت النتيجة ان العرب الذين كانوا، في الأمس القريب، حرباً بعضهم على بعض أصبحوا بفضل محمد ﷺ أمة واحدة يظللها لواء واحد، وان العرب الذين كانوا، في الأمس القريب، إمّا أتباعاً للشرق أو للغرب أصبحوا، وقد نبذوا عصبية الجاهلية، ورفعوا عن أعناقهم نير الخضوع أو الانتساب للأجانب، أصبحوا أصحاب سلطة مستقلة لا شرقية ولا غربية.

على أن مطامح محمد ﷺ كانت، في الواقع، تتعدى هذه الحدود. فهو كان يودّ أن يوجه أنظار المسلمين الى البلاد المجاورة كيلا يظل الاسلام محصوراً في الجزيرة، وكيلا يبقى مهدّداً من قِبل هؤلاء متى سنحت لهم الفرص. وهو كان يتوخى رفع الحصار الاقتصادي الذي ألقاه الروم على جزيرة العرب. لذلك ما ان عاد للمدينة، بعد حجة الوداع، حتى جهز جيشاً كبيراً في خيار الصحابة وزعمائهم، وأمّر عليه أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في غزوة مؤتة. وكان زيد فتى يكاد يبلغ العشرين من سنه. وقال له، عندما ودعه في السنة الحادية عشرة للهجرة، «سر الى موضع قتل أبيك». وانهم لفي استعدادهم للسفر اشتد المرض على محمد ﷺ، ومات في ٨ حزيران سنة ٦٣٢ م، فتوقف الجيش على الرحيل.

بيد أن أبا بكر خليفة محمد ﷺ الأول لم يرض ان يقف جيش جهزه

النبي. فما كاد المسلمون يفرغون من دفنه حتى أمر أن ينفذ جيش أسامة، ويمضي لغزو تخوم الشام كمرحلة أولى لفتحها. وقد زحفت هذه الحملة الى البلقاء، من أعمال عمّان، وعادت عنها منتصرة. وهي وان لم تتقدم الى ما بعدها، الا أن هذه الغزوة كانت بداية الانطلاق لفتح الشام والعراق وما خلفهما في عهد الخلفاء الراشدين. وكان محمد ﷺ في حياته قد وعد المسلمين بكنوز قيصر وكسرى، فاذا بهذا الذي وعد يتحقق بعد موته، كما تحقق تحرير الجزيرة في حياته.

الفصل التاسع

شخصية محمد ﷺ ومقدار مساهمتها في انتصار الاسلام

كل شيء في هذه الحياة لا يدرك النجاح المنشود إلا إذا توفرت له الأسباب الطبيعية ما عدا الشاذ النادر الذي لا ندرك علة نجاحه فنسميها بالحظ. والرسالة ايضاً، إذا نظرنا اليها من نافذة النواميس الطبيعية، تنطبق عليها هذه القاعدة. اذ يكفي ان تكون ذات نواة صالحة، وان تغرس في الوقت الملائم، بل لا بد لها من حارث ماهر يرعاها حتى تعطي اكلها الطيّب. ومحمد ﷺ كان بالنسبة للاسلام ذلك الحارث القدير الذي عرف كيف يؤدي الرسالة، كما أحسن رعايتها. وصفه درابر بقوله: (Draper ج ٢ ص ٩٩).

«كان محمد ﷺ متخلقا بتلك الاخلاق التي إذا اجتمعت برجل واحد أهّلته لأن يكون ذلك الشخص الذي تتوقف عليه مقدرات العالم. لقد كان في وقت واحد نبياً وجندياً، وكان بليغاً على المنبر، كما كان باسلا في ميدان القتال».

لذلك كان من الأنصاف، وقد اتينا، في الفصول السابقة، على ذكر العناصر الداخلية والخارجية، والاحداث التاريخية والمعاصرة، التي وفرت الأسباب لظهور الاسلام، ومهدت السبل لنجاحه، كان من الانصاف تخصيص هذا الفصل، للتنويه بصفات محمد ﷺ الفذة التي كان لها أعظم الاثر في معركة حياة او موت خاضها الاسلام، وخرج منها منتصراً.

تعتمد الجماعات في صراعها من اجل البقاء وبقاء الانسب على قوتين. احداهما ظاهرة بادية للعيان، وهي القوة المادية، والأخرى مكنونة في الصدور لا تراها الابصار، وهي القوة المعنوية. ولا غنى للجماعات عن القوتين في هذا الصراع. على ان التوازن بينهما مطلوب، وإذا اختل فالغلبة تكون في النهاية للفئة التي تعتمد على القوة المعنوية.

فقد حُكم على المسيح بالموت، ولكنه بقي حيا في قلوب رسله، فحمل بعضهم الصليب في اعناقهم، وراحوا يبشرون بدينهم حتى اذا دخل الايمان في قلوب الاباطرة واصبحوا بذلك يجمعون بين القوتين: المعنوية والمادية، شهروا السيوف في وجه العالم الوثني فإذا بهم يصبحون اسياده، وإذا بهم ينشرون ألوية المسيحية في كل مكان.

وطارد الفراعنة بني اسرائيل، ونكل بهم البابليون وشردوهم، واخرجهم الرومان والبيزنطيون من ديارهم، فتشتتوا في انحاء الأرض، وعاشوا، من بعد، في ذل ومسكنة. ولكنهم اذ حافظوا في قلوبهم على الايمان بعودتهم الى ارض الميعاد، وعملوا من اجل تحقيق تلك الامنية ادركوا هدفهم بعد مضي قرون وقرون.

واشتبك الألمان مع الافرنسيين في حرب السبعين، وكانوا يؤمنون بوطن يريدونه فوق الجميع، بينما كان الأفرنسيون قد كفروا بالأوطان المتعددة، واعتنقوا مذهبا انسانياً مداره أن العالم كله وطن واحد. فإذا بالمؤمنين بوطنهم ينتصرون على اكبر دولة في عالم ذلك العصر حينما تخلت عن الايمان بالموجود وآمنت بالمفقود.

وفي التاريخ امثلة كثيرة كهذه تشير الى ان العاقبة في التنازع البقائي القائم

بين الجماعات تكون في النهاية من نصيب الذين يعتمدون على القوة المعنوية، المؤمنين بصدق اهدافهم.

على أن الايمان مصدره فرد واحد، ثم لا يلبث ان يتعداه وينتشر بين الجماعات. والمعروف ان الايمان يحتاج للنشر والدعاية. والواقع انه يحتاج الى شيء آخر هو اجدى لادخاله الى سائر القلوب: يحتاج الى أن يكون الداعي اليه مؤمناً برسالته ايماناً صادقاً لا ريب فيه، سواء أكانت تلك الرسالة دينية أم دنيوية، وان تكون افعاله مطابقة كل المطابقة لأقواله. ذلك كان شأن محمد ﷺ : كان يؤمن ايماناً صادقاً لادخاله أي شك بأنه نبي الله ورسوله، فاستطاع بذلك ان ينقل هذا الايمان الى قلوب الآخرين، واستطاع بأعماله المتفقة مع أقواله ان يثبته في تلك القلوب حتى كاد كل واحد من المؤمنين برسالته يصبح كشخصه في صحة العقيدة، وفي حرصه على انتشارها.

لقد سخرت قريش، في أول الأمر، من دعوته. ثم استرسلت في اذاه وأذى المؤمنين به، وانتهى بها الأمر الى تهديده بالقتل، ثم الى التآمر على الفتك به. ولكن محمداً ﷺ المؤمن لم يثنه عن تبليغ رسالته ارهاب ولا ترغيب، وقال لعمه أبي طالب، وهو يحاوره، قوله المأثور «يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على ان أترك هذا الامر حتى يظهره الله، أو اهلك فيه ما تركته».

وهل يصدر مثل هذا الجواب عن انسان غير مؤمن برسالته في الظروف التي كان يواجهها محمد ﷺ والمؤمنين به وأهله؟.

ثم أتيح لمحمد ﷺ بعد الهجرة الى المدينة ان يصبح سيدها، وأن يتخذها قاعدة لتهديم الوثنية. وكان المسلمون قلّة، وهو في حاجة شديدة للمزيد من المقاتلة. ومع ذلك فإنه لما خرج لغزو بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة

(٦٢٤ م) أبى على جماعة من غير المسلمين من اهل المدينة أن يشتركوا معه في هذه الغزوة طمعاً بالغنيمة، إلا أن يؤمنوا بالله ورسوله . وكان ذلك دليلا على أنه كان يقاتل من اجل اعلاء كلمة دينه دون أن يكون له غرض آخر من أغراض الدنيا .

وبعد انتصاره في بدر وغيرها انتشرت انباء محمد ﷺ في سائر جزيرة العرب انتشار الدقيق تذروه الرياح، فأخذ أبناؤها يفدون اليه من كل صوب . وكان يرحب بهم ويدعوهم الى الاسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فمنهم من كان يسلم، ومنهم من كان يرضى بالاسلام على شرط . اما محمد ﷺ فكان، رغم حرصه على انتشار الاسلام، يأبى على هؤلاء إلا أن يكون الاسلام عن ايمان دون اي شرط: فعامر بن الطفيل الزعيم والفارس المشهور في فترة الجاهلية اشترط ان يكون خليفة النبي، أو يقاسمه الملك . ومسيلمة، من زعماء بني حنيفة، رضي بالاسلام على أن يشركه محمد ﷺ في النبوة، وهوذة بن علي سلام صاحب اليمامة ارسل الى النبي يقول، عندما تناول دعوته للاسلام، « فاجعل اليّ بعض الامر اتبعك » ولكن محمداً ﷺ رغم ما كان يقدر مالاسلام هؤلاء الزعماء من الفوائد الجمة كان يرفض باباء مساوماتهم، ويشترط عليهم ان يكون اسلامهم كاسلامه مقروناً بالايمان دون أية غاية أخرى .

وازدادت شهرة محمد ﷺ بعد غزوة تبوك (٩ هـ ـ ٦٣٠ م) من جراء ما أحرزه فيها من النصر على عمال البيزنطيين، فإذا بوفد ثقيف يهرع اليه من الطائف ويعرض عليه اسلام قومهم على ان يدع لهم صنمهم اللات لمدة ثلاث سنين فقط لا يهدمها، وان يعفيهم من الصلاة . ورغم ما يعرف محمد ﷺ من مناعة حصون الطائف، ورغم ما يعرف من بأس ثقيف، ورغم ما يعلق على اسلامها من فوائد إنه أبى عليهم الا ان يسلموا دون قيد ولا شرط، وأن يدخل الايمان قلوبهم قبل الاسلام .

واكثر من ذلك فإن بني اسد بن خذيمة اعتنقوا الاسلام فعلاً، ولكنهم كانوا قد أعلنوا اسلامهم طمعاً بالمساهمة في الغنيمة. وقد نزلت فيهم الآية:
﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (سورة الحجرات).

فلم يرضَ محمد ﷺ من هؤلاء اسلامهم لغرض في نفوسهم، ولم يقبل منهم اسلامهم قبل إيمانهم؛ ذلك بأنه كان يدعو الى اسلام مسبوق بالايمان، ويدعو الى اسلام منزه عن الأغراض الدنيوية.

زد على ذلك ان ايمان محمد ﷺ برسالته بلغ حداً جعله يحاسب نفسه امام ربه. فخطبته في حجة الوداع، سنة عشر للهجرة، التي القاها على مقربة من عرفات، تلك الخطبة المليئة بالمواعظ والارشاد، كانت دليلاً على هذه المحاسبة. فقد استهلها بقوله بصوت جهوري: «أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً». وختمها بقوله: «اللهم هل بلغت؟» اجاب الناس من كل صوب: «نعم». فقال: «اللهم اشهد» ورددها ثلاثا.

بهذا الإيمان الصحيح الثابت المنزه عن الاغراض الدنيوية، وبهذا الاخلاص، في ابلاغ رسالته استطاع محمد ﷺ ان ينقل ايمانه الى قلوب المؤمنين، وان يذلل كل عقبة كانت تعترض سير الاسلام وانتشاره.

اما ما افتراه عليه بعض المستشرقين من انه كان يحارب حباً بالغنيمة فهذه الامثلة التي أوردناها، وهي طلّ من وابل، كفيلة بدحض افترآتهم.

شدة محمد ﷺ وسماحته

خلال الصراع بين الجماعات ليس في شرع السياسة رحمة حيال الخائنين

لوطنهم. والسياسي المتزن كالقاضي العادل ينصب الميزان فيضع في احدى كفتيه العدل، والانصاف، ويضع في الأخرى، القصاص والعقوبة دون رحمة.

والشاعر الذي اشار الى ضرورة هذا التوازن كان موفقاً بقوله:

« ووضع الندى في موضع السيف للعدا مضر كوضع السيف في موضع الندى »

وكان محمد ﷺ ذلك السياسي المتزن الذي لم يتردد عن استعمال القسوة حينما كان لا مندوحة من اللجوء إليها، ولم يبخل في منح العفو والصفح عن اي مذنب اذا لم يبقَ خوف أو ضرر من اللجوء الى الرحمة.

ففي مكة التزم الصبر على الاذى طوال ثلاث عشرة سنة قضاها يدعو الناس فيها الى الاسلام. والتزم في هذه الدعوة جانب الرفق والتضحية والارشاد. ولكنه ما ان استقر في المدينة حيث اشهر السيف في وجه خصوم الاسلام، أولئك الذين لم تجد حيالهم نفعاً سياسة الموعظة الحسنة واللين؛ حتى اضطر لأن يلجأ احياناً الى الشدة في معاملتهم، وان يستعمل العقوبة على اعتبار «أن القتل أنفى للقتل» كما كان يقول العرب، وعلى مبدأ «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» كما ورد في القرآن الكريم. (سورة البقرة).

• كان ابو عفك يرسل الاشعار تباعاً في هجو محمد ﷺ تنفيراً للعرب من محمد ﷺ ومن دينه، ويثير عليه الاحقاد في سبيل تأليبهم عليه. فأرسل في السنة الثانية للهجرة من تولى الفتك به.

• كان كعب بن الأشرف الزعيم اليهودي في المدينة قد أعلن الخصومة لمحمد ﷺ، وسعى للتفريق بين المسلمين، كما كان يحاول جمع كلمة العرب للخروج عليه. فبعث في السنة الثالثة للهجرة جماعة تعرضت له، وقتلته.

• كان سنان بن خالد بن نبيح الهذلي يدعو العرب للحملة على المدينة،

ويجمع الجموع بغية القضاء على الاسلام فيها . وقد خيف شره فأرسل محمد ﷺ في السنة الثالثة للهجرة نفراً من اتباعه قضوا عليه .

• كان أبو سفيان الزعيم المكي قد بعث الى المدينة رجلاً وكل اليه اغتيال محمد ﷺ فلم يفلح . وكان لا يفتأ يثير القبائل العربية عليه ، وهو الذي ضمن للوليد بن المغيرة ، حين احتضاره ، ان لا يظهر الاسلام . فبعث النبي في السنة الرابعة للهجرة جماعة للفتك به في مكة ، ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلا .

• كان أبو رافع سلام بن أبيّ ، زعيم خيبر ، على رأس اليهود الذين ألبوا العرب وأهل مكة للزحف على المدينة في الغزوة المعروفة بالأحزاب فدفع محمد ﷺ من احتال عليه ، في السنة السادسة للهجرة ، وقتله في حصنه وبين قومه .

• كان اسير بن رازم الذي خلف ابا رافع على زعامة خيبر قد اضطلع بمهمة الاثار لسلفه من محمد ﷺ . وكان يبذل جهوداً جبارة لجمع اشتات العرب على حرب المسلمين . فكان نصيبه نصيب سلفه ، وجاءه ، من قبل محمد ﷺ ، من احتال عليه وفتك به .

• كان بنو قريظة اليهود في فدك قد نقضوا عهدهم حينا زحفت الاحزاب على المدينة وحاصرتها ، وتأهبوا للسير اليها للمساهمة في استئصال المسلمين . ولما تراجعت الأحزاب خائبة عنها خف علي بن أبي طالب اليهم حتى إذا تمكن منهم ترك أمرهم لنبيه . وقد ارتضى محمد ﷺ بما ارتضوا لأنفسهم بأن يحكّم سعد بن معاذ في البت بمصيرهم . وهو من الأوس الذين كانوا حلفاء لليهود من قبل . فحكم أن تقتل المقاتلة منهم ، فضربت أعناقهم .

فهذه الأمثلة تدل على أن محمداً ﷺ كان شديد البطش ، على غرار رجال السياسة ، حيال الخصوم عندما تقضي المصلحة العامة . وهذه الشدة القت الرعب في قلوب أعداء الاسلام ، وهم في حصونهم أو في مدنهم ، وجعلت زعماءهم

يحسبون له حساباً كبيراً في غضون الحروب التي استمرت بينهم وبينه نحو عشر سنين. وهي شدة دفعت كثيراً من الشرور عن المسلمين كان يتوقع نزولها عليهم لو أن محمداً سلك سبيلاً آخر، ووضع الندى في موضع السيف حيث لا ينفع إلا السيف.

على أن محمداً ﷺ، ذلك الذي تؤثر عنه هذه الأمثلة التي تحمل طابع القسوة، كان على العكس من ذلـك، أقـرب النـاس للـرحمة وللصفـح عنـد المقدرة؛ وذلك عندما لا يكون بالرحمة والصفح اي خطر على دينه وعلى كيّانه. وقد وصفته زوجته عائشة بقولها: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم يُنتهك من محارم الله شيء. فإذا انتهك من محارم الله شيء كان من أشدهم في ذلك غضباً. وما خيّر بين امرين الا اختار ايسرهما، ما لم يكن مأثماً». بلى وان في تاريخه امثلة، تكاد لا تحصى، على جنوحه للعفو والشفقة عند المقدرة.

• كان سهيل بن عمرو هجاء لمحمد ﷺ. فلما وقع أسيراً في غزوة بدر جاء مكرز بن حفص من مكة في فدائه. فانبرى عمر بن الخطاب وقال: «دعني يا رسول الله انزع ثنيّتي سهيل فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً». فأبى النبي وقال: «لا أمثّل به فيمثّل الله بي وان كنت نبياً» وأطلق سبيله راضياً بالفداء.

• كان محمد ﷺ قد وزع أسرى بدر على أصحابه وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» وخاض الناس في شأنهم. فكان بعضهم على رأي أبي بكر بقبول الفداء منهم، بينما كان البعض الآخر على رأي عمر بن الخطاب الذي كان يرى قتلهم أجدى اتقاء لشرهم من بعد. ولكن محمداً ﷺ رجح الكفة عندما تشاور المسلمون في أمرهم، وايد أبا بكر فقبل الفداء منهم.

● جاءت مكة بأسرها لقتاله في غزوة بدر، وكان بين من خفوا لقتاله دفاعاً عن قافلتهم فريق من بني هاشم. وعلى ما كان من تحريض محمد ﷺ اصحابه للقتال فقد أوصاهم بأن لا يتعرضوا بأذى لبني هاشم إذ ذكر منعهم اياه مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم البعثة الى يوم الهجرة، وأوصاهم أيضاً الا يقتلوا بعض رجالات من سادات قريش مع انهم كانوا على استعداد للفتك بمن يستطيعون الفتك به من المسلمين. أوصاهم بذلك اذ ذكر مطالبتهم بنقض الصحيفة التي تعاقدت بها قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب لحمايتهم لمحمد ﷺ رغم أنهم كانوا وقتئذٍ على غير دينه.

وهذه مأثرة عظيمة لمحمد ﷺ إذ يذكر جميل بني هاشم وسواهم الذين حموه في مكة، يذكرهم في حومة الوغى وقد جاءوا لقتاله، ويوصي بهم في موقعة كانت من الوقائع الحاسمة في تاريخ الاسلام. وقد ذكرتني هذه المأثرة الجديرة بالتمجيد بعنترة العبسي، وهو يقول لعبلا:

«ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي»

غير ان عنترة كان يقول شعراً، والشعر أعذبه اكذبه، وأما محمد ﷺ فكان يقوم فعلا بعمل لا يتطرق اليه الشعر.

● وأخيراً ظفر محمد ﷺ بأولئك الذين آذوه وعذبوا أصحابه، وتآمروا على قتله أكثر من مرة حتى اضطروه للهجرة، ثم لم يتركوه من بعد، بل شرعوا يؤلبون الناس للقضاء عليه وعلى دينه. ظفر بهم جميعاً عند فتح مكة، ولكنه لم يعاملهم معاملة الأسرى، بل تركهم طلقاء وشأنهم. وأحسن اليهم عندما لم يبق خطر من الاحسان اليهم. وكان محمد ﷺ قد واعد قريشاً حينما قتلوا عمه حمزة في معركة أحد، ومثّلوا به افظع تمثيل. واعدهم بأنه سوف يمثّل بسبعين واحداً منهم، ولكنه حينما ظفر بهم اخلف ايعاده، ولم يمثّل بأحد منهم، بل

أضفى على كبيرهم أبي سفيان مجداً عريضاً عندما قال وقتئذ: «من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن». وهذه مآثر إذا دلت على شيء فإنما تدل على ان الشدة لم تكن من طبع محمد ﷺ، وإنما كان يلجأ اليها حين لا يجد مناصاً من استعمالها في سبيل الدفاع عن كيانه ودينه. وقد علق فيليب حتي على هذه المآثرة (العرب ص ٣٨) بقوله: «وقلما تجد في التاريخ مثالاً للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال».

• ومأثرة أخرى لمحمد ﷺ ما ذكرت الا وذكرت معها العـدالة والرحمة. وأعني بها غضبه الشديد على خالد بن الوليد الذي بعث به الى بني جذيمة داعياً للاسلام. وكان خالد قد فتك ببعضهـم رغـم اعلانهم الاسلام لأنـه ارتـاب باسلامهم. ولم يتمالك النبي عن انكار صنيعه، ورفع يديه الى السماء وقال: «اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد». ثم لم يكتف بالقول، وانما ارسل علي بن أبي طالب فدفع ديات قتلاهم.

وبهذه السياسة المتزنة، التي جمعت بين الشدة والرحمة وبين القصاص والعدل، استطاع محمد ﷺ ان يروّض قساة القلوب من العرب، ويؤهلهم للاقبال على اسلامه. وقد تعرّض سيديو المؤرخ الأفرنسي، في كتابه «تاريخ العرب العام» الى الرد على الذين اتهموا محمداً ﷺ بقساوة القلب، واشاد، في هذه المناسبة، بما أتى به من الاصلاحات التي تدل على الرحمة من أمثال منع الثأر والانتقام ووأد البنات تلك العادات التي كانت مألوفة عند العرب قبل الاسلام.

محمد ﷺ الزاهد الهيّن اللين، واثر أخلاقه في النصر

اعتاد عظماء الملوك إذا حالفهم النجاح على أن يتوهموا بأن سلطتهم مستمدة من الله، وان لهم بالتالي الحق في فرض ارادتهم على رعاياهم، وعلى هؤلاء الطاعة استناداً الى هذه السلطة الربانية. أما محمد ﷺ، فرغم ايمانه

الجازم بأنه نبي الله ورسوله، فكان يحرص على أن لا يظهر بأي مظهر من مظاهر الاستعلاء والترفع.

كان في مكة قد أصبح من الميسورين بتجارته وبزواجه من خديجة بنت خويلد، وهي من أكبر تجارها. ثم اصبح في المدينة، حيث جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، صاحب مورد كبير، بما كان له من غنائم الحرب، ومن الفيء، ويدخل فيه الجزية والخراج والأعشار.

فقد كانت العادة عند سادة العرب أن يأخذوا الربع من غنائم الحرب، ولكن النبي جرى في تقسيمها على خمسة أقسام ابتداء من غزوة قنيقاع، أربعة منها على المقاتلة، والقسم الخامس كان يقسمه خمسة أقسام: السهم الاول على نفسه وازواجه وفي مصالح المسلمين، والثاني على ذوي قرباه بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف، والثالث للمحتاجين من اليتامى، والرابع للمساكين، والخامس للمسافرين الذين لا يجدون ما ينفقون.

واما الفيء فكان خمسه للنبي ولصالح المسلمين، والأربعة الاخماس الباقية لبيت المال.

فبعد أن توفرت لمحمد ﷺ كل هذه الموارد كان من المفروض فيه أن يعيش عيشة الملوك، ولكنه، في الواقع، عاش زاهداً متقشفاً ينفق هذه الموارد على مصالح المسلمين، ويتصدق بها على الفقراء والمساكين. وهو لم يكنز شيئاً منها حتى انه لما وافاه الأجل لم يكن عنده من المال الا سبعة دنانير، أمر أهله بأن يتصدقوا بها.

ان الاسلام الذي يجمع بين شؤون الدنيا والآخرة لا يوصي بالزهد في الدنيا، وانما كان يحض على العمل لها، والتمتع بزينتها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة القصص).

بيد أن محمداً ﷺ، مواساة منه للمحرومين في الدنيا، شاء أن لا يتمتع فيها بحياة أرفع من مستوى حياتهم. فكان شأنه شأن الأنبياء، يجنح الى الزهد ويميل للتقشف. وبلغ من زهده، على ما روى حسين هيكل «ان كان فراشه الذي ينام عليه أدما حشوه ليف، وانه لم يشبع قط، ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين. وكان السويق طعام أكلته الكبرى، وكان التمر طعام سائر يومه. وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله. ولقد عانى الجوع غير مرة حتى كان يشد على بطنه حجراً يكظم به على صيحات معدته. ذلك كان المعروف عنه في طعامه، وان لم يمنعه ذلك من أن ينال في بعض الأحايين من أطايب الرزق، وان يعرف عن حبه زند الخروف والقرع والعسل والحلوى». (حياة محمد ﷺ ص ٢٢٧).

وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام. وتتألف ثيابه من قميص وكساء، وكانا من صوف أو قطن أو تيل. على انه كان لا يأبى في بعض الأحيان أن يلبس لباساً فخماً من أنسجة اليمن اذا اقتضته الظروف التجمل باللباس. أما حذاؤه فكان حذاء بسيطاً. ولبس الخف حين أهداه النجاشي خفين من بعض السراويل. ويؤثر عنه انه كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ولا يترفع عن مواكلة الخادم، ولا يتسامى عن مساعدته في الشؤون المنزلية، غير متكبر على عمل يعمله في بيته، أمّا بيته فكان من البيوت الوضيعة.

وأما في خارج حياته الخاصة والبيتية فقد كان يحرص أيضاً على أن لا يظهر بمظهر هو فوق مظهر سائر المسلمين. كان في ديموقراطيته يحرص على أن لا يعامله أصحابه معاملة السيد، فكان اذا أطروه يقول لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، أنا عبدالله، فقولوا عبدالله ورسوله». واذا ما قاموا

له كان ينهاهم بقوله: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً». وكان من عادته أن يبدأ من لقي منهم بالسلام، ويجلس حيث انتهى به المجلس، ويمازحهم، ويداعب صغارهم. وهو الى ذلك كان لا يبت بأمر يتعلق بالشؤون العامة إلا بعد مشورتهم عملاً بالآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران)، ولولا كل ذلك لما كان لمواعظه وإرشاداته ما كان لها من التأثير عليهم.

وكم في تاريخ محمد ﷺ من أمثلة كثيرة على رجوعه الى أصحابه يستشيرهم كأنه واحد منهم؟ وكم في تاريخه من أمثلة عن تخلّيه عن رأيه واتباع آراءهم؟ وهذا ما حدث في غزوات أحد والخندق وتبوك والطائف. ثم اليس هو القائل لأحد المزارعين: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم؟» وذلك في قضية تأبير النخل.

انظر اليه وقد جاء يستشيرهم ملتمساً موافقتهم على أمر يتعلق بابنته، وشاركني في اكبار موقفه في هذه الحادثة: فقد كان زوّج ابنته زينب بمكة بأبي العاصي بن الربيع، وقد وقع أسيراً في غزوة بدر الكبرى. بعثت زينب الى المدينة تفتدي زوجها، وكان فيما بعثت به لافتدائه قلادة كانت خديجة زوج محمد ﷺ أهدتها لها حين زفافها. رأى النبي قلادة ابنته فرقّ قلبه رقة شديدة؛ ومع ذلك فلم يبتّ في أمر التماسها، بل جاء الى المسلمين يستشيرهم في الفداء مستعطفاً، وقال لهم: «أرأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا؟» وقد وافقوا على رغبة نبيّهم على انهم أخذوا من موقفه هذا، في شأن يتعلق بابنته، درساً لم تشهد مثله الديموقراطية في التاريخ. وقد وافق الأسير أبو العاصي على أن يفارق زوجه، وعلى مجيئها الى المدينة لأن الاسلام فرّق بينه وبينها. ولكنه لم يلبث أن لحق بها وأسلم.

وأنظر الى محمد ﷺ بعد حصار الطائف وقد جاءه وفد هوازن يرتجونه أن

يردّ عليهم أموالهم ونساءهم وأولادهم. سألهم النبي: «أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟» فقالوا: «يا رسول الله بل ترد علينا وابناءنا فهم أحب الينا». فقال: «امّا ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم. واذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين، وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا». ففعلوا. وقال المهاجرون «ما كان لنا فهو لرسول الله». وكذلك قال الأنصار الا ثلاثة منهم. على أن الاجماع وان حصل في رد أبناء هوازن ونسائهم اليهم الا أن محمداً ﷺ لم يضغط، مع ذلك، على الثلاثة الذين أبوا الا أن يتمسكوا بحقهم. فقال لهم مسترضياً: «أمّا من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل انسان ست فرائض من أول سبي أصيبه». فوافقوا. وكان هذا الموقف الذي وقفه محمد ﷺ شاهداً آخر على ديموقراطية لم يزاولها أحد غيره من أصحاب السيادة والسلطان.

وأنظر الى محمد ﷺ في غزوة تبوك وهو يريد أن يتقدم منها شطر الشام، وكيف عدل عن رأيه بعد مشاورة صحبه. قال له عمر بن الخطاب: «يا رسول الله ان كنت أمرت بالسير فسر». قال محمد ﷺ: «لو أمرت بالسير لم استشركم فيه». فقالوا: «يا رسول الله ان للروم جوعاً كثيراً، وليس فيها أحد من أهل الاسلام. وقد دنونا وأفزعهم دنوك. فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى. ويحدث الله أمراً». فنزل عند رأيهم وعاد قافلاً الى المدينة.

ولقد كان محمد ﷺ يكسب قلوب المسلمين بهذا التواضع وبالتزام المساواة بينه وبينهم في حرية القول والعمل. وكان يكتسبهم كذلك بالتغاضي عن سيئات بعضهم وبمعاملة هؤلاء بالحلم حتى وسع حلمه المتآمرين عليه.

فقد تآمر بعض المنافقين من المسلمين على الغدر به ابّان عودته من غزوة تبوك. فعلم محمد ﷺ بما بيّتوا له. ومع ذلك فقد أعلن عفوه عنهم وقال: «اني

أكره أن يقول الناس ان محمداً قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم » .

وكان بعض المنافقين أبوا أن يساهموا في هذه الغزوة وتخلفوا في المدينة . وشرعوا يشيعون عنها أخبار السوء . فلما عاد النبي ظافراً جاؤه يعتذرون اليه ، فتقبل منهم أعذارهم ، وهو يعلم انها كاذبة ، وصفح عنهم .

وهذا كبير المنافقين عبدالله بن أبيّ الخزرجي .. ألم يشمله حلم محمد ﷺ ؟ انه كان مذيع خبر الأفك عن عائشة زوجة النبي . وكان مصدر هزيمة المسلمين في غزوة أُحد . وهو الذي كان يحاول أن يلقي الفرقة بين المهاجرين والأنصار . ولم يكفه كل هذا ، بل انه توعّد محمداً ﷺ في غزوة بني المصطلق اذ قال : « والله . اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل » .

ولما عاد محمد ﷺ منتصراً من هذه الغزوة جاء ابن هذا الخزرجي يشفع به ، فاذا بمحمد ﷺ يتناسى كل هذه السيئات ويطمئن القادم ويقول له : « اننا لا نقتله ، بل نترفق به ، ونحن صحبته ما بقي معنا ! » .

وكان محمد ﷺ يريد بسلوكه هذا المسلك حيال المسلمين ان يعطيهم دروساً في السماحة ، ومكارم الأخلاق ، ويريد أن يجعل من نفسه قدوة صالحة لهم . فقد روي عن أنس قوله :

« أدرك اعرابي النبيّ فأخذ بردائه فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت الى صفحة عنق النبي وقد أثرت فيه حاشية الرداء من جذبته » . ثم قال الاعرابي : « يا محمد حوّلي من مال الله الذي عندك » . فالتفت النبي وضحك ، وأمر له بعطاء .

هذه الأخلاق جعلت صاحب الرسالة يتمتع ليس بمحبة المسلمين فقط ، بل يتمتع أيضاً بثقتهم الكاملة . واذا اجتمعت المحبة المخلصة بالثقة الكاملة حول زعيم كانت من أعظم العوامل لنجاح رسالته . فاذا بالانقلاب الأخلاقي

السريع الذي وقع في الأوساط العربية يعطي أكله بمثل تلك السرعة التي انتشر فيها الاسلام. واذا بالاعلام العربية تخفق، بعد قليل من وفاة محمد ﷺ، على أمصار كانت أسماء بعضها مما لم يسمع به العرب.

شجاعة محمد ﷺ وبعد نظره واثرهما في النصر

لم يكن للاعراب، على وجه عام، معاقل وحصون يلجأون اليها في الدفاع عن أنفسهم، لذلك كان من الطبيعي أن يعتمدوا على قواهم الذاتية في الذود عن حياضهم؛ ولم تكن لهم موارد طبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة تؤمن لهم معايشهم فكانت الحاجة تدفعهم الى الاستعانة بقواهم المذكورة على تأمين الرزق وذلك بالغزو والحروب. وهذا ما كان يحملهم على تقديس الشجاعة واعتبارها خير الخلال المنشودة.

على ان هذا الوصف وان كان لا ينطبق كل الانطباق على أهل مكة وعلى سائر البلاد العربية المتحضرة إلاّ ان هذه المدن، التي هي كواحات في صحراء، كانت تخضع حتماً لعادات المحيط وتقاليده، وتقيس بمقاييسه، فكان تقدير البسالة لا يختلف عندها عما كان عند العرب. يدلّ على ذلك التماسها المرضعات لأولادها في البادية بغية تنشئتهم على الفروسية.

وقد ولد محمد ﷺ في شبه واحة من تلك الواحات المبعثرة في بوادي جزيرة العرب، وقضى سن الطفولة بين الاعراب حتى بلغ عمره خمس سنين. وكان يرضع من ثديي مرضعته حليمة لبن البداوة الحافل بعناصر الشجاعة والكرم والوفاء والمحافظة على الذمام، ويتنشق عبير الحرية من أجواء كل شيء فيها يتمتع بالطلاقة حتى الأنعام. وكان في غضون هذه المدة اذا أصبح يسمع احاديث البطولة في الصحراء. واذا أمسى يسمع تندّرهم بأخبار الأبطال والبطولة، في خيمة شيخ القبيلة، وهم يلتفون حول النقرة، ويتداولون فنجان

القهوة من فم الى فم . وبين هذا وذاك كان محمد ﷺ وقتئذ اذا رأى فإنما يرى الفرسان يصولون ويجولون على الصافنات الجياد يتمرسون على المبارزة، ويتمرنون على الأعمال الرياضية والحربية . ولما عاد الى أهله بمكة عاد بذاكرة بيضاء لاشية فيها غير أخبار الفروسية، وعاد بروح تواقة الى ادراك ما أدركه مشاهير أبطال العرب من الشهرة . وهو ينطق بلسان فصيح وبلغة عربية صافية لم تشبها الكلمة الدخيلة، ولم تتطرق اليها الاصطلاحات الأعجمية .

ولما شب واراد أن يختار المهنة التي تؤمن له المعاش سلك سبيل أهله واختار التجارة . ولكن للتجارة أخلاقاً خاصة لا تتفق مع الأخلاق التي توحيها البادية . فهي مهنة تغلب عليها صفات الركون والمصانعة والتربص لانتهاز الفرص . فاختار محمد ﷺ نوعاً آخر منها يتفق مع تربيته الأولى: اختار التجارة القائمة على الأسفار مع القوافل، فكان يتنقل ما بين مكة واليمن شتاء، وما بين مكة والشام صيفاً، وذلك في رحلات تستغرق أشهراً . وكان هذا النوع من التجارة الذي مارسه محمد ﷺ، بما فيه من أخطار ومشاق، حافزاً لشجاعته، ومثيراً لبسالته وجرأته . فما ان أقدم على ابلاغ رسالته حتى ظهرت فيه تلك الصفات على أتمها .

وأية شجاعة هذه التي حملت فرداً على الاضطلاع بأعباء رسالة قوامها تهديم عبادة شائعة، وبناء عقيدة جديدة على أنقاضها ؟

وأية شجاعة هذه التي سوّلت لنفس فرد أن يعتمد على نفسه في مقارعة أمة ؟

وأية شجاعة هذه التي أنست ذلك الفرد نفسه حتى زهد بالدنيا، وهوّنت عليه الحياة حتى لم يعد يعبأ بما كان يبيّته المشركون للقضاء عليه ؟

انها وايم الحق شجاعة لا تصدر الا عن انسان كان يؤمن ايماناً ثابتاً بانه

يحمل رسالة صادقة، وبأن رسالته هذه هي من عند الله، وهو حسبه ونعم الوكيل.

ثم كان محمد ﷺ في المدينة شجاعاً على شكل آخر يتفق مع شروط حياته الجديدة. فمذ وطأت قدماه ثراها وضع تصمياً جريئاً لفتح قاعدة الوثنية، وتهديم أصنامها، تصمياً لا يفكر فيه الا كل شجاع لا حدّ لشجاعته.

ترى على أي شيء اعتمد في وضع هذا التصميم؟

أعلى المهاجرين الذين كانوا وقتئذ قليلي العَدد والعُدد، قليلي المال، حتى لم يكن عندهم من المركوب ما يكفي عددهم القليل ابان الزحف للقتال؟

أم على الأنصار من أهل المدينة، وهؤلاء فضلا عن أنهم كانوا لا يزالون وقتئذ يتأثرون بالعداوات القبلية التي كانت مشتدة بين الأوس والخزرج كانوا غير ملزمين بالمساهمة في أعمال المبادرة والهجوم لأنهم انما عاهدوه قبل الهجرة على حمايته والدفاع عنه فحسب؟

كلا لم يكن اتكال محمد ﷺ على هذا أو ذاك؛ وانما كان اتكاله على ربه، وعلى ربه فقط. ومثل هذا الاتكال المنبثق عن الايمان يكون مقروناً عادة بشجاعة لا يتحلى بها كل انسان.

حقاً انه لم يكن في طاقته وقتئذ التعرض لقريش في عقر دارها؛ وانما تعرض، من الشهر السادس للهجرة السادس فقط، لما هو بمثابة الروح لها. تعرض لتجارتها في رواحها الى الشام وغدوّها، وكانت عظيمة الى حد ان صادرات مكة كانت تبلغ مايتي وخمسين ألف دينار كل عام على تقدير المستشرق سبرنجر. وهو مبلغ جسيم جداً بالنسبة لقيمة النقدفي ذلك العصر. وهي صادرات لم تكن من صنع مكة وانما تأتيها وتصدر عنها على طريقة الترانسيت.

وكان يقود بنفسه أكثر الغزوات، ويجول ويصول فيها مظهراً من ضروب الشجاعة ما يبعث القوة في نفوس المسلمين. وكان علي بن أبي طالب سيفه البتار في هذه الغزوات. وما علي، في الواقع، الا السيف الذي شحذه محمد ﷺ وصقله حينما ترى في كنفه، واقتبس من روحه.

وليس بوسعنا أن نستعرض في هذا البحث الموجز الأمثلة الكثيرة على ما أظهره محمد ﷺ من ضروب الشجاعة في تلك المعارك فنقتصر على التنويه ببعضها.

• ففي غزوة بدر الكبرى (٢ هـ - ٦٢١ م)، التي كان انتصار المسلمين فيها فاتحة عهد جديد للاسلام، كان الفضل الأكبر في هذا النصر يرجع لمحمد ﷺ. فقد خاض المعركة بنفسه وأبلى فيها أحسن البلاء. وهو الى ذلك كان يتلو عليهم من آيات القرآن ما يثبت أقدامهم، واعداً اياهم بالنصر، وواعدا شهداءهم بالجنة، فاذا بالمعركة تنجلي عن نصر مبين للفئة القليلة التي تحارب بنفوس مشبعة بالايمان على الفئة الكثيرة التي جاءت تحارب من أجل المادة «اقرأ آيات سورتي آل عمران والأنفال».

• وفي غزوة أحد (٣ هـ - ٦٢٣ م) التي دارت فيها الدائرة على المسلمين لأسباب طرأت لا مجال لذكرها هنا. كان محمد ﷺ يظهر في وسط المعركة من التدبير والشجاعة ما يثير الاعجاب. وقد أصيبت رباعيته، وشج وجهه، وكلمت شفتاه، ودخلت حلقتان من المخفر في وجنته، وهو مع ذلك ثابت على مواصلة النضال. ولما اضطر للانسحاب وادركه أبيّ بن خلف الجمحي وهو يقول: «أين محمد لا نجوت أن نجا» طعنه الرسول بحربة الحارث بن الصمة طعنة جعلته يتقلّب على فرسه، ويعود ادراجه ليموت في الطريق. وأبيّ هذا هو الذي كذّب أبا بكر بمكة حينما أنبأه بما بشر به محمد

ﷺ من نصر آت للروم على الفرس، وراهنه وخسر الرهان.

● وفي غزوة حنين في أعقاب فتح مكة (٨ هـ ٦٣٠ م) كاد النصر يكون من نصيب هوازن وثقيف وانصارهما. ولولا شجاعة محمد ﷺ كادت تتحقق شماتة الذين كان في نفوسهم مرض من المكيين، ولولا شجاعة محمد ﷺ كادت تضحيات المسلمين خلال سنين وسنين تذهب هباء منثوراً: فقد شدت القبائل شدة رجل واحد على المسلمين وهاجوهم على غرة، وهم مطمئنون لكثرة عددهم، وأصولهم وابلا من النبال فانهزموا شر هزيمة. ولكن محمداً ﷺ، وحوله نحو المائة من الحرس، ثبت ثبات الابطال، واستصرخ الانصار والمهاجرين، وناداهم باسم الاسلام، فإذا بالمنهزمين يعودون الى صفوفهم، وإذا بهم ينقضون على أعدائهم، وإذا بهؤلاء يفرّون تاركين وراءهم نساءهم وأولادهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، وكانت شيئاً كثيراً. وفي تلك الموقعة نزلت الآية:

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً. وضاقت عليكم الارض بما رحبت، ثم ولّيتم مدبرين. ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وانزل جنوداً لم تروها. وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين ». سورة التوبة.

على أنا إذا نوهنا بشيء عن محمد ﷺ إبان دعوته بمكة للاسلام، وخلال غزواته بعد الهجرة فجدير بنا ان لا نتناسى، في هذه المناسبة، ما كان يرادف هذه الشجاعة من حسن تدبير في الحروب، ومن أخذ بالمحدثات من المعدات الحربية:

● ففي غزوة الخندق، التي عرفت بحرب الأحزاب (٥ هـ - ٦٢٧ م)، تلك الحرب التي اجتمعت فيها قريش مع أحابيشها ومن تبعها من كنانة في

عشرة آلاف مقاتل، وأقبلت غطفان تظاهرها مصحوبة ببعض قبائل نجد، وانضم بعض اليهود اليهم أولئك الذين كانوا مصدر هذه الغزوة. ففي تلك الحرب اختار المسلمون التزام المدينة لاختلال التوازن في القوى بينهم وبين الأحزاب المتألبة عليهم. ولكن المدينة لم تكن لتصد عنهم هذا الجيش الجرار لولا أن محمداً ﷺ اخذ برأي سلمان الفارسي وأمر بأن يحفر خندق حولها اسوة بما كان يفعل الفرس، فأمّن بذلك سلامة المسلمين. فالحرب انحصرت، فيما بعد، في نطاق تبادل الرماية بالنبال، وفي مبارزة الفرسان للفرسان حتى إذا تسرّب الملل للأحزاب، ووقع الخلاف بينهم بعد بضع وعشرين ليلة رحلوا عنها تباعاً، وهم في خيبتهم يكادون يتعثرون من شدة الألم.

● وفي غزوة الطائف، في أعقاب غزوة حنين، حيث لجأت ثقيف بعد الهزيمة إلى ما وراء اسوار مدينتها استعمل محمد ﷺ المنجنيق خلال الحصار لأول مرة في الاسلام، وبعث الدبابات شطر الاسوار، وكان يمشي تحتها نفر من المقاتلة. ولكن الطائف صمدت حتى دخلت الأشهر الحرم فعاد عنها المسلمون.

وهنا مجال للاشارة الى بعض السهو الذي وقع فيه مؤلفو «كتاب تاريخ العرب» الدكاترة فيليب حتي، وأدورد جرجي، وجبرائيل جبور، لمناسبة الكلام عن غزوة بدر المذكورة آنفاً. فقد جاء في الصفحة ١٦٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب ما نصه:

«انتهز الانصار (وهو الاسم الذي عرف به إذ ذاك مسلمو المدينة) فرصة الاشهر الحرم، وهم بحاجة الى ان يعيلوا المهاجرين بين ظهرانيهم فاعترضوا قافلة تجارية لقريش كانت عائدة من رحلتها إلى الشام.».

والسهو الذي وقع في هذه العبارة يتلخص بما يلي:

● لم تقع غزوة بدر في الأشهر الحرم التي كان العرب يحرمون فيها القتال، وانما خرج المسلمون لهذه الغزوة لثمان خلوْن من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (هيكل: حياة محمد ﷺ ص ٢٥٢). ورمضان ليس من الاشهر الحرم.

● لم يقم الانصار بغزوة بدر، وإنما شاؤوا ان يشاركوا فيها المهاجرين، ذلك بأن الانصار حينما بايعوا محمداً ﷺ في العقبة بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، ولم يبايعوه على الخروج معه للحرب. ولما استشار محمد ﷺ الناس في امر غزوة بدر تكلم سعد بن معاذ باسم الانصار، وقال فيما قال: « لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. » (هيكل ص ٢٥٤) فاشترك الانصار في هذه الغزوة مع المهاجرين للمرة الأولى.

● لم تكن أسباب الغزوة تعود الى حاجة الأنصار لأعالة المهاجرين، وإنما كانت ترجع الى أمور أخرى استعرضناها في هذا الكتاب. أما المهاجرون الذين كان قد مرّ على وجودهم في المدينة سنتان فلم يكونوا وقتئذ في حاجة للاعالة. فمنهم من كان يزاول التجارة، ونجح فيها لما كان لهؤلاء المكيين من الدراية في الشؤون الاقتصادية حتى قيل عن احدهم: « انه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً. » ومنهم من كان يعمل في أراضي الانصار مزارعة مع اصحابها. وكانوا في الجملة، على ما روى هيكل (ص ١٢٩) « يأبون ان يعيشوا كلاً على غيرهم. اما من كانوا في حال العوز والمتربة فقد كفاهم محمد ﷺ بما جعل لهم من الرزق في الأموال التي كانت تجبى من أغنياء المسلمين لتنفق على فقرائهم.

هذا ولعل مؤلفي الكتاب المواطنين يقبلون مني اقتراحاً يوجه اليهم في صدد تعريفهم الأنصار بمسلمي المدينة. فلو قيل في تعريف الانصار « الذين

اعتنقوا الاسلام من أهل المدينة » لكان أصح وادعى لانتفاء الالتباس ذلك لأن « مسلمي المدينة »، في ذلك العهد، كانوا المهاجرين والانصار على السواء.

واما الذي لا خلاف عليه فهو ان بطولة محمد ﷺ في غزوة بدر المذكورة، وفيما تلاها من حروب، كان لها الوقع الشديد على كل من المهاجرين والانصار حتى أصبح كل منهم، وقد استمد قوة روحية علوية لا عهد له بها من قبل، يشعر بأنه كمحمد ﷺ في شجاعته، فإذا بهم يخرجون من نصر الى نصر.

الفصل العاشر

نفوذ محمد ﷺ الروحي

لقد تمتع محمد ﷺ بصفات نوهنا بها في الفصل السابق كانت في طليعة العوامل التي هيأت لرسالته النجاح. على أن هناك امرين آخرين، يصح اعتبارهما من أسرار الطبيعة، كان لهما أشد الأثر في تأمين هذا النجاح. فالأمر الاول نفوذه الروحي الذي سحر الألباب حتى كادت ارادته تستحوذ على كل ارادة. والامر الثاني الحظ الذي مشى في ركابه فحفظه من المكاره، ومهد أمامه العقبات. وهما موضوع هذا الفصل.

نفوذ محمد ﷺ الروحي وقوّته المعنوية

الناس على درجات في قواهم جيعها. ومثلما يتفاوت بعضهم عن بعض في مراتب القوة الجسمية المرئية، فهم يتفاوتون كذلك في قواهم الروحية التي لا تدركها الابصار. ولا ريب في أن هناك عباقرة بين الناس يتمتعون، على درجات متفاوتة بينهم، بقوى روحية لا يتوفر لسواهم من البشر ادراكها.

وكان محمد ﷺ من الفئة التي اصابت قسطاً كبيراً من القوى الروحية الى حد أن العباقرة من معاصريه العرب وعظماء قومه لم يسعهم الا الركون اليه، والتقيّد بتوجيهاته. ولولا ذلك لما استطاع ان يحقق ذلك الانقلاب الفجائي في أخلاق العرب وعاداتهم وعقائدهم. ولولا ذلك لما استطاع ان يقودهم بالسهولة

التي قادهم بها الى الوحدة والنصر .

وقد تجلت فيه القوة الروحية قبل اعلان نبوته . فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصبح . وكان يصيبه ، على ما جاء في السيرة الحلبية ، (ج ١ ص ٢٥٢) ما يشبه الاغماء في أعقاب رعدة يرافقها تغميض عينيه ، وتربّد وجهه ، فيغطّ كغطيط البكر . ثم حُبب إليه الخلاء . ويؤثر عنه انه قال لزوجه خديجة : « إذا خلوت سمعت نداءاان يا محمد يا محمد » . « وأخشى أن يكون بي جنون . » وفي رواية أخرى ، « والله ما بغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ، ولا الكهان ، واني أخشى أن اكون كاهناً » .

وكانت خديجة تبشره ، ولا تنفّره . واذا سمعت منه شيئاً يكرهه تقول له ما يطمئنه مثل قولها : « كلاّ يا ابن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك . فوالله انك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث» . وقد روى ابن اسحاق عن شيوخه ان محمداً ﷺ كان يرقي من العين قبل النبوة.

فهذا كله ان دل على شيء فإنما يدل على أن محمداً ﷺ كان مزوداً بقوة روحية لا يتمتع بها سائر الناس . وهي قوة ما إن تبلورت بعد النبوة وظهرت بمظهرها الكامل حتى نفذت الى عقول اصحابه ، وتسلطت عليهم .

وهذا شيء ليس بمنكور ، وكم رأينا وقرأنا عن زعماء كانوا يتمتعون بجزء من القوة الروحية فإذا بهم يقودون الجماعات وفقاً لاراداتهم ، وإذا بهذه الجماعات المتأثرة بنفوذهم السحري تستسلم لهم ، وتجري وراءهم دون تردد .

على أن محمداً ﷺ لم يكن زعيماً شعبياً كهؤلاء فقط ، بل كان ، بفعل القوة الروحية الممتازة التي يتذوّد بها ، زعيماً على الخاصة أيضاً حتى لم يبق فرق بين هؤلاء وبين الناس في صدد الوثوق به . والايمان بدعوته ، والاذعان لأوامره .

بلى ، فلقد كان في عداد اصحابه نخبة من الزعماء المشهورين في عصرهم

بقوة الارادة. فمنهم من اشتهروا بأصالة الرأي، وبعد النظر، وصدق العزيمة، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح. ومنهم من عرفوا بالحنكة والدهاء والسياسة كمعاوية بن أبي سفيان، وعمر بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بذيل الخزامي. ومنهم من اشتهروا بالبطولة كعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد، وسعد بن أبي وقاص، ويزيد بن أبي سفيان، وحمزة بن عبد المطلب، والاشتر النخعي. ومع ذلك فإن هؤلاء الزعماء الذين كانت تضرب بهم الأمثال، ما ان آمنوا برسالة محمد ﷺ حتى أصبحوا سواسية مع غيرهم في الانقياد له، والاذعان لتوجيهاته، والأخذ بآرائه، إلاّ أن يقول انها تصدر عن رأي خاص، وعندئذ يعرب كل منهم، عند المشورة، عما يرى. قال جرجي زيدان (التمدن الاسلامي ج ١ ص ٥٠) «وأمثال أبي بكر وعمر وعلي وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من افراد الناس العظام الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم، كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكرمويل وبسمارك وغلادستون وغيرهم».

وان هؤلاء الزعماء كانوا من قبل، إذا قالوا ردد الناس اقوالهم، وإذا أرادوا كان لارادتهم اصداء داوية تجاوبت معها اوساط قومهم. فما الذي جعلهم، من بعد، وجعل امثالهم ينصاعون لمحمد ﷺ، ويقولون قوله، ويأتمرون بتوجيهه؟ هو صدق الايمان به وبرسالته. على أن هذا الايمان لم يكن ليستقر في قلوبهم، ويستولي على عقولهم لولا ان الداعي اليه كان مخلصاً بدعوته، قوياً بروحانيته، وقدوة صالحة بمسلكه.

انظر إلى عمر بن الخطاب ذلك الرجل المشهور بشدة مراسه الذي ما ان اسلم حتى اعتز الاسلام به، كيف انقلب بعد اسلامه الى طيّع لرسوله مؤتمر بأمره. لقد كان في غزوة تبوك لا يرى ما يراه الرسول من التقدم شطر الشام.

ومع ذلك فلما استشار محمد ﷺ اصحابه في هذا الأمر لم يبد عمر معارضة، وإنما قال: «يا رسول الله ان كنت أُمرت بالسير فسر». ولما علم انه لم يكن هناك أمر رباني اعرب عن رأيه، وكان هو الرأي الذي أخذ به محمد ﷺ فأمر بالعودة الى المدينة.

وانظر الى عمر مرة أخرى وقد اصبح خليفة يرافقه السعد حتى فتح المسلمون في ايامه سوريا وديار بكر ومصر وبلاد فارس، فضلاً عن بخاري ومرو في آسيا الوسطى، وطرابلس الغرب في شمالي افريقيا، كيف انقلب الى زاهد متقشف اسوة بنبيّه يحفظ أموال الفتوحات الكثيرة لينفقها على شؤون المسلمين، وهو قانع باليسير، خبزه الشعير، وثوبه من الخام، بينما كان قبل اسلامه مفتوناً بزينة الحياة.

اما وان هؤلاء العظماء اصبحوا بالاسلام اجناداً طيعين، وأضحوا يتسابقون في ميدان مرضاة الله ورسوله فماذا عسى يكون شأن سائر الناس.

ان سائر الناس الذين اكتسبهم محمد ﷺ بنفوذه الروحي وبأخلاقه العالية وبحسن سياسته القوا مقاليد أمورهم اليه، واذعنوا لأوامره سواء أكان ذلك في أيام السلم، أم في زمن الحرب.

ألم يكن محمد ﷺ غريباً في المدينة يوم بدأ تنظيمه الاجتماعي؟

بلى. ومع ذلك فكم كان نفوذه عظيماً حينما استطاع ان يؤلف بين اهلها، ولا سيما الأوس والخزرج أولئك الذين وصف القرآن شدة العداء بينهم بقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ «الانفال».

ولما استوطن المدينة ألم يكن أبو عامر الراهب زعيماً للأوس، وعبد الله بن أبيّ بن سلول زعيماً للخزرج؟

بلى. ولكن لم يمض الا قليل من الزمن حتى لم يسع أبو عامر الراهب الا مغادرة المدينة لينضم الى قريش، وحتى أصبح عبد الله بن أبيّ ابن سلول عتيق سيف محمد ﷺ الذي أصبح زعيماً للمدينة دون منازع.

وقد ذكر ابن الأثير أنه لما توفي أسعد بن زرارة نقيب بني النجار بالمدينة جاء هؤلاء الى نبيهم يطلبون منه ان يختار نقيباً لهم. قال لهم: «انتم اخواني وانا نقيبكم» فقابلوا قوله بالفرح والسرور. (الكامل: ج ٢ ص ٥٢).

أضف الى ذلك أن الانصار بالمدينة، الذين ما عاهدوا النبي قبل هجرته اليهم إلا على حمايته فقط، فإنهم لم يلبثوا ان اصبحوا اجناداً له منذ غزوة بدر الكبرى أسوة بالمهاجرين.

على أن هؤلاء الأجناد، سواء في مكة أو في المدينة، كانوا في حبهم للنبي يفتدونه بأرواحهم اذا تعرض لخطر: فعلي بن أبي طالب افتداه بنفسه حينما رضي ان ينام في فراشه ليلة غادر مكة ليوهم المتآمرين على قتله انه لا يزال نائماً في بيته. وفي معركة احد افتداه أبو دجانة الذي تترّس دونه وانحنى عليه حتى امتلأ ظهره بالنبال، بينما كان يقاتل دونه زيادة بن عمارة، ومصعب بن عمير حتى قتلا (السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣١).

ثم ألم يعرض عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول على محمد ﷺ بعد غزوة المصطلق أن يتولى بنفسه قتل أبيه، الذي كان زعيماً للخزرج، إذ قال له: «يا رسول الله انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت عاملا فمر لي به، فأنا أحمل اليك رأسه. والله فقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل ابرّ بوالده مني، واني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي انظر الى قاتل أبي يمشي في الناس فاقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار» ولكن محمداً ﷺ، وقد قدّر تصارع الإيمان والعاطفة في صدر هذا الابن البار، قال له:

« أنا لا نقتله بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

ليت شعري بماذا نفسر كل ذلك؟

اننا لا نجد له تفسيراً إلا بما أشار اليه عبد الله بن عبد الله بن أبي المذكور حيث قال : « فاقتل مؤمناً بكافر (وهو يعني اباه) فادخل النار » نفسره بالايمان الصادق الذي لم يكن يخامره شك . على أن الايمان لا يستولي هكذا على العقول إلا إذا كان الداعي اليه ذا نفوذ روحي كبير يقلّب العقول والقلوب بقوته الروحية مثلما يقلب الحارث وجه الأرض بمحراثه الجبار .

والى هذا فإن النبي لم تكن له أجناد منظمة ، وانما كان المسلمون كلهم أجناداً ، وكل قبيلة منهم تؤلف فرقة مستقلة على غرار ما كان عليه العرب في ذلك العصر . وجند النبي لم يكن من عناصر أخرى غير العناصر التي تتألف منها جيوش المشركين . بل كانوا كلهم عربا ومن أصل واحد . فلماذا اذن يخاطب رب محمد ﷺ رسوله بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ سورة الانفال .

ولماذا غلبت فئة محمد ﷺ القليلة في عَددها وعِدها ، في أكثر المواقع ، الفئة الكثيرة المجهزة بمعدات أفضل ، وانتصرت عليها وفقاً لما بشر به القرآن؟

ذلك بأن الايمان الصحيح الذي كان يتمتع به المسلمون اسوة بقائدهم الأعلى ، ذلك الايمان الذي كان يثيره محمد ﷺ اثناء القتال بتلاوة بعض آيات من القرآن تبشر الصابرين بالنصر ، وتبشر الشهداء بالجنة ، أكان يمد هؤلاء المؤمنين بجنود لا يرونها من القوى المعنوية فيجعل كل واحد منهم بمقدار عشرة من مقاتلة الاعداء . وهؤلاء إنما كانوا يخوضون الحروب لغرض من

اغراض الدنيا، أما المسلمون فكانت مبادرتهم الى القتال خالصة لوجه ربهم، وفي سبيل اعلاء كلمة دينهم.

ـ ويا ليت شعري كيف استحوذ عليهم هذا الايمان؟

ـ استحوذ عليهم بما كان لمحمد ﷺ من النفوذ الروحي، وبما كان يتمتع به من الثقة المنبثقة عن الاخلاص في الأقوال مع مطابقة الاعمال للأقوال.

العناية التي رافقت محمداً ﷺ

في أواسط القرن التاسع عشر كان يركض بعض الناس عند سيف البحر في محلة المدور ببيروت وذلك باتجاه ولدين مراهقين كانا يسبحان هناك، ثم لم يلبثا ان اشتبكا بالتضارب والشتائم.

فما الخبر؟ ـ لقد عثروا عند الشاطىء على صرة من المال ادعاها كل منهما فانقلبا فوراً من صديقين الى خصمين، فإذا بالخفير يقودهما مع الصرة الى المخفر، وإذا بالصرة عليها كتابة: « امانة يوسف بيهم العيتاني. في بيروت ».

اما قصة هذه الصرة فتتلخص بأنه إذا لم يكن في بلاد الشام وقتئذ بنوك تتبادل مع سواها الحوالات المالية مع الخارج كان كلّ واحد من التجار إذا أراد استيراد شيء من البضائع الأجنبية يسلم رئيس المركب الشراعي امانة لعميله مع رسالة يوضح فيها مطاليبه فيبتاعها ويشحنها على نفس السفينة. وجرياً على هذه العادة كان بعض تجار بيروت وصيدا قد دفعوا ودائعهم إلى (ريّس) احدى السفن القاصدة الى جزيرة مالطة. فما أن غادرت السفينة مرفأ بيروت حتى هبت اعاصير شديدة اغرقتها في عرض البحر.

والجدير بالذكر أن مالطة كانت في ذلك الزمان تعتبر بعيدة جداً عن بريْ مصر والشام حتى كان اهالي هذين القطرين إذا أرادوا الاشارة الى مكان قصيّ

قالوا: «بقفا مالطة». وكانت هذه الجزيرة الوسيط التجاري بين شرقي البحر المتوسط وغربيه.

ولما غرق المركب في فصل الشتاء نفض التجار أيديهم من اماناتهم ورددوا القول: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ولكن الحظ لعب دوره، فإذا به يعيد الى أحد التجار، المشهورين بحسن الطالع، امانته دون سواه: فقد قذف البحر تدريجياً صرة يوسف بيهم العيتاني حتى أوصلها إلى شاطىء بيروت خلال الصيف. وقد تخاصم الولدان عليها حينما استبانت لهم فعادت الأمانة الى صاحبها على غير ميعاد، وتصدق بكثير منها.

وقد توخينا بذكر هذه الأمثولة في مستهل هذا المقال التدليل على وجود شيء يسمى العناية ليس هو كغيره نتيجة محتومة لمقدمات، وانما هو من أسرار الطبيعة. وكم في الطبيعة من أسرار؟. والعجيب في الحظ انه إذا أقبل، أو إذا أدبر، يأتي أو يذهب، في كل من الحالتين، متتابعاً دون انقطاع. وهذا ما أوحى للشاعر ان يقول:

«إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة وإن أدبرت كادت تقد السلاسلا»

وكان محمد ﷺ من الذين رافقهم حسن الطالع: فبالاضافة الى العناصر الكثيرة الخارجية والداخلية التي خدمته فقد عرضت في حياته حوادث متعددة رافقها العناية الإلهية فكانت وسيلة لسلامته، وكان أيضاً واسطة لخروجه منها منتصراً، واليكم بعض الأمثلة:

• لما لجأ محمد ﷺ وصاحبه أبو بكر الى غار ثور انتظاراً للفرصة المواتية للهجرة الى يثرب أقبل فتيان قريش، من كل بطن رجل، بأسيافهم وعصيهم، على البحث عنهما في كل ناحية حول مكة. ولما أدركوا الغار تسلق بعضهم الجبل، ثم عاد أحدهم ادراجه. فسأله أصحابه: «مالك لم تنظر في الغار؟»

فقال: ان عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد، وقد رأيت حمامتين وحشيتين في فم الغار فعرفت ان ليس فيه أحد». وهكذا فإن محمداً وصاحبه ما كانا يسلمان من الغدر لولا أن العناية، أو القدر اذا شئت أن تقول، صرف هؤلاء الفتيان عنهما، وحول رائدهم عن دخول الغار.

• طمع وقتئذ سراقة بن مالك بالجائزة التي وضعتها قريش لمن يرد محمداً ﷺ وأبا بكر، أو يدل عليهما. وكيف لا يطمع والجائزة مائة ناقة؟ فإذا به يلحق بهما في طريقهما الى يثرب، ولما أدركهما وكاد يمسكهما كبا به جواده كبوة عنيفة دحرجته على الأرض، فعاد ادراجه يندب حظه.

• في السنة السادسة للهجرة وجه محمد ﷺ كتبه إلى عواهل العالم المجاور يدعوهم الى الاسلام. وكان في عداد من كتب اليهم برويزشاه فارس.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا الاله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله. ادعوك بدعاية الله. فإني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من ثان حياً، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلَم. فإن أبيت فعليك أثم المجوس﴾. (السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٤٧).

وكان برويز هذا قد انتزع الملك من هرمز ابيه، وسمل عينيه. ثم طغى وتجبر واستعلى واستكبر. وهو كذلك اذ به يتناول رسالة صادرة من جزيرة العرب التي كان يعتبرها جزءاً من مناطق نفوذه. وهي رسالة لا تتضمن انذاره فقط، بل مستهلة باسم مرسلها دون اسم كسرى، وذلك فيه ما فيه، من التحقير على اعتبار الفرس. فإذا به يمزق الكتاب ويصرخ قائلاً: «يكاتبني بهذا وهو عبدي». وإذا به يأمر بازان عامله على اليمن: «ان ابعث اليّ بهذا الرجل الذي

في الحجاز، فامتثل وكتب إلى محمد ﷺ يأمره بطاعة كسرى والقدوم اليه، ويهدده ان خالف.

انه لموقف حرج يواجهه محمد ﷺ: كسرى يأمره بالقدوم إليه؛ وعامل كسرى يهدده، وهو على كل حال لا يستطيع الدفاع فيه عن نفسه حيال بازان، فضلاً عن برويز. زد على ذلك أن قريشاً التي ستعلم بالنبأ قد تنتهز الفرصة وتزحف على المدينة ابتغاء مرضاة فارس، وانتقاماً لنفسها. حقاً أن محمداً ﷺ لم يكن يعبأ بحياته، لكن ديناً قضى نيفاً وعشرين عاماً يبشر به أمسى مهدداً بالخطر أمر جلل يثير المخاوف.

كان يحمل امر بازان رسولان فاستمهلهما محمد ﷺ في الجواب للغد. فإذا بالعناية تبرز، وإذا بالفرج يأتيه من حيث لا يحتسب. ذلك بأن برويز كان قد أوصى بولاية العهد لابنه مردز. فثار عليه ابنه الآخر شيرويه، وزجه في غيابة السجن حتى مات. فكانت هذه الأحداث مشغلة فارس عن محمد ﷺ، حتى إذا استقر الأمر لشيرويه أمر بازان بأن لا يتعرض له.

• كان لغزوة تبوك من أعمال البيزنطيين شأن كبير في تعزيز مكانة المسلمين في الداخل والخارج. فلما عاد محمد ﷺ منتصراً من تلك الغزوة أقبلت الوفود عليه من اطراف جزيرة العرب. فمنها من اسلم، ومنها من اكتفى بمسالمته. وكان في عداد القادمين الى المدينة وفد بني عامر، فأسلموا إلاّ عامر بن الطفيل. فقد اشترط في اسلامه ان يكون للنبي نداً. ولما أبى عليه محمد ﷺ أي شرط خرج مغاضباً وهو يقول: «أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالا». وكان عامر بطلا من أبطال الجاهلية المشهورين، وزعيماً من زعماء العرب المطاعين؛ لذلك فإن محمداً ﷺ حسب حساباً لتهديده، وتوجه الى ربه قائلاً: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل». وان عامراً لفي الطريق اصابه الطاعون،

وقضى عليه قبل ان يدرك مضارب قومه.

• كان من المفروض ان تمتنع مكة على محمد ﷺ حينما زحف يريد فتحها، ليس لأنها قاعدة الوثنية والقاعدة الاستراتيجية لأعداء الاسلام سواء من كان منهم داخل الجزيرة أو خارجها فقط، بل لأن فارس كانت تقف بالمرصاد لكل من يحاول التعرض لها. ولكن مكة استسلمت لمحمد ﷺ دون قتال تقريباً. وقد أتينا من قبل على ذكر الأسباب الداخلية. اما ل. ا. كليموفتش الروسي فقد علل الأسباب الخارجية بقوله: **«لعل موت خسرو الثاني شاه فارس الذي اغتالوه سنة ٦٢٨ م كان السبب في استسلام اهل مكة اذ حرموا بموته مما كانوا يعولون عليه من مساعدة سريعة وناجحة»**. (الاسلام ص ٨٠).

وهذا صحيح لأن خسرويه الثاني المشار اليه كان حريصاً على حماية انصاره وثنيّي عرب الجزيرة، خصوصاً وانهم كانوا أعواناً له في الحرب التي انتصر فيها على الروم سنة ٦١٤ م. فكان اغتياله قبل نحو سنتين من فتح مكة في عداد الحظ الذي خدم محمداً صلّى الله عليهم وسلّم.

• مشي محمد ﷺ بنفسه أمام المسلمين لأعلاء كلمة الدين، والدفاع عنه. ووراء هذا القصد اشترك في نحو ٢٩ غزوة. وكان من حسن الطالع ان خرج من هذه الحروب حياً. وأي انسان يخوض غمار الحرب، ويشترك في هذا المقدار من الغزوات، ثم تقدّر له السلامة ولا يكون من المحظوظين الذين تلاحظهم عيون العناية؟

وليس بوسعنا ان نحصي هنا كل الوقائع التي خدم الحظ فيها النبي، أو بعبارة أخرى نحصي العناية التي بُشر بها بالآية: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾. وحسبنا الاشارة الى محاولات اليهود الكثيرة للفتك به، ومحاولات أخرى، في هذا الصدد، تولى كبرها غير اليهود: فأبو سفيان زعيم مكة بعث رجلاً الى

المدينة لاغتيال محمد ﷺ . والمنافقون المتخلفون عن غزوة تبوك همّوا بقتله عند عودته من الغزوة منتصراً . وأحد الاعراب حاول، في أعقاب غزوة ذات الرقاع، اغماد السيف في صدره وهو نائم تحت شجرة، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل لأن الحظ كان يرافقه .

« وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن امان »

بيد ان « لكل اجل كتاب فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » . فلمّا أزفت الساعة: ساعة حلول الاجل توارى الحظ ورجعت نفس محمد ﷺ المطمئنة الى ربها راضية مرضية، وذلك في ٨ حزيران سنة ٦٣١ م .

فقد أهدته زينب بنت الحارث من أهل خيبر، بعد فتح هذه المدينة، شاة مطبوخة، فجلس وبعض صحبه حولها يأكلونها . وتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسغها، ولفظها وهو يقول: « ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم » وكان بشر بن البرّاء معه قد تناول منها مثلما تناول محمد ﷺ فاساغها وازدردها، ثم مات فيها مسموماً . ودعا محمد ﷺ زينب فاعترفت، وقالت: « لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك . فقلت ان كان ملكاً استرحت منه، وان كان نبياً فسيُخبر » .

هذا ما رواه التاريخ، وزاد على ذلك ان العلة من أكلة هذه الشاة المسمومة عاودت النبي فكانت سبباً في وفاته . بيد اني غير مطمئن لهذه الرواية، كما اني أشك في صحة ما يروى عن النبي في هذه المناسبة، « ان أكلة خيبر لم تزل تعاودني وهذا زمن انقطاع أبهري » . ذلك بأن غزوة خيبر كانت في السنة السابعة للهجرة، بينما ان النبي توفي بعد انقضاء ثلاث سنين ونيف عليها . وفضلاً عن ذلك فإنه ليس من المعقول ان يبقى مفعول السم قاتلاً بعد مرور

هذه السنين. فإن محمداً ﷺ كان قبل عام وفاته يتمتع بصحة ونشاط. يدل على ذلك ان أهم الأحداث التي وقعت في حياته والتي تستلزم الصحة والنشاط وقعت خلال تلك السنوات الثلاث. ففيها فتح مكة، وغزوة حنين، وغزوة تبوك تلك الغزوات الكبرى التي قادها بنفسه. أما اذا صحت الرواية فيكون اليهود قد أدركوا الثأر من محمد ﷺ فاغتالوه مثلما اغتالوا قبله كثيرين من الأنبياء والرسل، ومات شهيد الواجب.

الفصل الحادي عشر

أثر دين محمد ﷺ وقرآنه في انتشار الاسلام

لسنا نتعرض، في هذا الفصل، للاشادة مباشرة بالاسلام والقرآن لأن هذا الأمر لا يدخل في صلب موضوع الكتاب، ولأن هذا الموضوع قد وفّاه المؤلفون والكتّاب حقه حتى لم يبق مجال لمستزيد. وإنما هدفنا التنويه بما كان للدين والقرآن نفسيهما من مساهمة في كسب الناس، وما كان لهما من مفعول في تأمين الانتصار لمحمد ﷺ في معركة النضال لنشر الاسلام.

اثر الاسلام في اكتساب الناس

كان العرب في عصر الجاهلية، قد ساورتهم الشكوك في صحة الوثنية، وشرعوا يتلمسون ديناً آخر غير دينهم، هو دين الله الحق، وكانوا الى ذلك قد شعروا بما أحاق بحياتهم الاجتماعية من فساد، وتذمروا منه، وأصبحت أنفسهم تتوق الى الاصلاح.

فلما اضطلع محمد ﷺ بالدعوة الى الاسلام كانت دعوته في مبدئها لا تتعدى تسفيه الشرك بالله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مما يتفق مع شعور طلاب الاصلاح، ويتفق مع روح العصر، ولا يتنافر مع تعاليم أهل الكتاب. لذلك كانت دعوته الى الاسلام تقابل بالارتياح، في غير الأوساط

المغرضة، لأنها دعوة الى الرجوع للأديان السماوية التي يعرفونها، والتي آمن بها فريق منهم.

ولما شرع محمد ﷺ، من بعد، يطوف بالقبائل في أيام الحج داعياً للاسلام، كان يتلو عليهم الآيات التي لا تتعدى النهي عن الشرك بالله، والدعوة الى مكارم الأخلاق، والاصلاح الاجتماعي. وكانت هذه الآيات القرآنية التي يتلوها محمد ﷺ على الحجاج وغيرهم تدخل الى القلوب عفواً لأن الدعوة الى الخير مستحبة عند الجميع حتى ان أهل الشر أنفسهم لا ينكرونها. وكان أهل الكتاب أكثر الناس استطابة لها.

ولكن الارتياح للارشاد شيء، والعمل بمقتضاه شيء آخر. ذلك بأن الأفراد والجماعات اذا ألفت حالاً من الأحوال فمن الصعب تحويلها عنه. وانتقالها من حال الى حال لا يقع فجأة، ولا يحققه المعقول من الكلام.

وكان العرب قد خلقهم الزمان خلقاً يتفق مع محيطهم، وبالاضافة الى الوثنية ادخل عليهم عادات وتقاليد أصبحت راسخة عندهم بالتوارث، ومنها ما كان صالحاً يحمدون عليه، ومنها ما كان فاسداً يستدعي الانتقاد.

كان المثل الأعلى عندهم قبل الاسلام فخراً بالنجدة، واكراماً للضيوف، ومباهاة بالأنساب، وتعظيماً للأبطال، والتزاماً للعهود وحفظ الزمام، وتمسكاً بالعصبية القبلية. وهذه أخلاق يغبطون عليها لولا ان غشيها أخلاق أخرى، أشرنا اليها من قبل، جعلت مجتمعهم أقرب للفساد منه للصلاح.

والى هذا فإن العرب كانوا قد ألفوا حياة الانطلاق والحرية الواسعة، وألفوا نظام الطبقات، وفطروا على الصلابة في كل شيء، ولا سيا صلابة الرأي، ومن هنا استعذبوا التمرد على كل متعرض لاخضاعهم، أو لاخضاع أفكارهم.

لذلك كله كانت مهمة محمد ﷺ ليست شاقة فحسب، بل تبدو كأنها مستحيلة، خصوصاً وان وراء ما قرره الزمن من عادات وتقاليد ودين أناس لهم أغراض دنيوية في بقاء ما كان على ما كان، أولئك هم سادة مكة أصحاب السيادة الروحية على سائر عرب الجزيرة.

ولو ان محمداً ﷺ حفل بكل هذه المصاعب لأحجم عن المضي في رسالته، ولكنه كان يعتمد على قوة هي فوق القوى البشرية، فلم يعبأ بالصعاب، ولم يتردد عن القيام بمهمته.

ولقد كانت هذه المهمة تنقسم الى قسمين: قسم يتناول الاصلاح الاجتماعي، وقسم يتناول التنظيم الاجتماعي. والقسم الأول كان أيسرهما لأنه كان بمثابة دعوة تقرّ ما عند العرب من الأخلاق الحميدة، وتزيد عليها بالدعوة للايمان والاحسان:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة).

أما القسم الثاني من المهمة وهو التنظيم الاجتماعي، ومداره وضع الأحكام، وتعيين الحدود، وتنظيم العبادات والانصياع الى أوامر الشرع ونواهيه. فهذا التنظيم كان بمثابة الدعوة الى انقلاب في المجتمع العربي ليس من السهل تحقيقه بالنسبة لقوم أصبحت عاداتهم وتقاليدهم القديمة جزءاً من حياتهم.

ـ فكيف السبيل الى تذليل هذه الصعاب؟

ـ ان الهيئة الاجتماعية كالأهرام: من حيث اتساع القاعدة وضيق الذروة. فالمحرومون والمستعبدون فيها، الذين هم السواد الأعظم من الشعب، يمثلون قاعدة الأهرام المتسعة، أما ذروته الدقيقة فيمثلها الخاصة، وهم فئة قليلة.

فالاسلام اذ دعا الى العدالة والمساواة التي تتفق مع رغبات سواد الشعب وأمانيه وجد السبيل الى تقويض أركان المجتمع من أساسه القائم كالأهرام وذلك باكتساب أولئك المحرومين والمستعبدين الى جانب من اكتسبهم من الزعماء أرباب الذروة.

فقد ساوى في المنزلة الاجتماعية بين الأفراد، سواء أكانوا من البيض أم من الملونين. وساوى بين الطبقات، سواء أكانت من طبقة الأسياد، أم من المسودين. وساوى بين العناصر، سواء أكانوا عرباً أم عجماً. وساوى بين عشائر العرب وبطونها وقبائلها، سواء أكانت عدنانية أم قحطانية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات).

«يا أيها الناس الا أن ربكم واحد، لا فضل لعربي على اعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال فليبلغ الشاهد الغائب». (حديث نبوي).

وقرر الاسلام الاخوة بين المؤمنين مستعيضاً عن قرابة الدم بقرابة الايمان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات). وحسب أي انسان ان يسلم أعجمياً كان أم عربياً، رفيعاً أم وضيعاً، أبيض أم ملوناً ليصبح في ساعة اسلامه أخاً لمن سبقوه الى الاسلام، له ما لهم، وعليه ما عليهم.

ودعا الاسلام الى تحرير الرقاب، وعتق العبيد الأرقاء، وجعل ذلك كفارة عن كثير من الذنوب . ففي القتل الخطأ أوصى القرآن بتحرير الرقبة ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ (النساء) . وفي باب الايمان تكون الكفارة ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (المائدة) وفي باب الظهار، من أبواب الأحوال الشخصية، تكون الكفارة تحرير الرقبة « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا » (سورة المجادلة) .

فشوّق الاسلام بكل ذلك الى تحرير العبيد قبل أن تسن الدول المعاصرة القوانين من أجل تحرير الرق . وأوصى بهم خيراً قبل أن تفكر أميركا في أنصاف الزنوج، وقبل أن تحتج لندن على ما يسامون من الهوان في دولة جنوبي أفريقيا . وهو فضلاً عن ذلك قد وصّى بمساعدة الأرقاء الذين تتوق أنفسهم للتعاقد مع أوليائهم على التحرر . ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سورة النور) (العروبة والشعوبيات الحديثة للمؤلف ص ٢٠٠ ـ ٢٠١)؛ كما وصّى بالخول والخدم وجعلهم في مرتبة الأخوان: « ان اخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم » . حديث .

وأما المرأة فقد أتينا في كتابنا « المرأة في التاريخ والشرائع » على الاصلاحات التي خصها بها الاسلام . وحسبنا هنا أن نشير إلى أن رعاية محمد ﷺ لها كانت عظيمة الى حد انه لم ينس التوصية بها في خطابه الأخير الذي ألقاه في حجة الوداع .

« واستوصوا بالنساء خيراً فانهم عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وانما

أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

زد ذلك ان الاسلام ساوى بين الرجل والمرأة في الانسانية، وفي الثواب والعقاب، وساوى بين الزوجين أيضاً في الحقوق الاقتصادية مساواة لم تقررها النظم الحديثة إلاّ في زمن متأخر.

وبعد فماذا كان يبتغي المحرومون والمحرومات في المجتمع العربي أكثر مما أعطاهم الاسلام؟ وماذا كان يتمنّى المستضعفون والمظلومون بأوفر مما جاء به محمد ﷺ؟

ألم يكونوا اذا ألقوا نظرهم على المسلمين في مسجدهم يرون مشهداً كريماً في المساواة؟ ثم ألم يكونوا اذا ألقوا نظرهم، بعد فتح مكة، على الحجاج في إحرامهم يرون مثلاً آخر على الأخوة والمساواة، حيث الجميع يتأزرون بأزر بيضاء لا فرق فيها بين رفيع ووضيع؟

بلى، ولكنهم كانوا يطمعون بشيء آخر أكثر من الأخوة والمساواة! يطمعون بأن يكون لهم نصيب في أموال الأغنياء، وان يكون هذا النصيب حقاً مفروضاً لا حسنة ولا منّاً. فإذا بالاسلام يؤمن لهم هذا النصيب بالزكاة، واذا به يجعله حقاً لهم في أموال المسلمين: «**وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**». فكان الاسلام بذلك أسبق من الاشتراكية المعاصرة الى تقرير هذا المبدأ.

أما وقد وجد سواد الشعب ضالتهم المنشودة في دين محمد ﷺ، فلقد لانت قلوبهم اليه، وأقبلوا عليه تباعاً بغية التحرر من الظلم والاستثمار، وقصد التنعم بالأخوة والمساواة الاجتماعية. على ان هذا الاقبال لم يقتصر على الفئات المحرومة، التي هي بمثابة قواعد المجتمع، بل شمل أيضاً كثيرين من أولئك الذين كانوا ذروته وما دونها، ولا سيا طبقة المفكرين الذين سئموا فوضى

الاعتقادات، والذين تنكروا لفساد الأخلاق. فاذا بهؤلاء يمشون، زرافات ووحداناً، مذ أعلن محمد ﷺ دعوته، في طليعة المقبلين على الاسلام والعاملين لنشره.

وكانت البساطة التي يتحلى بها دين محمد ﷺ عوناً له على الانتشار: فالتوحيد في عقيدته لم يكن يحتاج الى تحليل وتعليل، وإنما كان قريب المفهوم عند العموم. والعبادات، التي فرضت تباعاً بشرعة، ما كانت تتطلب وسطاء بينهم وبين ربهم، ولا تتطلب فخامة في المظاهر والطقوس، وإنما تتصل به مباشرة، وفي أي مكان. «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله». (سورة البقرة).

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه الناحية في الاسلام، ولم يسعهم إلا اطراءها مؤكدين انها كانت من العوامل التي وفرت أسباب انتشاره، ومنهم المستشرق الأميركي بودلي حيث قال: «والبساطة المتناهية هي احدى قوى الاسلام الأساسية، واحدى أسباب انتشاره الملحوظ».

على ان هناك ناحية أخرى كان لها أثر فعال في انتشار الاسلام رغم كل الصعوبات التي كانت تعترضه. فالداعي الى مبادئه الديموقراطية لم يكن يقتصر عمله على الدعوة المجردة فحسب، بل كان يعمل على تطبيق تلك المبادىء مبتدئاً بنفسه: وبالإضافة إلى انه جاء مصدقاً لمن كان قبله من الرسل والأنبياء كان يقول: «لا تفضلوني على يونس بن متى». وهو الى ذلك كان له أرقاء فأعتقهم، وكان عنده مال فأنفقه على المحرومين. ثم صار له سهم في أموال المسلمين فوزعه على المساكين، وأبناء السبيل والمؤلفة قلوبهم، وظل يحسن حتى انه في غضون الاحتضار أوصى بتوزيع ما خلفه من مال قليل على الفقراء وقال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

وأما في الشؤون العامة فكان حرص محمد ﷺ على تطبيق مبادىء المساواة لا يقل عنه في الشؤون الخاصة: فقد ولى بلالاً، في احدى المناسبات، على المدينة. وبلال كان عبداً أعتقه أبو بكر، فأصبح هذا الرقيق بالأمس والياً على بلد فيها سيده، فضلاً عن سادة آخرين من المهاجرين والأنصار.

وكانت زينب بنت جحش من أشراف قريش، وحسبها ان تكون حفيدة لعبدالمطلب أسوة بمحمد ﷺ، فزوّجها محمد ﷺ من زيد بن حارثة. وهذا كان مولى لخديجة زوج النبي أهدته له فأعتقه. فكان هذا الزواج بين زينب من الأشراف وبين زيد من الموالي هدماً لمقاييس الجاهلية، وتأكيداً للأخوة والمساواة في الاسلام.

وأكثر من ذلك فلما جهز محمد ﷺ سرية مؤتة من أعمال عمّان بالشام (٦٢٩ م) أمر عليها زيداً المشار اليه. ثم لما جهّز جيشاً آخر (٦٣٢) إلى أبنى، على مقربة من مؤتة؛ عقد لواء القيادة لابنه أسامة بن زيد، وهو فتى، وكان في هذا الجيش معظم أجلاء الصحابة. هذا فضلاً عن أنه أمّر عمرو بن العاص على سريتيْ بلى وعذرة، وفيها أبو بكر وعمر؛ وهو يتوخى بذلك المصلحة، ولا يعني بالمرتبة.

وهكذا فإن الدعوة المقرونة بالعمل لم تلبث أعطت ثمارها الطيبة، ليس ذلك في ناحية انتشار الدين فحسب، بل بما رافق هذا الانتشار السريع من انقلاب سريع أيضاً في ناحية الأخلاق: فأولئك الذين اشتهروا، في الجاهلية، بالصلابة والتمرد والقسوة والتفاخر بالأنساب سرعان ما انقلبوا في الاسلام الى «أشداء على الكفار رحماء بينهم» (سورة الفتح)، واذا فاخروا في شيء فانما يفاخرون بتضحية أنفسهم في سبيل اعلاء كلمة الاسلام. والحوار الذي جرى

بين المقوقس عامل الروم بالاسكندرية وبين عبادة بن الصامت، حامل كتاب محمد ﷺ اليه في الدعوة الى الاسلام، كان خير وصف لذلك الانقلاب الأخلاقي في الأوساط العربية: فقد شاء المقوقس جسّ نبض المسلمين بمناقشة رسول نبيّهم اليه. فابدره، عقب تناول الكتاب، بالتنويه بقوة الروم وكثرة جموعهم، وبالتعريض بفقر المسلمين وضعفهم. فكان جواب عبادة معبراً عن حالة قومه الروحية أحسن تعبير. قال: «فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه: ان قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته. وما شيء أقرّ لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، واننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين: اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا، وان الله عز وجل قال لنا في كتابه: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين». وما منّا من رجل الا ويدعو ربه، صباحاً ومساء، ان يرزقه الشهادة، وان لا يرده الى بلده، ولا الى أرضه، ولا الى أهله وولده، وانما همّنا أمامنا. وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة. لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه!».

فهذا الانقلاب الأخلاقي السريع الذي أحدثه الاسلام في الأوساط العربية كان من قبيل المعجزة. وما مردّ المعجزة الثانية المتعلقة بفتحهم أبواب الدنيا، ابتداء من خلافة عمر بن الخطاب، إلاّ لهذا الانقلاب الأخلاقي. فهو الذي روّضهم حتى جعلهم يطلبون الموت والجنة، فوهبت لهم الحياة مع الدنيا. وحسب محمد ﷺ ان يكون له مثل هذه المعجزات. وأين منها معجزة موسى الذي ألقى عصاه فاذا هي تلقف ما صنع السحرة؟.

أثر القرآن في كسب الناس للاسلام

كان للفصاحة والبلاغة عند العرب مرتبة عالية ذات نفوذ عليهم بالغ الأثر. وبلغ من تقديرهم لها انهم رفعوا المعلقات في الكعبة الى جانب آلهتهم، التي كانوا يعبدونها، تكريماً لناظميها من فحول الشعراء. وكانوا، كلما دخلوا الكعبة وخرّوا سجداً لأصنامهم، يقفون عند هذه المعلقات، ويتحدثون عنها، ويطرون ناظميها. فالشعر عندهم كان كالبطولة مدار الفخار يقيمون له الأسواق الأدبية، ويتنافسون به. وما أجمعوا على شيء قدر اجماعهم على تعظيم المجلين من الشعراء، وتقديس المتفوقين من الأبطال. ذلك بأن الشعراء كانوا عندهم في الحروب الباردة الناشبة أبداً بين قبائلهم كالأبطال في الحروب الأخرى.

وأما النثر فلم يكن له شأن يذكر في الأدب الجاهلي لأن الاعراب، الذين كانوا يعيشون في محيط يكاد يكون منعزلاً عن سائر العالم، لم يكونوا على حاجة ماسة للانشاء والكتابة، ويقول الدكتور فيليب حتي في كتابه (العرب ص ٤٧): «لم يكن في اللغة العربية قبل محمد كتاب نثري على الاطلاق، ومن هنا كان القرآن في السابق، ولا يزال الى يومنا هذا المثل الأعلى للأسلوب النثري». ولا أدري لماذا أرجع الدكتور حتي اعتبار القرآن المثل الأعلى للأسلوب النثري الى انتقاد وجود كتاب نثري قبله. ومع ذلك فاذا حملنا هذا التعليق على محمل حسن الظن فإنه ليطيب لنا أن نتمنى عليه اطلاق هذا القول على الاعراب دون العرب.

ذلك لأنه ليس من المعقول أن لا يكون للقحطانيين في اليمن صحف أو أسفار، وهي التي وضعت الأحرف الأبجدية قبل فينيقيا. ناهيك بأن الدكتور حتي دلّل في كتابه الذي ألفه مع الدكتورين جرجي، وجبور على أن أيوب

كان عربياً، ونقلوا عن فرنك فوستر رأيه بأن سفر أيوب الذي ضم بدائع الحكمة انما وُضع، في الأصل، باللغة العربية (تاريخ العرب ـ مطول ـ ج ١ ص ٥٥).

على أن الأدب الجاهلي لم يكن يخلو من النثر، ولعل بعضه قد دوّنه وقتئذ المعاصرون من العرب وغيرهم من المواطنين الذين كانوا يحسنون الكتابة فانتقل منهم الينا، ونجد نتفاً منه في بعض الخطب التي كان يلقيها فريق من خطبائهم في الأسواق الأدبية، ونجد نتفاً منه أخريات في سجع الكهان والحكم والأمثال. ونحن نرجح ان هذه الخطب والحكم والأمثال قد دوّنت في ذلك العصر أسوة بما دون من المعلقات والمفضليات[1]، وأسوة بدواوين الشعر الأخرى كديوان السموأل (صموئيل) بن عاديا صاحب الابلق الفرد الذي نشره الأب شيخو في بيروت[2]، لولا تدوينها في عصرها لما بقيت محفوظة حتى الآن.

هذا ولما انبرى محمد ﷺ الى تهديم الوثنية، ونزل الى ميدان الصراع معها، أشهر في وجوه حملتها وأصحابها ذلك الحسام الذي كان يعتبره هؤلاء أمضى سلاح، وأعني به سحر البيان.

كان الوليد بن المغيرة من كبار المشركين في مكة فلما احتضر في السنة الثانية للهجرة بدا عليه الجزع فقال له أبو جهل: «يا عمّ ما جزعك؟» فقال: «ما بي جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة». فقال

---

١ ـ نسبة الى جامعها المفضل الضبي المتوفي حوالي سنة ٧٨٦ م وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة.

٢ ـ خصصنا بالذكر ديوان السموأل لأن الدكتور حتي وزميليه اعترفوا به للسموأل (ص ١٥٢) بينما هم أظهروا الشك حول الدواوين الأخرى، ومنها دواوين النابغة، وعلقمة، والأعشى اذ قالوا عنها: «وكلها تعزى الى العصر الجاهلي. (ص ١٢٩).

أبو سفيان وكان حاضراً في المجلس: «لا تخف اني ضامن ان لا يظهر». ويقصد بابن أبي كبشة محمداً ﷺ من قبيل الهزء به، وهو لقب جد له من والدته.

فالوليد هذا الذي كان من فصحاء قريش، والذي بلغ منه ما بلغ من الحرص على أن لا يظهر الاسلام بمكة كان، على رواية محمد عبدالغني حسن (الاسلام ص ٦٤) «يسمع آيات من القرآن في أول عهد الناس بالدعوة فيخشع قلبه، ويجد فيها شيئاً لم تألفه الأذن العربية، ولا ألفه العرب فيما كانوا يسمعون، وفيما كان يدار عليهم من قول منثور أو منظوم، فيقول: «والله ان أسفله لمورق، وان أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر أ هـ». ولعل الأستاذ يوافقني على التوقف هنيهة عند العبارة الأخيرة من قول الوليد لنتساءل معاً، اذا كان هذا قميناً بأن يعلنها، وهو الذي جزع، من ظهور الاسلام بمكة، حينما كان يحتضر، أشد من جزعه من الموت، على ما في هذا الاعتراف من تأييد لمحمد ﷺ، وتشجيع للمشركين على الايمان به؟

وعلى كل حال فإن صحت هذه الرواية، أم لم تصح فمما لا شك فيه ان الوليد هذا كان معجباً بسحر بيان محمد ﷺ، ولا يعرف الفضل إلا ذووه: فقد جاءه نفر من قريش يتشاورون ماذا عساهم أن يقولوا في هجاء محمد ﷺ للعرب القادمين الى الحج حتى لا يختلف بعضهم على بعض. فاقترح أحدهم أن يقولوا: «إن محمداً كاهن». فرد الوليد هذا الرأي لأن ليس في ما يقول محمد بزمزمة الكهان ولا بسجعهم. واقترح آخرون أن يزعموا «أن محمداً مجنون». فرد الوليد أيضاً هذا الرأي اذ لا تبدو على محمد ﷺ ظاهرة تدل على جنونه. واقترح غيرهم ان يتهموا محمداً بالسحر، فردّ الوليد كذلك هذا الاقتراح؛ ذلك بأن محمداً ﷺ لا ينفث في العقد، ولا يأتي شيئاً من عمل السحرة. وبعد حوار جرى بينهم اقترح الوليد عليهم ان يقولوا للحجاج: «ان

هذا الرجل ساحر البيان، وان ما يقوله سحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته» . فوافقوه على ذلك .

والواقع ان الوليد بن المغيرة كان على صواب حينما وصف محمداً ﷺ بأنه ساحر البيان . أما ما ذهب اليه بأنه يفرّق بين المرء وأبيه الى آخر العبارة، فهو يعود الى ما كان من نفوذ القرآن في انتزاع المشركين انتزاعاً من أوساطهم العائلية، والقائهم في حظيرة الاسلام . فالقرآن كان أمضى سلاح في المعركة ضد الوثنية ببلاغته وفصاحته وعذوبة سجعه وموسيقاه وحسن سبكه وانتقاء ألفاظه . ذلك لأن سحر البيان كان له تأثير عظيم على أولئك العرب يفعل فيهم ما لا تفعله الخمرة في العقول .

وكان أيضاً معجزة لمحمد ﷺ راهنة تقوم مقام المعجزات والخوارق التي تنسب لغيره من الأنبياء والرسل، وحسبه انه باق خالد بعد أن دالت دولة معجزات سائر المرسلين .

ولكن الأغراض تعمي البصائر التي في القلوب فراح المكابرون يتقوّلون على القرآن شتى الأقاويل . فكانوا تارة يقولون هذا شعر، وهو في الواقع، شعر منثور، وتارة يقولون هذا سحر، وهو في الحقيقة سحر البيان﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (سورة الفرقان) . وقالوا بيد انهم في كل ما قالوه عن القرآن لم يحاولوا النيل من بلاغته .

وكان القرآن يتحداهم في معرض اثبات نبوة الناطق بلسانه : تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ

اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة هود).

ثم تحداهم أكثر من مرة بأن يأتوا ولو بسورة واحدة، ومنها الآتية:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (سورة البقرة).

ولما احجموا عن ذلك، على ما فيهم من البلغاء والفصحاء، مضى في تحديهم:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (سورة الاسراء).

اما وان التاريخ لم يدوّن ان أحداً منهم تصدى لمعارضة القرآن في ناحية بلاغته وفصاحته، رغم ما جاء فيه من التحديات الممزوجة بالتهكم، فقد اعتبر المسلمون هذا دليلاً على اعجاز القرآن.

والواقع ان ميزة القرآن لم تكن تقتصر على أسلوبه وسحر بيانه، بل كانت ترجع أيضاً الى ما ورد فيه من عقيدة صافية، وتشريع حكيم، وتقويم للأخلاق: فسوره المكية الموجزة، وهي نحو تسعين سورة، تدعو بأسلوب طافح بالايمان الى التوحيد مفندة الشرك بالله. وسوره المدنية المسهبة، وهي أربع وعشرون، جاءت قوانين مدنية وجزائية ومالية تتناول شؤون المجتمع من زواج وطلاق وارث وزكاة وقصاص وغير ذلك. وهي مشفوعة بالحض على التماس القوة والعزة والكرامة والوفاء بالعهد والأمانة، ومقرونة بتحريم الخمر والميسر والربا والزنى والسرقة والغيبة والنميمة وغيرها، هذا فضلاً عن تقرير العبادات. أما الارشاد والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها أكثر ما ورد منها في الآيات المكية والمدنية على السواء.

هذا وقد عاب بعض المستشرقين وغيرهم على القرآن ما جاء فيه من ناسخ

ومنسوخ، وعدوا هذا من قبيل التناقض. وهم لو انصفوا لاعتبروا التناسخ في بعض الأحكام حسنة من حسنات الاسلام: ان تبدل الأحكام بتبدل الأزمان قاعدة ذهبية لا غناء عنها، أخذ بها الاسلام كما أخذت بها المسيحية حيث قالت: «ما يحلّ لكم في الأرض يحل لكم بالسماء» ذلك لأن الزمان يدور دوران الفلك فتتجدد بدورانه حاجات الناس، ويبرز الى الوجود منها أشياء كثيرة لم تكن في الحسبان. وكل شيء يركد في هذا الكون، سواء أكان مادياً أم معنوياً فمصيره الى الفساد.

فمراعاة لهذه القاعدة، ومواجهة للأزمان الصاعدة وما يحدث خلالها من التطورات، اعتمد الاسلام على القياس في استنباط الأحكام للأمور الطارئة، وعلى الاجماع، وهو ما يجمع عليه المسلمون فيدخل في نطاق الأحكام.

وأما ما حدث من الناسخ والمنسوخ، في غضون حياة محمد ﷺ في بعض الأحكام، وما حدث من استكمال العبادات تدريجياً فكانت الحكمة فيها مراعاة الظروف ليسهل على المشركين الدخول في الاسلام على ما هو معروف من صعوبة الانتقال من حال الى حال. ولو ان محمداً ﷺ جاءهم بالدين، منذ بعثه، دفعة واحدة كاملاً كيوم تلي عليهم الآية: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام ديناً». لوجد الناس فيه حرجاً، ولا نفضوا من حوله. فكانت الحكمة تقضي بمراعاة الظروف. والى هذا يرد ان الآيات التي نزلت بمكة اقتصرت على العقيدة، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بينما نرى الآيات المدنية قد أضافت الى ذلك التشريع والتنظيم. والى هذا يرد أيضاً ما حدث من التطور في الأحكام.

مثلاً كان العرب مدمنين على المسكرات، وليس من الميسور اقلاعهم عنها، والعادة محكمة، فكان من الحكمة ان لا يحرّمها الاسلام دفعة واحدة،

لذلك فقد ورد النهي عنها في القرآن تدريجياً: حتى انتهى الى تحريمها: نُهوا عنها أولاً من قبيل الارشاد بالآية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة). ثم نهوا عنها في الصلاة بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (سورة النساء). ثم جاء الأمر أخيراً بتحريمها في السنة السادسة من الهجرة بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ • إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (سورة المائدة). أما العقيدة الاسلامية القائمة على الايمان باله واحد لا شريك لـه، وان محمداً ﷺ عبـده ورسـولـه، والايمان بكتب الله الأخرى ورسله وملائكته واليوم الآخر، فهذه العقيدة التي دعا اليها محمد ﷺ، مذ أعلن رسالته، لم يتناولها ناسخ ومنسوخ، ولم يطرأ عليها تبديل أو تحوير، ومات عليها. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة).

كان محمد ﷺ يكتفي، وهو بمكة، بـالايمان بهذه العقيـدة مـع اجتنـاب المنكرات أسوة بعيسى الذي كان يكتفي بالايمان بدعوته وبالمعمودية. ولما بايع محمد ﷺ اثنى عشر رجلا جاؤوا للحج من يثرب، وهم أول من أسلم من المدينة كانت بيعته لهم مقتصرة على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم، ونحو ذلك من الأمور المستحبة عند العموم. أما في المدينة، حيث اكتملت الشريعة الاسلامية بتقرير الأحكام وفرض العبادات،

فإن محمداً ﷺ لم يعد يقبل من أحد الاسلام إلا كاملاً بعقيدته وأحكامه وعباداته وأوامره ونواهيه. ولقد أتينا في فصل سابق على أمثلة من رفضه عروض بعض العرب الدخول في الاسلام على شروط كانوا يضعونها، ورفضه الاسلام الذي لا يسبقه الايمان، ومنها قوله لثقيف أصحاب الطائف وقد التمسوا منه اعفاءهم من الصلاة «لا خير في دين لا صلاة فيه». ورد طلبهم.

هذا ويحسن بنا في صدد بحثنا هذا عن القرآن ان نذكر درابر الأميركي في ختام هذا المقال. فلقد وصف القرآن بحرية على ما بدا له، ولكنه مع ذلك إنتهى الى القول: «عطفاً على ما ذكرته عن كتاب ينظر اليه ملايين من الناس على انه منزل من عند الله لا يسعني الا ان أذكركم هما مدينتان له كل من أفريقيا وآسيا اللتين لا تزالان تتخذانه الدليل في حياتهم اليومية، ولا يسعني الا التنويه بمقدار ما تدين له كذلك كل من أوروبا وأمريكا القارتين اللتين استقبلتا به أوائل لمعان المعرفة[1]».

1 - J.W. Draper. Hre. intellectuel du dv. de l'Europe T. 11. P. 132.

الفصل الثاني عشر

على أي شيء قام دين محمد ﷺ ؟

يخيل لفئة من المسلمين أن الفوز الذي أحرزه النبي في معركة النضال ضد المشركين يعود الى ما أجراه الله على يديه من المعجزات، وان هذه المعجزات كان لها شأن، وأي شأن، في اقبال الناس على الايمان برسالته .

ويخيل لفئة أخرى من غير المسلمين ان فوز محمد ﷺ في هذه المعركة يرجع الى السيف وحده الذي امتضاه، فأدخل الناس عنوة في دينه .

والواقع ان محمداً ﷺ انما أتيح له الفوز وادراك النصر استناداً الى مؤهلاته الخاصة، والى طبيعة مختلفة، داخلية وخارجية، منها ما يرجع الى زمان سابق لزمانه، ومنها ما كان معاصراً له .

ونحن نعالج هنا هذا الموضوع لنثبت ان الاسلام لم يقم على المعجزات، وان محمداً ﷺ لم يكن اعتماده على السيف إلاّ في الغزوات حيث لا يجدي غير الحسام .

هل قام الاسلام على المعجزات؟

تحيط بالأنبياء والرسل هالة من التعظيم مشفوعة بالمحبة درج المؤمنون بهم على تزويدها بمقدار كبير من أنباء المعجزات يتفق مع تعظيمهم لهم ومحبتهم . وكان

بعض رجال الأديان يجيزون لأنفسهم الأخذ بذلك التزويق بغية حمل الناس على الايمان بذويهم من أصحاب الرسالة على اعتبار ان الغاية تبرر الواسطة، واستناداً على علمهم بأن عامة الشعوب هم كالأطفال يستطيبون السير بقدر ما فيها من عجائب وغرائب.

وقد اقتبس بعض المسلمين هذه الطريقة حينما تناول الأعاجم منهم تدوين التاريخ. ذلك بأن فريقاً من هؤلاء كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجردة عن الخوارق والمعجزات التي تحفل بها سير أنبيائهم في أديانهم السابقة، فراحوا ينسبون لمحمد ﷺ معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، ولم يشر إليها الحديث. وعلى ما روى كتاب «مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ٢٦» «فإن معجزات الرسول بلغ عددها ٤٠٥٠ معجزة جمعت في مجلدين».

ولما وضعوا سيرة مولد النبي استساغ بعض الفرس الذين أسلموا أن يزجوا فيها تلك الخرافات التي كانت تحفل بها سيرة نبيّهم السابق زرادشت. فجاءت قصة المولد على شكل مليء بالخوارق التي لا تتفق مع مصادر الاسلام، ومليء بالسخائف التي لا تتلاءم مع عظمة محمد ﷺ. وقد قال محمد عبدالله السمان في هذه المناسبة: «انه لمن دواعي الأسف أن يكون محمد ﷺ هذا كل نصيبه اليوم من التقدير أن ترتفع عقائر المؤذنين من فوق مآذنهم ومحترفي التواشيح الدينية، في اذاعاتهم وحفلاتهم لتتحدث عن محمد ﷺ.. كحيل العينين، أحمر الخدين، جميل الوجه، الذي ظلله الغمام، وكلمته الغزالة، وحنّ اليه الجذع، وشكا اليه البعير، وسبح له الحصى، ونبع الماء من بين أصابعه». (محمد رسول البشر ص ١٢٤).

على أن بعض الفرس لم يكتفوا بما زجّوا في الاسلام من أمثال هذه الدخيلات، بل استرسلوا في ذلك حتى أبرزوها مصورة في كتبهم. وقد رأيت

في مكتبة ايفان تشوكين، الاخصائي الروسي في المخطوطات الشرقية، كتاباً للسير ت ورنولد الانكليزي بعنوان Painting in Islam حافلاً برسوم محمد ﷺ منذ المهد منقولة عن الفرس في العهد الاسلامي: وحسبك أن ترى بينها صورته يوم مولده والملائكة حافين حول مهده حتى تقدر مبلغ ما كان عليه هؤلاء من العناية بهذه الخوارق التي لم يأت بها الاسلام.

والواقع أن ثقاة العلماء من المسلمين كابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» أجمعوا على أن محمداً ﷺ كان في دعوته انما يعتمد على الاقناع والايمان، وكان، كما وصفه حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» «حريصاً على أن يقدر المسلمون انه بشر مثلهم يوحي اليه حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن»، وأنكر هؤلاء الثقاة على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار.

وقد عالج هذا الموضوع الشيخ محمد عبده في كتابه «الاسلام والنصرانية» وقال عن محمد ﷺ: «كان لا يعتمد على شيء في دعوته الى الايمان بالله ووحدانيته سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة». وجرى محمد رشيد رضا في كتاب «الوحي» مجرى أستاذه الشيخ محمد عبده، وقال: «أن محمداً ﷺ لم يدع أحداً من الناس، ولا أمة من الأمم، إلى الايمان برسالته بأن قدّم بين يديّ دعواه خارقاً من خوارق الأفعال مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى».

وكان استناد هؤلاء الثقاة يقتصر على القرآن الذي بين أيدينا، وعلى الحديث الصحيح. وهما وحدهما المرجع في هذا الشأن والحكم:

ففي القرآن آيات متعددة تشير الى تكرار طلب المشركين من النبي أن

يجري ربه على يديه المعجزات حتى يؤمنوا به. وفي الجواب على هذا التحدي كان القرآن يرد عليهم:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا • أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا • أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا • أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء).

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام).

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ (سورة الكهف).

وفي الحديث: «ما من الأنبياء نبيّ الا أعطي ما مثله آمن عليه البشر. وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً».

وبعد هذا الكلام الصريح في الجواب على تحدي المشركين في صدد طلب المعجزات ألا يحق لنا أن نتساءل من أين جاؤا بـ ٤٠٥٠ معجزة نسبوها لمحمد ﷺ؟ ثم نتساءل من أين استقى واضعو تلك السير النبوية الخوارق التي زجوها فيها؟

بلى ان هناك آية واحدة لمحمد ﷺ أشار اليها القرآن في معرض طلبات المشركين المتكررة أن يأتيهم بالمعجزات، وهي تنزيل الكتاب عليه.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ • أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (سورة العنكبوت). فما هو الاعجاز بالقرآن عند علماء المسلمين؟

الجواب على هذا السؤال جاء مفصلاً في الكتب التالية: (١) دلائل الاعجاز لعبدالقادر الجرجاني (٢) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيّم الجوزية (٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، وفي غيرها من الكتب. ونحن نكتفي بالاشارة اليها، وبما أوردناه في سياق كلامنا عن أثر القرآن في كسب الناس الى الاسلام. على أنا لا نستطيع تجاوز هذا الموضوع دون التوقف هنيهة عند الدكتور فيليب حتي في كلامه عن اعجاز القرآن حيث قال: «وقد عد عرب الجاهلية الفصاحة والرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث. والعربية بفضل تركيبها يحسن فيها الايجاز، ويكثر الاقتصاد على ذهن السامع؛ فاستغلّ الاسلام هذه الميزة اللغوية، كما استغل ميول أهله النفسية فجاء القرآن معجزة في أسلوبه وتركيبه. ويعتقد المسلمون ان الاعجاز هو أسطع برهان على صحة دينهم. وإذاً فقد كان فوز الاسلام فوز لغة الى حدّ ما. بل قل هو فوز كتاب». (العرب مختصر - ج ١ ص ٢٩).

ثم أكد الدكتور حتي وزميلاه الدكتوران جرجي وجبور هذا الرأي، وقالوا بصراحة أكثر: «ولا ريب ان انتصار الاسلام كان الى حد ما انتصار لغة، أو بالأحرى انتصار كتاب». (العرب - مطول - ج ١ ص ١٢٣).

والواقع ان فوز الاسلام لم يكن فوز لغة، ولا فوز كتاب، بل كان يعود الى عوامل كثيرة داخلية وخارجية، سياسية واقتصادية واجتماعية أتينا على تبيانها في هذا الكتاب. كما ان المسلمين لا يتخذون من اعجاز القرآن دليلا على صحة دينهم. بل دليلهم على ذلك ما جاء فيه من عقيدة صافية، وأحكام متزنة، ودعوات الى الصالحات، ونواه عن المنكرات. وهم يعتقدون ان اعجاز القرآن كان في عداد الأسباب التي وفرت للاسلام الاقبال عليه من قِبَل قوم كانوا يقدّسون الفصاحة والبلاغة.

وبعد فكيف يكون فوز الاسلام فوز لغة، أو فوز كتاب بينما أن تسعين في

المئة من الذين أسلموا ، فيا بعد ، كانوا لا يقرأون اللغة العربية ، ولا يفهمون ما ورد في القرآن الا بالترجمة .

وهذا توماس كارليل الذي لا يدرك شيئاً من اعجاز القرآن ، والذي أعرب عن أسفه لأن الترجمة لم تبق على شيء من بيانه ، لم يسعه مع ذلك الا التنويه به لما وجد فيه من المعاني التي تثير الاعجاب ، فلنسمعه يقول : « وانا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد ، لأني أرى لها في الانجيل شبيهاً . ولكني شديد الاعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور . وهذا أعظم ما يلذ لي ويعجبني » . (البطولة والأبطال ص ٧٧) .

هل قام الاسلام بالسيف؟

كثيراً ما كنا نسمع في عهد الشباب القائمين (بالعراضات) في بعض المدن الداخلية ينادون عالياً خلال مسيرهم في الشوارع « دين محمد دين السق » ، وهم يمشون وراء واحد منهم يلوّح بالحسام . وكثيراً ما كنا نرى خطباء المساجد في صلاة يوم الجمعة يتوكأون على سيوفهم ابان صعودهم الى المنبر لالقاء الخطبة المفروضة ، وابان استوائهم فوق المنبر ، فيخيل لنا أن القصد من ذلك التنويه بأن : دين محمد ﷺ دين السيف . وهذه عادات قد بطلت الآن في بلاد الشام ، وربما كان في غيرها أيضاً .

ثم أتيح لنا أن نقرأ ما دونه المستشرقون الأجانب عن نبينا العربي فإذا بنا نرى أكثر هؤلاء يذهبون مذهب القائلين بأن الاسلام انما قام بالسيف ، ويتخذون من ذلك وسيلة للتنديد به .

والواقع ان محمداً ﷺ قضى ثلاث عشرة سنة بمكة كان يدعو فيها الى الاسلام بالموعظة الحسنة ملتزماً الرفق واللين والاقناع ، كما يظهر ذلك في نيف وسبعين آية مكية كلها تجنح للسلام ، وتدعو الى العفو والصفح .

ولكن الموعظة الحسنة، وما اليها من المسالمة والسماحة، لم تكن في يوم من الأيام لتجدي في اقناع أصحاب الأغراض، من أمثال سادة مكة الذين كانت الوثنية لهم شباكاً للمعاش، وسلماً للسيادة. فقابلوا لينه بالشدة، ونصحه بالأذى

ولما اضطر محمد ﷺ للهجرة الى يثرب اتخذ شعاره فيها ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (سورة البقرة). والتزم هناك، في سياسته الداخلية، جانب المحاسنة مع أهل الكتاب من أهلها وجيرانها فتوادّ معهم، وأقرّهم على دينهم، وعاهدهم على حرية الرأي وحرمة المال. وكانت قبلته في الصلاة ما تزال بيت المقدس قبلة أنظارهم مبالغة في مجاملتهم، حتى اذا نكث اليهود العهد تحول الى الكعبة في السنة الثانية من الهجرة.

وأما في السياسة الخارجية فإنه، وهو صاحب رسالة، لم يكن بوسعه أن ينسى ان في مكة وما حولها ما يزيد على أربعماية صنم يحجّ اليها العرب كل عام، ويخرّون سجّداً لها من دون الله، ويعقدون الأسواق في جوارها، فتعتز الوثنية بهذه الاجتماعات، وتتوثق النزعات الجاهلية. ولم يكن بوسعه أن ينسى أيضاً ان زعامة خصوم الاسلام الالدّاء ستبقى خالدة ما بقيت مكة في حوزتهم، وان الوثنية ستظل قائمة مرفوعة الرأس ما فتئت هذه الزعامة موجودة.

أما وانه مكث بينهم ثلاث عشرة سنة وهو يحاورهم للعدول عن الوثنية دون جدوى، وأما وان النصح والارشاد كانا يقابلان منهم بالسخرية وبالأذى فماذا تراه يفعل؟

أنه حريص على ازالة كل العقبات الكأداء التي تقف في وجه دينه.

أنه حريص على تطهير جزيرة العرب من ادران الوثنية.

فهل من الحكمة أن يثابر، من بعد، على تبليغ رسالته لهؤلاء القوم على غرار ما كان يفعل في مكة بعد أن ثبت له أن هذه الطريقة لم تجد نفعاً رغم وجوده بينهم؟ أم عليه أن يلجأ الى وسيلة أخرى من شأنها أن تذلل عنادهم؟

كانت رسالة محمد ﷺ تقف على مفترق الطرق. فأما فشل وانهيار اذا استمر على مقابلة أولئك المكابرين بالحسنى والصفح، وأما فوز وانتصار اذا شهر السيف في وجوههم، وواجه قوتهم بالقوة.

فكان من الطبيعي أن يختار محمد ﷺ السيف الذي أصبح في حوزته، وان يستعمله من أجل الدفاع عن دينه، ومن أجل تحطيم الوثنية. فكان ما كان من غزوات تعرضت لقوافل قريش، وحروب نشبت بينه وبينهم انتهت بدخوله ظافراً الى مكة وتهديم أوثانها والأصنام الأخرى القائمة حولها.

وهو كذلك فإذا بعدو قوي يبرز الى الميدان. واذا بهذا العدو ينكث العهد، ويسعى للتفريق بين المسلمين، ويؤلف العرب، وينشط أهل مكة للانقضاض عليه، ويعلن، في سبيل مرضاتهم، ان الوثنية خير من الاسلام. واذا بهذا العدو يبيّت المؤامرات لاغتياله. أولئك هم اليهود مواطنوه في المدينة وما حولها الذين كانوا أصدقاء له في الأمس حينما كان ضعيفاً، وانقلبوا الى أعداء الداء مذ أصبح قوياً. وكم عند اليهود من حنكة في تدبير المؤامرات، وتنظيم المكائد؟

لقد قاتل محمد ﷺ قريشاً، وهم عشيرته، حينما تصدوا لرسالته، وهي أعز شيء على قلبه. فكيف لا يقاتل إذن هذا العدو الداخلي، والعدو الداخلي شر من العدو الخارجي. فكان على محمد ﷺ ان يشهر السيف أيضاً في وجه اليهود الذين يحسب الناس ألف حساب لمكرهم، ثم كان ما كان من اجلائهم عن المدينة، واخضاعهم بالقوة في كل مكان.

على أن محمداً ﷺ وان اضطر لاشهار السيف في وجوه المشركين واليهود حفاظاً على الكيان الاسلامي، فقـد كـان، مـع ذلـك، يحرص على اجتنـاب العدوان، ويحرص على أن لا تكون له المبادرة في امتضاء الحسام.

« وقـاتلـوا في سبيـل الله الذيـن يقـاتلـونكـم، ولا تعتـدوا ان الله لا يحب المعتدين ». (سورة البقرة).

أفيلوم منصف محمداً ﷺ وقد لبّى نداء الواجب في اللجوء الى الحسام بعد ما فشلت الوسائط الأخرى، وهو انما لجأ اليه بغية تطهير جزيرة العرب من الوثنية ومن أعداء العرب الذين كانوا يتربصون به الدوائر؟

لقد تولى الجواب على هذا السؤال ت. كارليل حيث قال:

« لقد تحدثوا كثيراً في صدد نشر محمد دينـه بـالسيـف، وشـد مـا أخطـأوا وجاروا إذ اتخذوا ذلك دليلا على كذبه. هم يقولون لولا السيف ما كان دين محمد لينتشر. ولكن ما الذي أوجد السيف؟ - أليست هـي قـوة ذلـك الديـن، وانـه حق؟ بلى ان الرأي الجديد أول ما ينشأ ينشأ في رأس رجل واحد؛ وإذا بهذا الفرد يتبنىّ هذا الرأي ضد العالم أجمع. فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وشهره في وجه الدنيا، وثبت عليه وصابر فقلما والله يفشل. إني أرى على العموم أن للحق أن ينشر نفسه بأية طريقة تبدو ممكنة بمقتضى الظروف. أو لم تروا النصرانية كيف كانت لا تأنف استخدام السيف أحياناً؟ وحسبكم أن تذكروا ما صنع شارلمان في قبائل السكسون ».

والواقع ان الذين انتقدوا محمداً ﷺ من المستشرقين وغيرهم لاستعماله السيف في سبيل نشر دينه لم يأخذوا بعين الاعتبار هدفه وظروفه الخاصة. انهم وضعوا نصب أعينهم المسيح رسول المحبة والسلام، وقابلوا بينه وبين محمد ﷺ، فأنكروا على النبي العربي، في نتيجة المقابلة، سلوكه سبيلاً آخر غير

سبيل عيسى في نشر الدين. وهي مقابلة لم يكونوا موفقين فيها لأنها جاءت قياساً مع الفارق، وجاءت بعيدة عن مراعاة الظروف والأحوال.

فعيسى نشأ في أحضان دولة كبرى ما كان في طاقته الخروج عليها رغم قوله: «ما جئت لألقي على الأرض سلاماً، بل سيفاً... الخ». وهي مع ذلك قد حكمت عليه بالموت لمجرد نشره مبادىء لا تتفق مع مبادئها.

وعيسى ظهر بين أقوام لهم مدنيتهم، ولهم أديانهم، وكان يهودياً يؤمن بالتوراة، ولا ينكرها، غير انه كان ينكر على قومه الاسرائيليين فساد أخلاقهم، وجشعهم في حب الدنيا وعبادة المال، وانصرافهم الى التشاحن والتباغض، والى التهتك في الشهوات، فجاءت دعوته مقتصرة على اصلاح المجتمع. وكان أساسها الحض على الزهد في الدنيا، وعلى العمل للآخرة، واحلال المحبة والسلام محل التباغض والخصام. وهو في اقتصاره على ذلك لا يتفق مع محمد ﷺ وحده، بل لا يتفق مع موسى أيضاً، ذلك الذي تزعم الاسرائيليين في نضالهم ضد الفراعنة بمصر، ثم ضد الكنعانيين بفلسطين، وشهر السيف. ولو أتيح لعيسى، بوصفه رسولاً، من القوة ما أتيح لمحمد ﷺ لما عزف عن استخدامها في سبيل تحقيق الاصلاح الاجتماعي الذي كان ينشده.

أما محمد ﷺ فقد نشأ بين قوم غير قوم عيسى، وفي بيئة غير بيئته: نشأ بين قوم كان القتال عندهم شيئاً مألوفاً، وكان المورد الوحيد لأكثرهم. ونشأ في بيئة جاهلة متمردة كانت الحضارة بينها تشبه الواحات في الصحراء. ونشأ في مدينة كانت قاعدة الوثنية، وكان سادتها يدافعون عن هذه الوثنية دفاع الانسان عن مورد معاشه، وقوام زعامته، فلا يعبأ من ثم بأي نصح ولا ارشاد.

وهو الى ذلك لم يكن يدعو الى اصلاح المجتمع فحسب، أسوة بالمسيح، وانما كان يريد أيضاً تطهير شبه جزيرة العرب من الوثنية على اعتبار ان كل

دعوة للاصلاح لا تجدي نفعاً ما بقيت تلك الأصنام قائمة . وكان يريد القضاء على نزعات الجاهلية ، بما فيها من عصبيات البطون والعشائر والقبائل ، لجمع شتات الأمة العربية . أما وان أولئك القوم ما كانوا يفهمون بغير لغة الحسام ، وأما وان الحجة والمنطق لم يجديا نفعاً طوال ثلاث عشرة سنة قضاها في مكة ، فمن ذا الذي يلومه اذا خاطبهم من بعد باللغة التي يفهمون ؟

« والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم »

وهنالك فرق آخر بين محمد ﷺ وعيسى غير اختلاف الأحوال والظروف غفل عنه المستشرقون ، ولم ينتبه اليه المندّدون بمحمد ﷺ من جراء استخدامه السيف . وأعني به الفرق بين دينيهما من حيث المبدأ . فمحمد ﷺ دعا الى مثل ما دعا اليه موسى وعيسى من مكارم الأخلاق والمحامد ، ونهى عن مثل ما نهيا عنه من الرزائل والنقائص ، وجرى مجراهما في الدعوة الى توحيد الله وعبادته ، والايمان باليوم الآخر ، وبشر بمثل ما بشر به عيسى من الأخوة الإنسانية والمحبة والسلام ، ولكنه زاد عنه في الاتيان بشرع يجمع بين الدنيا والآخرة ، شرع ينظم الشؤون الدنيوية والأخروية سواسية ، فلا يدْعُ الى روحية مطلقة مجردة من نعيم الدنيا ، كما فعل المسيح . ولا يدْعُ الى مادية مطلقة مجردة من نعيم الآخرة ، كما فعل مزدك نبيّ المجوس . وانما دعا الى حالة وسطى تجمع بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة لا طغيان بينهما .

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (سورة القصص) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (سورة الأعراف) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ

﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة المائدة) .

والشريعة الاسلامية وان حضت على العبادة والتقوى ألاّ أنها نهت، في نفس الوقت عن الرهبانية ، والى الانصراف عن الدنيا للنوافل من الصلوات: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الجمعة) .

وهي الى ذلك فضلت العمل والكسب على الانقطاع للعبادة، وجعلت ثواب العامل المناضل خيراً من زهد الزاهد المتواكل . وقد جاء صحابيان الى الرسول يعملان أخاً لهما قالا عنه «انه لا يخلص من صلاة الاّ الى صلاة، ولا من صيام إلاّ الى صيام حتى أدركه الجهد» . ولما سألهما محمد ﷺ عمّن يرعى ابله ، ويسعى على ولده قالوا نحن . فقال: «أنتم أعبد منه» .

على ان الاسلام وان فضّل العاملين في الدنيا على الزاهدين بها فهو لم ينس ان يقول للمسلمين: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. (سورة الأعلى) خشية أن يتخذوا من رخصه مطية للافراط في حب الدنيا . ولم ينس أيضاً ، حينما أمرهم أن ينتشروا في الأرض بعد قضاء الصلوات المفروضة ، أن يوصيهم بذكر الله كثيراً كيما يكون لهم بذكرى الخالق رادع من دين في غضون انصرافهم للدنيا .

والى هذا فالاسلام لم يوازن بين كل من الشؤون الدنيوية والآخروية فحسب، بل وجه المسلمين سياسياً وجهة دنيوية حينما وعدهم بكنوز كسرى وقيصر . على ان هذا الوعد كان مشروطاً أيضاً بعمل الصالحات:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

وهذا التوفيق بين الدنيا والآخرة هو الذي حمل ليوبولد فاس الكاتب النمسوي على تفضيل الاسلام على غيره حيث قال: «ومن بين سائر الأديان نجد

الاسلام وحده يتيح للانسان أن يتمتع بحياته الدنيوية الى أقصى حد من غير فقدان أي شيء من اتجاهه الروحي. وهذا أمر يختلف عن وجهة نظر المسيحية».

ولعل هذا الأمر كان في عداد الأسباب التي حملت هذا الكاتب الى اعتناق الاسلام.

ذلك كله، بالاضافة الى اختلاف الظروف التي عاش فيها كل من عيسى ومحمد ﷺ، يجعل الحكم على نبيّنا الخطأ من جراء استخدامه السيف يجعله غير مُنصف. وانما الذي يصح الحكم فيه، اذا لم يكن من المفاضلة بدّ، «**هو أي المبدأين خير: مبدأ الدعوة للآخرة فحسب، أم مبدأ الدعوة للدنيا والآخرة معاً**». وهذا موضوع لا مجال للتعرض له في هذا الكتاب. وأما الذي تصح الاشارة اليه هو حكم التاريخ.

ان التاريخ يبين لنا ان اتباع عيسى أدركوا أعظم نصيب من الدنيا مذ اتبعوا مبدأ محمد ﷺ: «**أحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**». بينما ان جماعة محمد ﷺ ما أن تخلوا عن هذا المبدأ من جراء تسرب الصوفية الأعجمية اليهم، القائمة على الاتكالية، وزهدوا بالدنيا حتى زهدت بهم، وأفسحوا للذين أدوا حقوقها كاملة ان يستأثروا بالسيادة دونهم.

وبعد فهل من الأنصاف توجيه النقد، والنقد اللاذع أحياناً، الى رجل كافح في سبيل استئصال الوثنية حتى طهر جزيرة العرب منها، وطهرها من تردي الأخلاق. رجل انما كان يدعو الى ما دعا اليه موسى وعيسى وسائر الرسل؟

ـ ولماذا هذا النقد؟

ـ لأنه قابل القوة بالقوة حيث لم تنفع الموعظة الحسنة!

ـ ولأنه استعان بالسيف، في سبيل الاصلاح، حينما لم يبق ما يجدي غير السيف!

ليس هذا التحامل من الأنصاف، خصوصاً: «ان الغاية تبرر الواسطة» .

خاتمة الكتاب

مجمل العوامل التي مهدت لمحمد ﷺ، ولانتصار رسالته

كانت أحوال شبه جزيرة العرب في العصر المعروف بفترة الجاهلية (حوالي ٥٢٥ - ٦٢٢ م) كانت على شيء كثير من الشبه بحالها في عصرنا الحاضر وذلك من حيث الوضع الاستراتيجي العالمي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي، هذا فضلاً عن أن بلاد العرب كانت، كما هي الآن، تنتفض لاستقبال عهد جديد.

كانت الجزيرة منطقة استراتيجية هامة بالنسبة لوقوعها بين مختلف القارات، ولقيامها بين الدول الكبرى في العالم. فمن الشرق الى الغرب كانت تقع بين البحر الأحمر ومن ورائه دولة الحبشة وايالة مصر من أعمال البيزنطيين من جهة، وبين بحر عمان وخليج فارس والعراق ومن ورائها الامبراطورية الفارسية من جهة أخرى. ومن الجنوب الى الشمال كانت تقع بين المحيط الهندي ومن ورائه السند والهند وما اليهما، وبين مملكة آل غسان الشام ومن ورائها الامبراطورية البيزنطية.

وهذا الوضع الجغرافي أفضى الى نشاط جزيرة العرب، وأدى الى ثراء مدنها ثراء اختلفت مقاديره باختلاف الزمان والأحوال. وهو بالاضافة الى انه جعلها على اتصال فكري تام بسائر العالم فقد أهلها لأن تقوم في التجارة بدور

الوسيط بين كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا معتمدة على قوافلها المنظمة، وعلى ما كان لديها من وسائل الملاحة. وكان العرب، على ما جاء في التوراة (حزقيال ٢٧ - ١٨) «يتّجرون مع سوريا بالأرجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت، ومع فلسطين بالحنطة والحلاوة والعسل والزّيت والبيلسان، ومع دمشق بالصوف والخمر». هذا فضلا عن أصناف أخرى متعددة كانوا يضطلعون بأعباء نقلها من الشرق الى الغرب، ومن الجنوب الى الشمال.

والى ذلك كان لجزيرة العرب موارد أخرى من أعمالها الداخلية، وكان أهمها الغوص على اللؤلؤ في بحورها وخلجانها، وتجارة اللبان والتمور والجلود والألياف. وكان للبّان في العالم القديم شأن كبير لاعتبارات دينية، فارتفعت أثمانه بمقدار الطلب عليه. وفي زمن أقدم نعت بلينيوس الروماني بلاد العرب كلها بالسعيدة لاحتوائها على اللؤلؤ واللبان، ذلك لأن المترفين من الرومان كانوا يتباهون باقتنائه ليحرق عند موتاهم الأعزاء بعد أن كان استعماله يقتصر على مراسيم العبادة[١].

وقد استطاع البيزنطيون والفرس، قبيل الاسلام، أن يتناولوا من العرب زمام التجارة البحرية في كل من البحر الأحمر وخليج فارس والمحيط الهندي، الا انهم لم يجدوا سبيلاً لمجاراتهم في الطرق البرية، فظلت القوافل العربية، على حالها، الوسيط بين القارات الثلاث إبان ما كان الصراع بين الفرس والروم يفضي أحياناً الى تعطيل الملاحة، والى الاعتماد على هذه القوافل وحدها.

وكان من عواقب اتصال الجزيرة العربية بما حولها من العالم المتمدن وقوع ثورة فكرية في أوساطها تركزت حول الشكوك في عبادة الأصنام، والتطلع الى دين آخر خير من الوثنية. وكان يزيد هذه الثورة الفكرية اشتعالاً اليهود

---

(١) Pliny, Bk, XII. Ch. 41.

والنصارى القاطنين في جزيرة العرب، والبعثات الدينية التي كانت تفد، كل عام، الى أسواق العرب الأدبية والتجارية، في أيام الحج، وتدعو بحرية الى أديانها. فاذا بجزيرة العرب تشاهد، خلال فترة الجاهلية، فوضى دينية لا عهد لها بها من قبل. فهنا انتشرت اليهودية، وهناك دخلت النصرانية، وهنالك انبثت المجوسية والبرهمية، بينما أمسى بعض العرب لا دينيين، واختار بعضهم، وأكثرهم في مكة، مذهب كمذهب الشيوعية لماني ومزدك الفارسيين. أما السواد الأعظم من الناس، ولا سيما أهل القبائل، فقد حافظوا على وثنيتهم، وعلى ولائهم لسدنتها بمكة. وقد رافق هذه الثورة الفكرية، العارمة بالشكوك في صحة الوثنية، جنوح كثير من الطبقة المتنورة الى الدعوة للاصلاح، والى تشجيع فريق منهم للادعاء بالنبوة كوسيلة لتقرير هذا الاصلاح. على أن تلك لفترة وان كانت تلقب بالجاهلية الا انها شهدت نهضة أدبية عارمة رافقت ثورتها الفكرية المضطرمة. ولعل بركان الثورة الفكرية وقتئذ لم يجد منفذاً له آخر غير الناحية الأدبية فانفجر في هذه الناحية، ولا سيما في نظم الشعر.

فالمعلقات وغيرها من القصائد الرائعة التي خلدت ذكر أصحابها، والتي تدل سلاستها، وما جاء فيها من حكم، على المقدار الذي أدركه أولئك الاعراب في أخلاقهم وأفكارهم كانت من مظاهر تلك الثورة.

وكانت جزيرة العرب أشد شبهاً بعالمنا الحاضر، في الناحية السياسية، من أي شيء آخر: ذلك بأن العالم، في ذلك الحين، كان كما هو الآن ينقسم الى كتلتين شرقية وغربية. فالامبراطورية الفارسية كانت تمثل الكتلة الشرقية بينما كانت الامبراطورية البيزنطية تمثل الكتلة الغربية، وهما على صراع مستمر، تتخلله حروب دامية، وأخرى باردة. ولكل من هاتين الكتلتين مؤيدون بين العرب. أما الوثنيون منهم، وهم الكثرة الساحقة، فكانوا حزباً لكسرى على قيصر.

وكانت الحروب بين الكتلتين سجالاً، ولكنها انتهت في سنة ٦٢٧ م بنصر حاسم أحرزه الروم على الفرس حتى بلغوا عاصمتهم نينوى، وانتهت بتهديم قرى كل من الغالب والمغلوب: فالفرس المنهزمون لم تقم لهم من بعد قائمة، وانصرفوا الى شؤونهم الخاصة. والبيزنطيون المنتصرون، الذين كلفهم هذا النصر غالياً، منوا بانحلال العزائم من جراء سآمة شعوبهم من الحروب، وضجرهم منها، وبسبب انفضاض كثرتهم من حول الدولة لما تحمل الشعب خلال تلك الحروب الطويلة من مصادرات ومغارم. والى هذا فإن الجدل البيزنطي حول الشؤون الدينية صرفهم وصرف الدولة معهم عن كل شيء آخر.

وكان ذلك العصر وما قبله قد شهدا حروباً أخرى متعاقبة نشبت بين اليمن والحبشة، وكانت أيضاً سجالاً بينهما. ثم أسفرت عن احتلال الحبشة اليمن سنة ٥٢٣ م على أثر عدوان ذي نواس آخر ملوك حمير على نصارى نجران.

وكان لاحتلال الحبشة لليمن بعض النتائج في جزيرة العرب، وأهمها بروز ظاهرة أشبه شيء بما يسمونه الوطنية في هذا العصر: فالعدنانيون وغيرهم كانوا يخضعون لليمن خضوع التابع للمتبوع، ويؤدون لها جعالات مقررة. فلما احتلت الحبشة اليمن نهد العدنانيون لطلب الاستقلال، فوقعت بينهم وبين اليمن حروب انتهت بفوزهم: فقد جمع كليب أمير وائل تحت لوائه ربيعة وقضاعة ومضر واياد ونزار، وانتصر في يوم خزار على اليمن، وقد سمي عقب ذلك بملك العرب. ولكن العدنانيين لم يلبثوا الا قليلا حتى تنازعوا أمرهم بينهم، وعادوا الى الانضواء تحت الوية مختلفة.

على ان هذه الظاهرة الوطنية ظلت ثابتة في نفوس العرب ولم تلبث أن اتخذت شكلاً قومياً عندما أتيح لسيف بن ذي يزن، أحد أبناء تبابعة حمير،

اجلاء الأحباش عن اليمن، أولئك الذين حاولوا في عام الفيل (عام مولد محمد ﷺ) احتلال مكة، وهدم كعبتها في سبيل تحويل مشركي العرب الى المسيحية. فلما أتيح لسيف بن ذي يزن استرداد استقلال اليمن خف عبدالمطلب جد النبي الى صنعاء، وكان سيد مكة، وقدم تهانيه له باسم قريش.

ففي غضون هذه الانتفاضات الفكرية والأدبية والقومية التي برزت في جزيرة العرب، وخلال ما كان يتنازع الجزيرة ما يتنازعها من العوامل السياسية والدينية والمبادىء المختلفة ظهر محمد ﷺ؛ فكان ظهوره في الوقت الملائم.

أشار ادمون دي مولان في كتابه «سرّ تقدم الانكليز السكسونيين» (ص ٣٤٥) الى ضرورة استعداد الأرض وصلاح البزر ليأتي الزرع بالثمر الطيب. فالأرض العربية التي كانت تحن الى جمع شتات أبنائها، عند ظهور محمد ﷺ، كانت أشد حنيناً الى وحدة دينية تقوم على غير أسس الوثنية.

لقد كان أمام العرب النصرانية واليهودية، ولكن الصراع المتواصل بينهما على مرأى ومسمع منهم، وما تخلل هذا الصراع من محاولة كل واحدة منهما تهشيم الأخرى، أسقط الملتين في نظرهم من جراء ما خلفه ذلك التهشيم المتبادل من ذكريات سيئة. فاذا بمحمد ﷺ يأتي ويدعو الى دين وسط بينهما يعترف بالديانتين. فهو يصدق الموحدين من فرق النصارى، الذين كان ينزل بعضهم في بلاد العرب، ويزكي المسيح معترفاً بانه كلمة الله وروح منه، ويزكي أمه مريم ويصفها بانها صدّيقة. وهو يصدق اليهود في صدد الاعتقاد بإله واحد لا شريك له، وفي الايمان أيضاً بكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر.

فوجد العرب في الدين الذي يدعو اليه محمد ﷺ ضالتهم المنشودة، ووجدوا فيه، ما وجد فيه غيرهم من بعد، سهولة في ادراك العقيدة ما كانوا

يجدونها في اليهودية ولا في المسيحية المعاصرتين[1]، ذلك لأن الجدل الطويل الذي كان يقوم بين فرقهما جعل الايمان عندهما يدخل في نطاق علم الكلام، ويحتاج لكثير من التحليل والتعليل.

غير ان توماس كارليل ينفي أن تكون سهولة الاسلام من أسباب انتشاره مع اعترافه بما كان لمشاحنات تلك الفرق الدينية من أثر في هذا الانتشار. فهو يقول: «ان الدين المحمدي ليس بالسهل ولا بالهيّن، وفيه ما فيه، كل ما تعلمون، من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة واقامة الصلوات خمساً في اليوم، والحرمان من الخمر. وليس، كما يزعمون، كان نجاح الاسلام وقبول الناس اياه يعودان لسهولته» (البطولة والأبطال ص ٧٩).

ويخيل لي ان كارليل قال هذا ويعني الاسلام بعد انتشاره، وبعد خروجه من جزيرة العرب. أما في مكة وفي غضون اعلان محمد ﷺ نبوته فقد كانت الدعوة تقتصر على عقيدة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكانت الصلاة مرتين: ركعتان في الغداة وركعتان في العشي. أما الزكاة والصوم والحج وما يليها فقد فرضت تباعاً في المدينة حيث نظمت الشريعة بما فيها من عبادات وأحكام ومعاملات. كما ان أوقات الصلوات الخمسة، وعدد ركعاتها وسجداتها، وما يقتضي ذلك من التوجه لله والطهارة فقد فرضت في المدينة أيضاً.

هذا وكان لظهور الاسلام في مكة منافع له ومضار. فمكة وما حولها كانا مجتمعاً عاماً للعرب، حضرها ووبرها، خلال الأشهر الحرم وذلك للحج والمساهمة في أسواقها الأدبية، ومعارضها التجارية. وبذلك أتاحت مكة الفرص لمحمد ﷺ لأن يبشر بدينه بين العرب كافة في هذه المجتمعات العامة

(١) Laura Veccia Vaglieri, Apolagis dell Islamismoby P. 40-46.

السنوية الدورية، حتى اذا أسلم من أسلم من حجاج أهل يثرب ونشروا الاسلام بين أهاليهم كانت الهجرة الى المدينة، وكان الفوز للاسلام فيها.

هذا من الناحية الايجابية، وأما من الناحية السلبية فمكة كانت قاعدة الوثنية في جزيرة العرب، وكان سادتها أحرص الناس على حماية الوثنية لمنافع خاصة لهم مادية واجتماعية. لذلك، ورغم الشكوك التي كانت تخالج قلوب العرب في صحة عبادة الأصنام، فإن قريشاً سدنة الكعبة أقاموا في وجه الاسلام كل المصاعب، وأقبلوا على ايذاء محمد ﷺ والمؤمنين به حتى حاولوا الفتك به أكثر من مرة. ولولا انه كان، بمقتضى التقاليد العشائرية، في حماية أهله بني عبد مناف وبني هاشم، من أسلم منهم ومن لم يسلم، لما كان في وسعه أن يمضي طويلاً في تبليغ رسالته. ومع ذلك فقد اضطر الى مغادرة مكة بعد وفاة عمه أبي طالب، الذي كان على رأس حماته، واختار الهجرة الى المدينة، الى حيث عاهده المسلمون من الأوس والخزرج على أن يقوموا مقام عشيرته في حمايته، فكان فيها ذلك الحارث الماهر الذي عرف كيف يستغل الأرض الصالحة للزرع.

ولقد اشترط ادمون ديمولان أن تكون البذور صالحة والتربة مستعدة لها للحصول على الثمر الطيب. واني أرى مع هذا أن يكون الزارع كفءاً يحسن الزرع، ويحسن رعايته. وكذلك كان محمد ﷺ: فقد استطاع باخلاصه أن يجعل الايمان، الذي كان يملأ فؤاده، ينتقل الى قلوب قومه حتى امتلك مشاعرهم، وأصبحوا جميعاً جسداً واحداً هو دماغه المفكر الموجه. والى ذلك فقد استطاع بحكمته، وبأعماله المطابقة لأقواله أن يستحوذ على ثقتهم التامة، وعلى محبتهم المخلصة حتى أضحوا، على ما روى المؤرخون، «لا يتركون شعرة من شعره تقع الا ويتنازعونها بينهم»؛ وحتى بلغ من اخلاصهم في الايمان ان أبناء المتخلفين عن غزوة تبوك واخوانهم هجروا هؤلاء ونبذوهم، ثم لم

يخالطوهم حتى سمع لهم النبي بمواصلتهم.

فتلك العوامل الخارجية والداخلية التي هيأت الأرض، بالاضافة الى صلاح البذر وكفاءة الزارع، كانت الأسباب الطبيعية لظهور الاسلام ولانتصار محمد ﷺ في المعركة الشديدة التي خاضها ضد الوثنية والفساد. كما ان الانقلاب العظيم، الذي حدث بالاسلام في نفوس العرب وأخلاقهم، هو الذي وفّر لهم الأسباب للانطلاق، بعد نبيّهم، الى فتح أمصار كثيرة أخرى، فيما وراء شبه جزيرتهم كانوا من قبل يتندّرون بأخبار عظمتها؛ كما ان ذلك الانقلاب كان حافزاً لهم على المضي في فتح غيرها من الأقطار التي لم يكونوا يسمعون بأسمائها. وقد استولوا عليها في وقت قصير، ليس بالسيف فحسب، بل بالمبادىء الانسانية التي كانوا يحملونها معهم، وأهمها الرحمة التي تعطفهم الى من سواهم من أبناء آدم وحواء.

﴿انتهى الكتاب﴾

فهرس الموضوعات

صفحة

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

الفصل الحادي عشر:

الفصل الثاني عشر:

خاتمة الكتاب:

